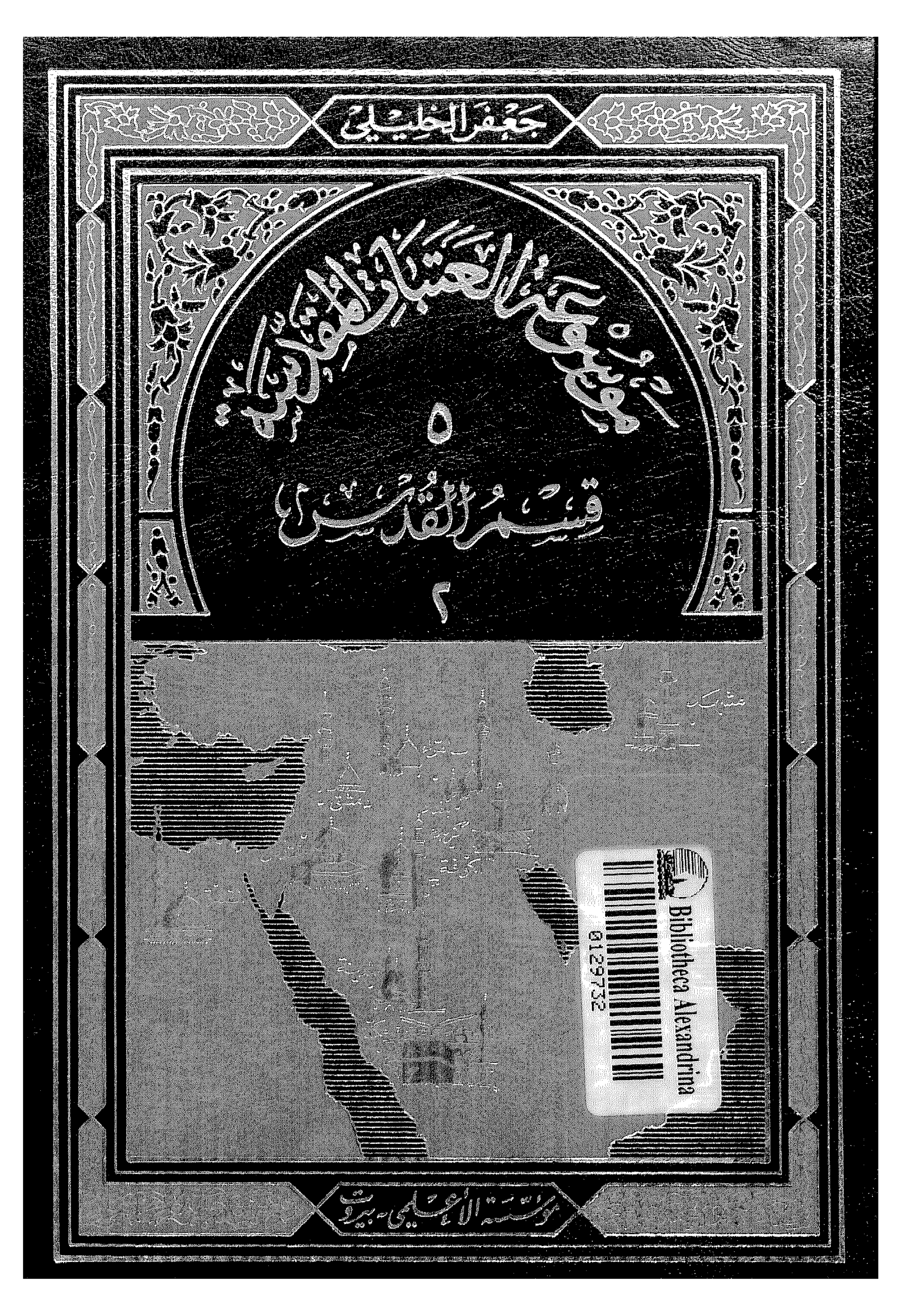

جعفر الخليلي
موسوعة العتبات المقدسة
٥
قسم القدس
٢
مؤسسة الأعلمي - بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0129732









موسوعة العتبات المقدسة

٥

قسم القدس

القسم الثاني

تأليف

جعفر الخليلي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب: ٧١٢٠

القدس
في المراجع الغربية

كتبه وترجمه
من مختلف المصادر الغربية

جعفر الخياط

الحائز على درجة استاذ علوم M. S. C. من جامعة كليفورنيا ومدير التعليم الثانوي والمفتش الاختصاصي ومدير التعليم المهني العام بوزارة التربية سابقاً



القدس

في المراجع الغربية

كانت القدس ولا تزال قبلة أنظار العالم أجمع . لأنها البقعة الوحيدة التي أجمع معتنقو الديانات الكبرى الثلاث فيها على تقديسها وبذل الغالي والرخيص من أجلها . ومن الصدف ان تأتي كتابتنا هذه عنها في وقت حمي وطيس النزاع فيه بين الباطل اليهودي الغاشم ، الذي اغتصب هذه البلاد الغالية ، وحق العرب الصريح الذي انبرى ابناؤهم البررة لاسترجاعها بكل ما يملكون من جهد ومال أو أنفس ورجال . ومن المؤسف حقاً ان ينحاز الغرب المسيحي ، في هذا الصراع العنيف من أجل الحياة ، بدافع من مصالحه ، الى جانب اليهودية المتطرفة والصهيونية فيساعدها ، ويمدها بالعون المادي والمعنوي . ليتغلب باطلها على الحق الصراح في أرض الأنبياء . ومن الغريب كل الغرابة ان يتناسى الغرب المسيحي عداء اليهود للسيد المسيح وأتباعه في كل عصر أو زمان ، فيقف في صفهم ويعادي الحنيفية السمحاء في أرض البراق والأسراء . ويخذل أبناءها فيعمل على هضم حقوقهم وتشريدهم في الآفاق ، وهي التي فتحت صدرها الأهل الكتاب ورعت ابناءهم وطوائفهم في أيام عزها ومجدها .

الاسم والموقع

يقول الاستاذ غي لسترانج[١] ، المستشرق الانكليزي المعروف ، في كتابه (فلسطين في عهد المسلمين) ان القدس تعرف عند المسلمين باسم « البيت المقدس » أو « القدس » باختصار ، وهو اسمها الاعتيادي الآن . غير ان الاسم العبري القديم « يروشاليم » كان يعرف جيداً لدى العرب في السابق لكنه لم يكن يستعمل . ويذكر ياقوت الحموي اسماء أخرى مثل « يوريشالّوم » — بتشديد اللام — و « يوريشالوم » من دون تشديد ، و « شلاّم » ، باعتبارها أسماء مختلفة للمدينة المقدسة هذه في عهد اليهود الأقدمين .

كما يقول الاستاذ ف . بوهل فيما كتبه عن القدس في دائرة المعارف الاسلامية[٢] ان كلمة « القدس » هي الاسم العربي الاعتيادي في الأزمنة المتأخرة . وكان كتاب العرب القدامى يسمونها « بيت المقدس » ، ويقصد بذلك في الحقيقة هيكل سليمان الذي يسمى في العبرية « بيت هامقديشا » ، لكن الاسم شمل المدينة كلها بعد ذلك . وكذلك كان يسميها العرب « إيلياء » ، وهذا الاسم قسم من الاسم الروماني الذي أطلق عليها بعد سنة ١٣٥ م ، وهو « ايليا كابيتولينا » . وقد عرفوا الاسم القديم « جيروسالم » ، أيضاً وحوروه الى « أوريشالم » . ويذكر المقدسي كذلك اسماً آخر للقدس وهو « البلاط » المستخرج من كلمة Palatium ، الذي ربما أُريد به « المسكن الملكي » .

اما دائرة المعارف البريطانية[٣] فتذكر في هذا الشأن أن أول دليل وثائقي عن وجود القدس يعود الى سنة ١٣٧٠ قبل الميلاد . فقد اكتشفت ألواح في

---

(١) Le Strange, Guy — Palestine under the Moslems 1810.
(٢) Shorter Encyclopaedia of Islam. Edited by H.A.R. Gibb & J.H. Kramers, 1961. Encyclopaedia Britannica, 1966.
(٣) وهي تحرر بمشورة واشراف الدوائر المختصة في جامعة شيكاغو ، ولجنة تتكون من أساتذة في جامعات أوكسفورد وكيمبردج - لندن . لجنة أخرى في جامعة تورنتو بكندا .

تل العمارنة بمصر تسميها باسم « أوروسالم » ، ومن المحتمل ان يكون معناه « مدينة السلام » أو مقر إلآه من آلهة الساميين يدعى « سالم ». وجاء في كتاب (فلسطين العرب[١]) (لمؤلفته الانكليزية الفاضلة المسز ستيوارت ايرسكين (الص ٩ — ٢٤) قولها في هذا الشأن : ويعني اسمها الذي بقي غير متبدل خلال ألفي سنة من النور والعتمة « دار السلام » أو « إرث السلام » كما يفهم من كلمة « يوروسالمو » الكنعانية و « ياروشلايم » العبرية و «هيروسوليمة اليونانية . اما اسمها العربي فيدل على الحرمة والقدسية .

وقد لاحظنا في دائرة المعارف اليهودية[٢] ما مفاده ان اسم القدس يذكر في العهد القديم ، وعلى معظم العملة العبرية القديمة باسم « يروشلايم » ، وبالآرامية « يروشلم » ، وبالآشورية « يوروسالم » و « يوروساليمو » . اما تركيب الكلمة ومعناها فهناك عدة آراء فيهما : فانها تعني على ما قيل « دار السلام » او « دار سالم » او « أساس السلم » او « اساس شلم » ، وشالم هو إله السلام . وبالنسبة لما يذكر في المدراش اليهودي انها تتألف من « شالم » وهو الاسم الذي كانت تسمى به مدينة سام (بن نوح) ، ومن « يرعه » او « يرءه » وهو الاسم الذي أطلقه عليها ابراهيم عليه السلام . لكن التعريف العملي المعقول للاسم يأتي بمعنى « يوروشالم » اي مدينة الاله شالم . وقد يكون هذا هو الاله الآشوري شالمان او شولمان او الاله الفينيقي والمصري شاراملانا .

هذا وتقع القدس على خط عرض بدرجة ٣١ و ٤٦ دقيقة و ٤٥ ثانية شمال ، وبخط طول ١٥ درجة و ١٣ دقيقة و ٢٥ ثانية . وتقوم فوق الجناح الجنوبي لهضبة يتحدر اتجاهها الشرقي من ٢٤٦٠ قدماً فوق سطح البحر شمالي

---

(١) Erskine, Mrs. Stewart — Palestine of the Arabs (London 1935).

(٢) The Jewish Encyclopedia — Prepared by more than four hundred scholars and specialists. New York and London 1897 (Funk & Wagnalls).

منطقة الهيكل الى ٢١٣٠ قدماً في الطرف الجنوبي الشرقي . ويرتفع الجبل الشرقي الى ارتفاع ٢٥٠٠ قدم عن سطح البحر ثم ينحدر في اتجاه جنوبي شرقي من هضبة اليهودية .

وتحاط القدس من جميع جهاتها بأودية لا يكون القسم الشمالي منها واضحاً كل الوضوح . ويبدأ الواديان الرئيسيان من شمال غربي المدينة الحالية (القديمة) ، فيمتد الأول نحو الشرق بانحناء طفيف الى الجنوب (وهو وادي الجوز) ثم ينحرف الى الجنوب رأساً فيكون وادي «ستي مريم» الذي كان يسمى وادي كدرون ، فيعزل المدينة عن جبل الزيتون . اما الثاني فيمتد رأساً الى الجنوب من الجهة الغربية للمدينة ، ثم يتجه شرقاً في الطرف الجنوبي الشرقي . وعند ذاك يتجه الى الشرق مباشرةً فيتصل بالوادي الأول بالقرب من بئر أيوب . ويسمى هذا وادي الربابي ، وكان يسمى قبلاً وادي هنوم[1] .

وهناك وادٍ ثالث يبدأ من الشمال الغربي حيث يوجد باب دمشق ، ويمتد في اتجاه جنوبي شرقي الى بركة سيلوم ، ويشطر القسم الجنوبي الى شطرين . ويوجد واد رابع كان يمتد من التل الغربي (بالقرب من باب يافا) الى منطقة الهيكل ، وهو الذي يمثل شارع النبي داود حالياً .

اما ما يذكره لسترانج عن موقع القدس واهميتها واسمها ، علاوةً على ما اقتبسناه قبل هذا منه ، فهو قوله أن الامبراطور هدريان الروماني حينما أخرج اليهود من القدس (١٣٠ م) سماها «ايليا كابيتولينا» . وتحوم حول هذا الاسم أساطير كثيرة يذكرها ياقوت : فهو يقول استناداً الى رواية كعب انها سمّيت أيليا لأن هذا كان اسم امرأة كانت قد شيدت المدينة المقدسة من قبل . ويعني هذا الاسم أيضاً ، على ما يقال ، بيت الله . وهناك من يقول إنها سميت كذلك باسم بانيها ايليا بن آرام بن سام بن نوح ، وكان أخاً لدمشق

(١) دائرة المعارف اليهودية .

وحمص وأردن . وكانت تسمى في الشعر العربي احياناً « البلاط » وهي كلمة استعارها العرب في الأصل من الكلمة اللاتينية بالاتيوم **Palatium** .

ثم يذكر لسترانج : ان القدس لم تكن من الناحية السياسية عاصمة « جند » فلسطين الاسلامية مطلقاً ، وانما كانت الرملة هي العاصمة . لكن المدينـــة المقدسة ، وهي تحتوي على المسجد الأقصى وقبة الصخرة وسائر الأماكن المقدسة كانت تعتبر في المرتبة الثانية في القدسية بعد مدينتي الحجاز المقدستين . مكة والمدينة ، في نظر المسلمين . وأنها سوف تكون المكان الذي يجتمع فيه البشر قاطبةً يوم الحشر . وقد كتب عنها الاصطخري وابن حوقل يقولان (القرن العاشر) إنها مدينة توكّر عالياً فوق التلال ، ويمكن للمسافر ان يصل اليها من جميع الجهات ، وليس فيها ماء جارٍ سوى الماء الذي يستخرج من العيون ويستعمل لسقي الحقول . ومع هذا فهي من أخصب بقاع فلسطين . وقد كتب هذه الكتابة في أيام ازدهار الرملة وعزتها ، حين كانت عاصمة الصقع الجنوبي السوري بينما كانت دمشق عاصمة الصقع الشمالي .

ويشير لسترانج ايضاً الى ان المقدسي يذكر كذلك ، وهو من أبناء بيت المقدس ، ان المنطقة المقدسة تقع في ضمن نصف قطر طوله أربعون ميلاً من القدس وتدخل فيه قرى كثيرة ، ثم تمتد على طول اثني عشر ميلاً من ساحل البحر الميت الى صفار وموأب ، والى خمسة أميال بعد ذلك في البادية . اما من الشمال فتمتد الى حدود نابلس . وهذه بلاد تنبت في مرتفعاتها الأشجار ، وتمتد في سهولها الحقول التي لا تسقيها الأنهار . ويصح فيها قول الرجلين اللذين جاءا الى موسى بن عمران وأخبراه بأنهما رأيا بلاداً يسيل فيها اللبن والعسل .. ويقول المقدسي بعد ذلك انه شاهد بنفسه يوماً ما في القدس ان الجبن كان يباع بسدس الدرهم للرطل الواحد ، والسكر بدرهم للرطل الواحد . وبهذا المبلغ كان بوسع المرء ان يحصل يومذاك على رطل ونصف من زيت الزيتون وأربعة أرطال من الزبيب .

وبعد ان يحول لسترانج هذه الأسعار الى العملة والمقاييس الانكليزية ليبرهن على الرخاء الذي يفصله المقدسي يقول ان الخصب الطبيعي العظيم في منطقة القدس يشير اليه الكتاب العرب على الدوام . ويعزى ذلك الى لطافة المناخ وملائمة الأحوال الجوية ، ثم يستشهد بقول المقدسي عن رطوبة جوها الذي يذكر انه عندما تهب الريح الجنوبية في فلسطين خلال الصيف يتراكم الندى فوق شبابيك المسجد الأقصى ويسيل منها . وتأييداً لهذا يورد لسترانج في حاشية له (الص ٨٧) ما يقوله غايكي في كتابه[1] (الأرض المقدسة والأنجيل) عنها . إذ يقول غايكي ان السماء الصاحية في فلسطين تسبب انتشار حرارة النهار في الفضاء بسرعة ، فيؤدي ذلك الى ان تكون الليالي باردة والنهارات بعكسها . وبسبب برودة الهواء في هذه الليالي تسقى النباتات سقياً طبيعياً . فالرطوبة التي يحملها الهواء تمتصها الأرض التي يلامسها ذلك الهواء . ويحيلها الهواء البارد الى قطرات من الماء تتناثر بشكل مطر ضبابي مستحب فوق النبتات العطشى .

ويقول بعد هذا ان موقع القدس وهي تقبع فوق جناح ممتد من الجبل . وتحيط بها وديان عميقة من ثلاث جهات ، كان على ما يظهر قد لفت أرنظا الحجاج القادمين اليها من الشرق والغرب ، لا سيما وان العرب كانوا متعودين على إنشاء مدنهم الكبيرة في الوديان ، او السهول للاستفادة من مياه الأنهر والجداول . وهنا يورد لسترانج وصف الرحالة المسلم ناصر خسرو للقدس حينما وصلها في ٥ مارت ١٠٤٧ م بالطريق الشمالية . فهو يقول : وبعد أن تابعنا السير في طريقنا الصاعد على بعد قليل من قرية انفتح أمامنا سهل عظيم كان قسم منه حجرياً وقسم ذا تربة جيدة : وهنا امتدت أمامنا بيت المقدس كما لو كانت موكرة فوق قمة الجبل . ويسمي أهالي سورية وما جاورها من

---

(١) Geikie, D.D. Couuningham — The Holly Land and the Bible.

البلاد المدينة المقدسة هذه باسم « القدس » ، وهم اذا لم يكن في استطاعتهم الحج الى مكة يذهبون في الموسم المعين الى القدس فيؤدون فيها الشعائر وينحرون الأضاحي يوم العيد كما يفعل الحجاج في مكة . وهناك سنين يبلغ عدد القادمين اليها عشرين ألفاً خلال الأيام الأولى من ذي الحجة . ويأتي النصارى واليهود كذلك من جميع بلاد اليونان وغيرها بأعدادٍ كبيرة لزيارة كنيسة القيامة والكنيس اليهودي الكبير فيها .

ويقول ناصر خسرو كذلك ـ فيما ينقله لسترانج عنه ـ ان الأراضي والقرى المحيطة بالمدينة المقدسة تقع في سفوح التلال الكبيرة ، وتحرث الأرض فيزرع فيها القمح والزيتون والتين ، وهناك أنواع عديدة من الأشجار أيضاً . ومع عدم وجود مياه للارواء فان الحاصلات تكون وافرة جداً فيها والأسعار معتدلة . فان كثيراً من الناس يستخرجون ما يقرب من خمسين ألف من (١٦,٨٠٠ غالون) من زيت الزيتون في السنة . وهذا يحفظ في أحواض وصهاريج ويصدر منه مقدار غير يسير الى الخارج بعد ذلك . والمقول أن الجدب والمحل لم تعرفهما سورية ـ ومن ضمنها فلسطين ـ في سنة من السنين قط .

وتقع القدس فوق الجبل .. وتحاط بأسوار من الحجر لها أبواب حديد . وليس هناك من حولها أشجار لأنها مبنية على الصخر . والقدس مدينة عظيمة جداً ، وكان عدد سكانها حينما زرتها حوالي عشرين ألف نسمة ، وفيها أسواق عالية مبنية بناءً حسناً . وجميع شوارعها مبلطة بقطع من الحجر ، وأينما وُجد تلٌ أو مرتفع فيها يقطع ويسوى ، وحالما يقع المطر يغسل البلد كله . وهناك في المدينة عدد كبير من (الفنانين) وأصحاب الصنعة ولكل حرفةٍ من الحرف سوق خاصة بها .

القدس في دائرة المعارف الاسلامية

بعد ان يذكر الاستاذ بوهل ، كاتب الخلاصة عن القدس في هذه المعلمة ، ما اقتبسناه قبل هذا عن اسم القدس ويقول ان هذه المدينة المقدسة ولو كانت تقوم في خارج نطاق المصالح التي كان يعنى بها النبي محمد عليه السلام فقد أصبحت ذات أهمية خاصة له حينما أخذ يتجه نحوها في صلواته ، على غرار ما كان يفعله اليهود (كذا) . أضف الى ذلك أنها كانت ، بالنسبة لما يذكره القرآن عن المسجد الأقصى . هدف إسرائه المعروف . وكان المقصود بهذا في ذلك الوقت الذي لم يكن قد بني المسجد الأقصى فيه بعد موقع هيكل سليمان القديم . على ان صحة هذا القول غير أكيدة ، في رأي الأستاذ بوهل ، لأن عدداً من الكتاب يؤيد رأي الأستاذ هورويتز بان المقصود في القرآن (أو ما كان يقصده النبي عليه السلام على حد تعبير بوهل) هو مكان ما في السماء كما يفهم من سورة الاسراء . لكن الرأي التقليدي الذي لا بد من أن يكون قد نشأ في وقت مبكر يرجح كفة بيت المقدس وأهميتها في هذا الشأن . لأن هذا الرأي هو الذي بني عليه اعتبار المزار الاسلامي المقدس في القدس من الأماكن المقدسة الثلاثة التي يصلي فيها مسلمو العالم . ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله : والحقيقة أنه يفضل على الحرمين المقدسين الآخرين في بعض الأحيان (أي مكة والمدينة) ، ولا نظنه مصيباً في ذلك .

وهناك روايتان مختلفتان عن استيلاء العرب على بيت المقدس . إذ تنص الرواية الغالبة على ان القائد العربي أبا عبيدة طلب الى الخليفة عمر في سنة ١٧ للهجرة (٦٣٨ م) ان يشد الرحال الى قصره في الجابية . لأن سكان بيت المقدس اشترطوا في تسليمهم ان يعقد اتفاقية التسليم الخليفة عمر بنفسه . اما الرواية الأخرى التي يؤيدها المستشرق الهولاندي دي غرييه[1] في كتابه عن فتح سورية فترجح ان الخليفة جاء الى الجابية من تلقاء نفسه لتنظيم شؤون المناطق المستولى عليها ، ومن هناك بعث بخالد بن ثابت الى القدس ليحاصرها . والرواية الأخرى التي يؤيدها المشرق الهولاندي دي غرييه في كتابه عن

(١) De Coeje—Mémoire sur la conquête de la Syrie. 1854 P. 110.

فتح سورية فترجح ان الخليفة جاء الى الجابية من تلقاء نفسه لتنظيم شؤون المناطق المستولى عليها . ومن هناك بعث بخالد بن ثابت الى القدس ليحاصرها ثم صادق عمر على الشروط التي وضعها خالد للاستسلام من بعد ذلك. وكانت هذه الشروط التي وصلت الينا بمختلف الصور والاشكال معتدلة جد الاعتدال فقد منح سكانها المسيحيون الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم وكنائسهم وصلبانهم بينما طلب اليهم ان لا تستعمل كنائسهم للسكن . وان لا تهدم أو يقلل من حجمها واتساعها . وان يحتفظوا بحريتهم الدينية . وكان عليهم في مقابل ذلك ان يدفعوا الجزية . ويساعدوا المسلمين في رد الجيوش البيزنطية وسائر الغزاة . اما تاريخ فتح بيت المقدس فهناك اختلاف بين المؤرخين فيه . ومنهم الطبري مثلاً الذي يحدده بربيع الثاني من سنة ١٦ للهجرة .

وهناك تفصيلات أخرى يوردها مختلف المؤرخين النصارى والمسلمين عن سلوك العرب في أثناء الاستيلاء على بيت المقدس . إذ يذكر ثيوفاتس الذي كتب كتابه في نهاية القرن الثامن للميلاد ان الخليفة حينما عقد الاتفاقية المطلوبة . التي كانت في صالح المسلمين الى آخر حد ممكن ، دخل المدينة المقدسة وهو يلبس اسمالاً متسخة ــ دلالةً على ريائه الشيطاني ــ على حد قوله وطلب ان يؤخذ الى موقع الهيكل الذي جعل منه بعد ذلك محلاً للعبادة الوثنية (كذا) . ولا شك أن تعصب هذا المؤرخ ضد المسلمين وتأثره من طردهم لقومـــه البيزنطيين هو الذي جعله يكتب بهذه اللهجة بعد أن اعترف بالمعاملة الحسنة التي عومل بها مسيحيو بيت المقدس . وقد كتب عن ذلك في القرن العاشر الميلادي بلهجة أحسن من هذه المؤرخ المسيحي المصري يوتيكس فقال بتفصيل أوفى نوعاً ما أن الخليفة عمر رفض ان يصلي في رواق كنيسة القيامة بل صلّى عوضاً عن ذلك على سلّم مدخلها ليحول دون مطالبة المسلمين بالكنيسة بعد ذلك وقلبها إلى جامع لهم وانه اعطى البطريرك صفرونيوس وثيقة تؤيد ذلك وبطلب منه دلّه صفرونيوس بعد هذا على الصخرة التي كانت مغطاة

---

(١) De Goeje — Mémoire sur la conquête de la Syrie. 1864. P. 110.

بانقاض من الزبـل والاقذار . وحـذا حذوه المسلمون . وسرعان ما بانت الصخرة لهم . وأمر في الوقت نفسه بـأن يشيّد المسجد بحيث تكون الصخرة في ظهر المسلمين وليس قدامهـم . ومن الواضح أن هذه القصة أريد بها تأكيـد حقوق النصارى في كنائسهم بأمر من الخليفة الأعظم . لكن المؤرخين المسلمين تخلو كتاباتهم من مثل هذا الاتجـاه بطبيعة الحال – حيث أنهم يظهرون المسيحيين في غير هذا الوضع . فهم يذكرون ان القس وليس البطريرك حاول باديء ذي بدء ان يغش الخليفة عمر حينما طلب ان يؤخذ الى هيكل داود . بأخذه الى كنيسة القيامة وكنيسة صهيون . لكن الخليفة فطن الى ذلك . لأن النبي عليه السلام كان قد وصف له المكان كما شاهده في ليلة المعراج . وأخيراً أُخذ الى موقع الهيكل فعرف أنه المكان الحقيقي . ويذكر الطبري قصة أخرى في هذا الشأن .

وبعد هذا يقول الدكتور بوهل كاتب البحث اننا اذا حللنا هذه الروايات بأمعان نجد أنها كلها تجمع على ان عمر طلب تشييد مكان للعبادة في بقعة الهيكل المهجورة . وأننا متأكدون تاريخياً من هـذا لأن المطران اركولفوس يذكر في كتابه[1] الذي كتبه حوالي سنة ٦٧٠ م ان المسجد كان بسيطاً جداً في بنائه . لكنه كان يستوعب ثلاثة آلاف من المصلين . والحقيقة ان ما حدث كان حلاً عملياً جداً للمشكلة . فقد وضع الخليفة اليد على موقع كان يعتبر مقدساً منذ مدة طويلة من الزمن ، من دون أن يصطدم بالامتيازات التي منحت للنصارى لأنهم لم يشيدوا أية كنيسة على موقع الهيكل . ومن الواضح بالاضافة الى ذلك ان ما يرويه لنا يوتيكوس حول صلاة عمر على سلم رواق كنيسة القيامة يعتبر قصة موضوعة لا سند تأريخياً لها ؛ وقد أريد بوضعها رد تعديات المسلمين عليها . لكن هذا التحيز في القصة يظهر بوضوح من قصة أخرى يرويها يوتيكوس . مفادها أن المسلمين في أيامه (النصف الأول من القرن الميلاد العاشر) تجاوزوا تعليمات عمر واستولوا على نصف الساحة الأمامية

---

(١) Bishop Arculfus — Hierosolymitana, Edited by P. Geyer 1898, translated by Mickley 1917, B. 19.

للنصارى لأنهم لم يشيدوا أية كنيسة على موقع الهيكل . ومن الواضح بالاضافة الى ذلك ان ما يرويه لنا يوتيكوس حول صلاة عمر على سلم رواق كنيسة القيامة يعتبر قصة موضوعة لا سند تأريخياً لها ، وقد أُريد بوضعها رد تعديات المسلمين عليها . لكن هذا التحيز في القصة يظهر بوضوح من قصة أخرى يرويها يوتيكوس ، مفادها أن المسلمين في أيامه (النصف الأول من القرن الميلاد العاشر) تجاوزوا تعليمات عمر واستولوا على نصف الساحة الأمامية بقرب السلم الذي صلى عليه الخليفة وبنوا فيه مسجداً سموه « مسجد عمر » لأن عمر كان قد صلى في موقعه . ويعتقد شمالز[١] ان شيئاً من بقايا أعمدة المسجد المذكور يمكن أن تلاحظ الآن .

وفي عهد الأمويين ، أدت الأحوال السياسية الى ارتفاع شأن بيت المقدس وأهميتها . فانهم لم يكونوا كثيري الاهتمام بتعاليم النبي محمد وميوله ، ولذلك لم يكن من الصعب عليهم ان يتركوا مدن الجزيرة العربية المقدسة حينما يكون من الصعب عليهم الوصول اليها لسببٍ من الأسباب . وكانت القدس على الأخص ، بالنسبة لقدسيتها التي اعترف بها النبي وبعض الآيات القرآنية ، يمكن ان تحل في محل تلك الأماكن المقدسة بطريقةٍ ما ، لا سيما وان الوصول اليها من دمشق كان أسهل من الوصول الى مكة والمدينة .

ومما يدل على التقدير الذي حظيت به القدس ما فعله معاوية حينما دبر أمر بيعته للخلافة فيها . فيذكر مرجع سرياني نشره المستشرق نولدكه ان كثيراً من العرب اجتمعوا في تموز ٧١ (صفر – ربيع ٤٠) في بيت المقدس لتنصيبه ملكاً ، وأنه نزل الى الضريح المقدس فصلى فيه ، ثم ذهب الى قبر مريم وصلى حوله كذلك . وتذكر المراجع العربية انه بويع في بيت المقدس سنة ٤٠ . ولا بد من أن يكون هذا قد حصل على أثر مقتل الامام علي في السابع عشر من

---

(١) Scmalz — Mater Ecclesiarum P. 361.

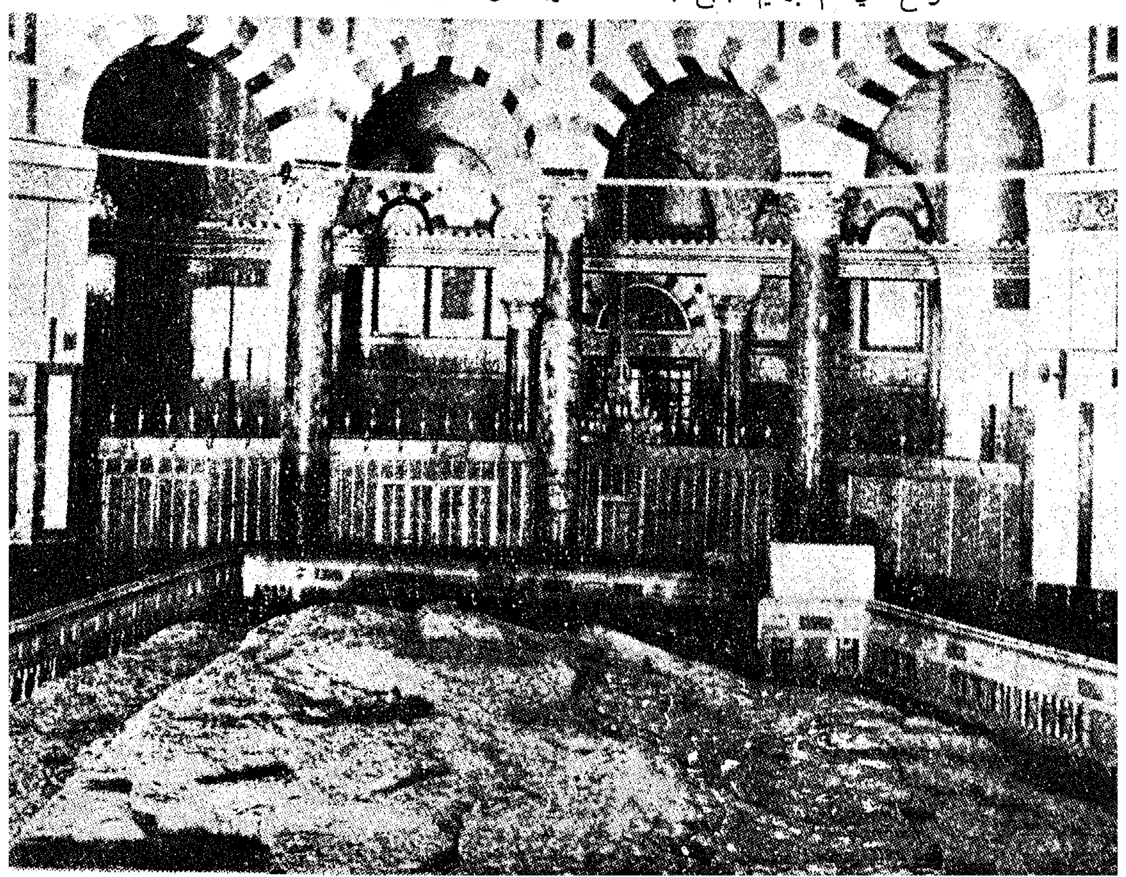
رمضان. وخطا عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ ، ٦٨٥ — ٧٠٥) خطوةً أخرى في هذا الاتجاه. فحينما استولى عبد الله بن الزبير على مكة خاف عبد الملك من أن يجبر السوريون الذين يقصدون مكة لحج بيت الله الحرام فيها على الالتحاق به. او يتم اقناعهم بذلك. ولهذا منعهم من الذهاب الى الحج، وحينما احتجوا عليه وذكروه بأوامر الرسول في هذا الشأن أمرهم بالحج الى بيت المقدس والصخرة المقدسة فيها، واشار لهم الى حديث أورده الزهري اعتبر النبي بيت المقدس فيه في سوية مكة والمدينة، بكونها محجاً لا يقل عن مكة والمدينة في أهميته. وللتعبير عن هذا التقدير لبيت المقدس في الزينة والبهاء أمر الخليفة الأموي بأن تبنى قبة خاصة فوق الصخرة التي وضع النبي قدمه الشريفة عليها حينما عرج الى السماء، فبنيت قبة الصخرة. وتنسجم فكرة تعمد عبد الملك، في جعل قبة الصخرة تفوق قبة كنيسة القيامة في جمالها وفخامتها. مع هذا الاتجاه. وهناك مؤرخون يجعلون الوليد بن عبد الملك باني قبة الصخرة وليس والده، لكن هذه الرواية تناقض الكتابة الموجودة التي حذف منها اسم عبد الملك ووضع في محله اسم الخليفة العباسي المأمون. حيث أن التحريف بقي غير متقن بحيث ما زالت الألوان والأسماء تدل على الحقيقة ويقول المؤرخون المتأخرون كذلك (ابن تغري بردي والعليمي والخ) ان عبد الملك بنى أيضاً المسجد الأقصى الذي استمد اسمه من الآية القرآنية المعروفة

وفي خلال القرون التي أعقبت ذلك يعتبر تاريخ بيت المقدس شبيهاً بتاريخ سائر المدن السورية بعد أن تضاءلت أهميتها من الناحية الدينية الاسلامية، وأصبحت في المؤخرة. فبعد زوال الحكم الأموي أصبحت تابعة للعباسيين، ثم الى الطولونيين. والى الفاطميين بعد سنة ٩٧٤ م. وفي سنة ١٠٠٩ هدمت كنيسة القيامة بأمرٍ من الحاكم بأمر الله. لكن الامبراطور البيزنطي أعاد بناءها بموجب المعاهدة التي عقدت بعد سنة ١٠٣٨. ثم خسرها الفاطميون باستيلاء السلجوقيين عليها في ١٠٧٠. وقد ذبح سكانها على أثر ثورة نشبت فيها سنة ١٠٧٦. وبعد ان استردها الخليفة الفاطمي المستعلي في ١٠٩٦ استولى عليها الصليبيون في ٢٥ تموز ١٠٩٩ ووضعوا السيف في سكانها. وقد عمدوا

الصليبيون هؤلاء الى قلب الجوامع الى كنائس .

وبعد ان استردها صلاح الدين في ١١٨٧ أضاعت القدس صبغتها المسيحية وأزيلت معالم الاحتلال النصراني لها . وقد عُني صلاح الدين عناية خاصة في إعادة المسجد الأقصى الى رونقه وبهائه الاسلاميين . على ان كثيراً من النصارى سُمح لهم بالبقاء فيها . وفي الفترة المنحصرة بين ١٩٢٩ و ١٢٤٤ امتلك المسيحيون القدس من جديد – عدا اماكن المسلمين المقدسة في الحرم – على اثر الاتفاقية التي عقدها الامبراطور فردريك الثاني مع الملك الكامل الأيوبي . وفي ١٢٤٤ وقعت بيت المقدس ثانية في أيدي الأيوبيين . وسرعان ما أصبحت هي وجميع سورية وفلسطين جزءاً من ممتلكات المماليك .

داخل قبة الصخرة وقد تم انشاؤها سنة ٦٩١ م فوق جبل (المريا) الذي يعتقد انه نفس الموضع الذي قام ابراهيم بذبح ابنه اسحاق قرباناً على رواية التوراة وبعض المؤرخين .



وبعد ١٥١٦ صارت القدس تابعة الى الامبراطورية العثمانية . ولم يعد تاريخها حافلاً بالحوادث المهمة . على ان فترة التاريخ العثماني جميعها يتخللها من الحوادث المهمة فقط احتلال المصريين لها في ١٨٣١ — ١٨٤٠ في أيام محمد علي . وفي القرن التاسع عشر أصبح النفوذ المسيحي يتزايد فيها بالتدريج . وبعد ان نشبت حرب القرم التي تحالفت فيها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية المعظمة ضد روسية رفع الحظر الذي كان مفروضاً على غير المسلمين في زيارة منطقة الهيكل . ومنذ سنة ١٨٨١ كان هناك شيء غير يسير من هجرة اليهود اليهـــا .

وبنتيجة ما وقع في الحرب العامة الأولى اصبحت القدس عاصمة فلسطين الخاضعة الى الانتداب البريطاني . وفي النزاع الذي أعقب ذلك بين العرب والهجرة اليهودية خلال مدة الانتداب على فلسطين وبعدها أدى الشعور القومي المتصاعد الى تمتين الأواصر التقليدية التي تربط المسلمين بالقدس وأماكنها المقدسة . وحتى بعد ان تكونت اسرائيل في ١٩٤٨ بقي وضع القدس النهائي غير مقرر .

ونقول تعليقاً على ما جاء في هذه الخلاصة من ان معاوية بويع في القدس ملكاً على بلاد الشام بعد مقتل الامام علي عليه السلام بأن المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن يذكر في كتابه [١] (تاريخ الدولة العربية) ان مهادنةً جرت في سنة ٤٠ هـ بين علي ومعاوية .. ويروي انهما اتفقا فأقام معاوية في الشام بجنوده يجبيها وما حولها . وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده . ولا يمكن ان تكون هذه المهادنة الا قصيرة الأمد . لأن معاوية اتخذ لنفسه في أول سنة ٤٠ هـ لقب الخلافة في بيت المقدس عام ٤٠ هـ . وهو يذكر في هذا

---

(١) Wiellhausen, Julius — Das Arabische und sein Sturz
الطبعة الثانية من الترجمة العربية (القاهرة ١٩٦٨) التي اضطلع بها الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ، الص ٩٦ .

الحادث روايتين مستقلتين ، فيقول : وفي عام ٦٧١ اجتمع كثير من العرب في بيت المقدس ونصبوا معاوية ملكاً ، فصعد معاوية الى جبل الجلجلة Golgata وصلى هناك ثم صعد الى جيتسماني ، ثم هبط الى قبر السيدة مريم وصلى .. وفي شهر تموز ٦٧١ اجتمع الأمراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية ، وصدر الأمر بان ينادى به ملكاً في جميع أنحاء بلاده . ولكنه لم يحمل تاجاً كما يحمله سائر ملوك العالم . على أنه أقام عرشه في دمشق ولم يرد ان يذهب الى مقر النبي (المدينة) . ويقول المسروقي أيضاً ان أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة في ايلياء سنة ٤٠ هـ ، ولكن من الخطأ القول بأن ذلك لم يحدث الا بعد وفاة الأمام علي .. ثم يعيد فلها وزن ذكر الخبر نفسه في مناسبة أخرى يتطرق فيها الى ان « معاوية لم يكن في قلبه تعلق عميق بالاسلام » وأنه كان يتخذ الثأر لمقتل عثمان هو الأساس الذي بنى عليه حقه في وراثة الخلافة . ولذلك اتحد مع عمرو بن العاص الذي ألّب على عثمان أخبث تأليب (الص ١٢٨ و ١٢٩ من الترجمة العربية)

القدس في دائرة المعارف البريطانية[1]

ان خلاصة دائرة المعارف هذه ، التي اشرنا اليها قبل هذا ، فيها تفصيل أوفى عن القدس . وتبدأ بقولها ان القدس هي المدينة المقدسة رقم واحد لليهودية والنصرانية ، وحرم الاسلام الرئيس بعد مكة والمدينة . وقد كانت مركزاً للورع الديني في العالم وقبلةً له خلال حقبة غير متقطعة تمتد الى ما قبل ثلاثة آلاف سنة . ثم قسمت في ١٩٤٨ ما بين الأردن و « اسرائيل » فاصبح القسم الاسرائيلي منها عاصمة لاسرائيل .

وتقع القدس في جبال اليهودية على ارتفاع يبلغ معدله ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر الأبيض المتوسط من الغرب ، و ٣٨٠٠ قدم فوق سطح البحر

---

(١) المجلد ١٢ من طبعة ١٩٦٦ .

الميت من الشرق . وتعزى أهمية موقعها أولاً الى مناعتها الطبيعية ، لأنها محمية من الهجمات بوديان عميقة . مثل وادي ستي مريم (كدرون) من الشرق ووادي الرباني (هنوم) من الغرب ، اللذين يلتقيان في طرفها الجنوبي تاركين الجهة الشمالية فقط معرضةً للأخطار . وثانياً الى وجود منبع ماء دائم في جناحها الشرقي . وهذه ميزة نادرة في فلسطين . وثالثاً لسيطرتها على الممر الذاهب من الشرق الى الغرب في شمال البحر الميت مباشرةً . وقد كان تاريخها يتميز بظاهرتين : فانها كانت ابداً ودوماً موطناً للتوحيد ومأوىً له ، لكن مصائرها المادية كانت تعتمد من دون تغيير على خصومات الدول والحكومات الخارجية .

قدس العهد القديم — ان أول بنية وثائقية عن وجود القدس يعود تاريخها الى سنة ١٣٧٠ قبل الميلاد ، فقد اكتشفت ألواح في تل العمارنة بمصر يطلب فيها حاكم القدس يومذاك المساعدة من الفرعون أخناتون لأن البلاد أخذت تتعرض للاكتساح . وتسمى المدينة « أوروسالم » ، وربما كان يعني ذلك « مدينة السلام » ، أو مقر إله من آلهة الساميين يدعى «سالم». وقد أظهرت في سنة ١٩٦١ الحفريات التي أجرتها « مدرسة الآثار القديمة البريطانية » في القدس ان بلدة « مسورة كانت توجد فوق قسم من موقعها الحالي خلال العصر البرونزي الثاني ، أي في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد على وجه الاحتمال. ولذلك يتضح ان القدس كانت قبل أن يأتي اليها العبريون مدينة كنعانية ذات أهمية . وكانت تقع المدينة الأصلية فوق المنبع مباشرةً والى الغرب منه ، على لسان ممتد من الأرض يسمى أوفيل في جنوب الهيكل ، يحيط بها واديا « كدرون » و « تيروبيون » . وقد برهنت الحفريات على ان البلدة كانت أوسع بكثير مما كان يعرف في السابق ، بحيث أنها كانت تمتد بعيداً الى أسفل المنحدر الشرقي ، وان الممر القديم الذي كان يؤدي الى المنبع كان في داخل أسوارها .

وقد احتل داود القدس في السنة السابعة من حكمه ، أي في سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد . إذ دخلها رجاله بقيادة أيوب بعد ان تسلقوا عمود البئر . وآدّى



هكذا كان يهود القدس في القرون السالفة يتسكعون في طرق المدينة وازقتها

شراء داود لساحة الدياسة التي كانت تشغل قمة التل الصخري الكائن في شمال عاصمته الجديدة الى تقرير مستقبل القدس في جميع الأزمان ، لأن خلفه سليمان شيد أول هيكل فيها لليهود . ولم تعرف الدولة الجديدة السلم والاستقرار ففي حوالي ٩٢٦ قبل الميلاد انسحبت القبائل (الاسباط) الشمالية وتخلت عنه . وفي ٩٢٢ غزا المدينة من مصر شيشق ونهبها . ثم أعقبه الفلسطينيون والعرب في ٨٥٠ . ومن بعدهم جوش الاسرائيلي في ٧٨٦ . ولم يكن حصار سنحاريب لها في سنة ٧٠١ حصاراً ناجحاً . لأن انشاء نفق سيلوم حال دون وصول قواته الى المنبع . ومع هذا فقد اضطر حزقيال الى ان يدفع جزية باهظة . ثم دخلت اليها عبادة الأوثان بتأثير الآشوريين فتقدم شأنها لكن جرميا وحزقيال شجباها وقاوماها . وفي ٥٩٧ نهبت القدس وسفّر ملكها الى بابل . ثم دمرت المدينة والهيكل تدميراً كاملاً في ٥٨٨ وبدأ عهد السبي . وبعد ان حل كورش في ٥٣٧ في محل الدولة البابلية حصلت عودة ما بعد السبي . فأُعيد بناء الأسوار حول المدينة بالنشاط الذي أبداه نحميا . كما أُعيد تشييد الهيكل وكُرّس لخدمة الله باحتفال خاص في عهد زيرو بابل . لكنه لم يكن مشمولاً بالعطف الروحي بالنسبة لما كان عليه الهيكل الأول . ومع هذا فقد ظل قائماً مدةً أطول من المدة التي بقي فيه الهيكل المقام قبله وبعده .

في العهد اليوناني الروماني — ولا يعرف الا القليل عن تطور المدينة وأحوالها خلال القرنين اللذين أعقبا ذلك العهد . لكن مجيء الاسكندر الكبير الى المشرق وانتصاره في موقعة أسوس سنة ٣٣٣ تأثرت به القدس تأثراً بالغاً . فقد أصبحت منذ ذلك الحين مدينة شرقية خاضعة لتأثيرات شرقية . وقدر لها في هذا العهد ان ترتبط خلال ألف سنة تقريباً ، أي الى أن جاءها العرب والاسلام بعجلة التأثيرات السياسية الغربية . وقد تكرر هذا الارتباط في القرنين التاسع عشر والعشرين . فقد دخلها بطليموس الأول من مصر . وفي سنة ١٩٨ استحوذت عليها الأسرة السلوقية الشمالية المالكة . فأزعج الأورثودوكس نمو التأثير الاغريقي — اي التأثير الوثني الملحد — إزعاجاً متزايداً وأعربت

خصومتهم عن نفسها بثورة علنية قامت في سنة ١٦٨ حينما عمد أنطونيوس أبيفانوس الرابع الى انتهاك حرمة الهيكل بتقصد . وكان يقود الثورة رجل متعبد من أهل الريف يدعى ماثاثياس الحسموني ، ومضى فيها ابنه يهودا مكابي[1] . وقد تمكن الحسماونيون من تأسيس دولة يحكمها ملوك أساقفة ، كانت بحجم مملكة سليمان تقريباً وصارت تضم منطقة الجليل . وبذلك ضمنوا أن ينشأ فيها المولودون لأبوين من الجليل ، بما فيهم يسوع الناصري ، في مجتمع يهودي .

وكان سعد روما في صعود يومذاك ، وكان الامبراطور بومبي قد استولى في سنة ٦٣ قبل الميلاد على القدس وروع اليهود بالدخول الى قدس الأقداس — وهو فأل غير حسن بالنسبة لاتصال روما باليهودية. وقد تأجل الاصطدام الذي لا مناص منه بين روما والقومية اليهودية مدةً من الزمن بالدهاء الذي كانت تبديه أسرة شهيرة كان لها نفوذ واسع في البلاد ، وكان من أنشط أفرادها هيرود الكبير . وهيرود هذا من أصل عربي أيدومي ، لكنه كان يـدين بالديانة اليهودية ، فقد كان أبوه انتي باتر عربياً أيدومياً تزوج من امرأة عربية نبيلة من أهالي بطرا . فوجد هو وأبوه بثاقب رأيهما ان حمل لواء المعارضة لروما يعتبر عديم الفائدة ، وان التعاون مع السلطة الجديدة هذه سيعود بالفائدة . وفي سنة ٤٠ قبل الميلاد ، أي قبل موت والده بسنين ثلاث ، عين مجلس السنيت الروماني هيروداً ملكاً على اليهودية . بعد ان كان حاكماً في منطقة الجليل . وبمساعدة من الجيش الروماني دحر آخر الحسمونيين فحكم اليهودية ، وهو صديق انطوني أولاً وأوغسطوس من بعده ، لمدة ست وثلاثين سنة أعاد خلالها بناء معظم أقسام بيت المقدس . فأشاد أولاً حصن أنطونيا في الزاوية الشمالية الشرقية من منطقة الهيكل ، التي هي الآن الحرم الشريف ، ووسعها الى سعتها الحالية البالغة ٣٥ أيكراً . وأخيراً أشاد قصراً

---

(١) Judas Maccabaeus

كبيراً ما تزال بقاياه موجودة في القلعة الحالية . وقد ربط هذا بحصن انطونيا بواسطة السور الثاني . وأعقب هيرود ابنه غير المرضي عنه هيرود أركيلوس . وفي سنة ٦ بعد الميلاد أصبحت اليهودية أقليماً من الدرجة الثالثة يحكمه وكيل[١] من الوكلاء . وفي عهد خامس الوكلاء هؤلاء ، أي بونتيوس بيليت[٢] (٢٦ — ٣٦) . صلب يسوع الناصري .

وفي خلال سنة ٤١ الى ٤٤ ميلادية أُعيد تشييد المملكة الهيرودية لصالح هيرود أغريبا الأول حفيد هيرود العظيم . فشيد أغريبا في القدس سورها الشمالي الجديد . المسمى بالسور الثالث ، ليضم في داخله الربض الجديد الذي جاءت به الى الوجود مقتضيات الأمن الروماني . وقد كانت آثار هذا السور موضوع الكثير من الاختلاف ، لكن المشكلة يمكن اعتبارها منتهية الآن لأن الحفريات الأخيرة التي اضطلع بها الآباء الدومينيكان تدل على انه كان يشغل مكان السور الشمالي الحالي . وكان السور الثالث يضم في داخله المكان الذي صلب فيه السيد المسيح وبقربه قبر يعقوب اريماثا الذي تقول الروايات انه كان قد دفن على مقربة من إحدى أبواب السور الثاني . وتدل الحفريات التي أجريت في ١٩٦١ على أن أغريبا كان قد وسع المنطقة التي يحيط بها السور من الناحية الجنوبية أيضاً .

وفي سنة ٦٦ للميلاد ثار اليهود على روما فسحقت الثورة في سنة سبعين ، وتضمن السحق حصار بيت المقدس وتدميرها مع حرق الهيكل . وأصبحت يباباً بلقعاً ليس فيها شيء سوى معسكر الحامية . وما حلت سنة ١٣٠ حتى كان قسم منها قد سكنه بعض السكان من جديد ، لكن الامبراطور هدريان ، الذي كان مولعاً بالتعمير مثل هيرود ، قرر ان يشيد على الموقع القديم مدينة جديدة قدر لها ان تكون بعد ذلك مستعمرة رومانية . فثار اليهود من جديد بقيادة

(١) Procurator

(٢) Pontius Pilate

.اركوكبا[١] وسحقوا ثانيةً أيضاً (١٣٢ – ١٣٥) ولم يعد لبيت المقدس .وجود مطلقاً حتى الاسم ، فنشأت في مكانها إيليا كابيتولينا[٢] . وقد غيّر العمران الجديد الذي تشير اليه خارطة مأدبا الفسيفسائية المشهورة (في شرق الأردن) اتجاه الشارع الرئيسي في القدس ، الذي كان ممتداً ما بين الهيكل والقلعة – اي ما بين الشرق والغرب – الى الاتجاه الذي بقي حتى الآن اي من الشمال الى الجنوب . إذ ما يزال الشارع الرئيسي في « مستعمرة هدريان » هو شارع القدس الرئيس الآن ، الذي يمتد من باب دمشق أو باب العمود كما كان يطلق عليها من قبل تخليداً للعمود التذكاري الذي أقامه هدريان بقرب هذا الباب من الداخل ، على ما يظهر من خارطة مأدبا . وقد تركت منطقة الهيكل في خارج البلدة الجديدة، وأُقيم تمثالان لهدريان وجوث فوق التل. ثم انتهكت حرمة موقع الضريح المقدس باقمة معبد للإلٓهة فينوس حامية رومانية . وأُخرج اليهود والنصارى واليهود في الأصل من إيلياء، لكن كنيسة مسيحية عائدة للنصارى غير اليهود في الأصل ظلت قائمة فيها . وكان أساقفتها يحملون أسماء أغريقية ، كما كانت طقوسها الدينية تتم باللغة اليونانية . وفي سنة ٢١٢ أنشأ الأسقف اليكساندر مكتبة خاصة ، وكان قد قدم في الأصل مسيحية عائدة للنصارى غير اليهود في لأصل ظلت قائمة فيها . وكان أساقفتها يحملون أسماء أغريقية ، كما كانت طقوسها الدينة تتم باللغة اليونانية . وفي سنة ٢١٢ أنشأ الأسقف اليكساندر مكتبة خاصة ، وكان قد قدم في الأصل زائراً من قابادوقية ، ولذلك يمكن ان يعتبر هذا التاريخ بداية قدوم الحجاج الى بيت المقدس . ومما يعرف أن أورغن[٣] ، مفكر عصره ، زار القدس عدة مرات لجمع المخطوطات . وفي ٢٥٠ وقع اليكساندر ضحيةً لاضطهـــاد

(١) Bar-Cochba
(٢) Aelia Capitolina
(٣) Orgen

ديسيوس . وقد حلت بالكنيسة الفلسطينية نكبات شديدة أيضاً في أثناء الاضطهاد الذي وقع على يد دايو كليشيان[١]

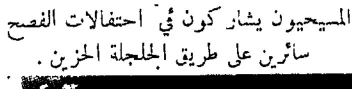
القدس المسيحية – وما حلت سنة ٣١٥ حتى كان الحجاج يتقاطرون على القدس ليتعبدوا فوق جبل الزيتون . الذي كان المحل الوحيد المسموح بالتعبد فيه يومذاك على ما يظهر . وفي ٣٢٥ حضر مكاريوس أسقف القدس مجلس نيقيا وحصل على تأييد قسطنطين في مشروعه الرامي الى إعادة تقديس الموضع[٢] الذي صلب فيه المسيح والضريح[٣] المقدس . ثم زارت الملكة هيلينا القدس في السنة التالية فشيدت الباسيليكا فوق جبل الزيتون وفي بيت لحم . وفي سنة ٣٣٣ شاهد الحاج المجهول من مدينة بوردو هذه الأبنية في أثناء التشييد . وقد عقد في ٣٣٥ مجلس كنسي في القدس فأعلنت فيه قدسية كنيسة القيامة أو الضريح المقدس . ويمكن تمييز هذه الكنيسة بوضوح في خارطة مأدبا الفسيفسائية حيث كان يدخلها الناس من باب ثلاثي ما تزال أقسام منه قائمة حتى اليوم . ثم بُني فوق الضريح المقدس بناء مدور . كما بني ما بين الباب والمبنى المدور باسيليكا كبيرة وخمسة أروقة بين الأعمدة . مع جناح مدور بارز في ساحة متسعة . فبقي موضع الصلب منعزلاً على حدة باعتباره مزاراً قائماً بذاته . وقد أعاد جلال التصميم ووفرة الزينة في هذه المجموعة من الأبنية الى القدس الأهمية الدينية التي كانت تتمتع بها حينما كان « الهيكل » قائماً .. وفي منتصف القرن الخامس للميلاد أدخلت الامبراطورة يودوقيا تزيينات أخرى في المدينة المقدسة التي توفيت فيها سنة ٤٦٠ . وقد جعل المجلس الكالسيدوني في القدس بطريركية مستقلة عن « قيصرية » التي كانت تتبع لها من قبل . وفي حوالي ٥٢٢ أغنى الامبراطور جستنيان القدس بتشييد باسيليكا عظيمة نذرها

---

(١) Diocletian
(٢) Calvary
(٣) Sepulchre

للعذراء . فوق التل الغربي فلم يبق لها أثر اليوم . ثم انتهت هذه الحقبة المزدهرة في ٦١٤ باستيلاء الايرانيين على القدس . الذين نهبوها وقتلوا سكانها وحرقوا كنائسها . وقد أخذ في هذه الأثناء صليب الصلبوت منها . ليستعيده هرقل سنة ٦٢٩ أو ٦٣٠ . غير أنه في سنة ٦٣٨ دخل الخليفة عمر بن الخطاب الى القدس .

القدس الاسلامية — ان سبب تقديس الاسلام لبيت المقدس هو ان النبي عليه السلام أمر بالتوجه اليها عند الصلاة في بادىء الأمر . ولأنها كانت هدف إسرائه (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) . وقد قبل عمر بأن يبني مسجداً ذي سقف من خشب في موقع الهيكل . وهو سلف المسجد الأقصى الحالي . لكن عبد الملك ابن مروان بنى قبة الصخرة (التي انتهى فيها البناء سنة ٦٩١) على شاكلة بناء كنيسة القيامة المدور[1] . وبقيت كنيسة القيامة . التي كانت قد أعيد بناؤها بمقياس أكثر تواضعاً بعد ان دمرها الايرانيون . في أيدي المسيحيين أنفسهم . فقد أبدى المسلمون تساهلاً كبيراً تجاه اليهود والنصارى الذين يحترمون الكثير من تقاليدهم الدينية . وفي سنة ٧٥٠ أعقب العباسيون في بغداد الأمويين . واستمروا على سياسة اسلافهم التحررية في هــذا الشأن . فالمقول ان هارون الرشيد بعث بمفاتيح القبر المقدس الى شارلمان في سنة ٨٠٠ . وانتقلت القدس في ٩٦٩ الى أيدي الخلفاء الشيعة في مصر (يقصد الفاطميين) . وفي ١٠٠٩ أمر الحاكم بأمر الله بتدمير المزارات المسيحية . ودحر الأتراك السلجوقيون


المسيحيون يشاركون في احتفالات الفصح سائرين على طريق الجلجلة الحزين .



(١) Rotunda

البيزنطيين دحراً فظيعاً سنة ١٠٧٧ في منزيكرد ، وعند ذاك اكتسحوا بلاد المشرق فحلوا محل المصريين في امتلاك القدس . وقد أثار قطعهم لطرق الحجاج الى بيت المقدس استياء المسيحية الغربية ، فبدأت في الغرب حركة خاصة لتطهير البلاد المقدسة ، وأدت الى نشوب الحروب الصليبية .

وتأسست في القدس على عهد الصليبيين مملكة لاتينية استقامت من سنة ١٠٩٩ الى ١١٨٧ . وقد جعل فرسان الهيكل مقرهم في منطقة الهيكل فتسموا باسمه ، وأصبحت قبة الصخرة كنيسة لهم ثم صار شكلها نموذجاً للكنائس المدورة التي بناها فرسان الهيكل بعد ذلك في لندن وغيرها . ولأماكن التعميد ، مثل الموجود منها في بيزا . وقد بنيت كنائس أخرى على نفس النمط ، وأحسن مثل لما بقي من هذا القبيل كنيسة القديسة آن . وحينما دخل الصليبيون الى القدس أنشأوا فيها عدداً من المستشفيات والمنازل للحجاج . وكان أحدها من تشييد تجار أمالفي في ايطالية ، فأشرف على ادارته شخص يقال له جيرارد . وفي ١١١٣ منحه البابا باسقال الثاني « الثور » الذي يعتبر الوسيلة التي يتكون منها شعار جماعة رهبان مستشفى القديس حنا في القدس[١] .

وقد وحد صلاح الدين في ١١٨٧ سورية ومصر تحت حكمه . ودحر اللاتين في حطين بالقرب من بحيرة طبرية . وفيما عدا الفترتين ١٢٢٩ — ١٢٣٩ و ١٢٤٣ — ٤٤ ، وباستثناء الفترة المنحصرة بين ١٩١٧ و ١٩٤٨ بقيت القدس في أيدي المسلمين على الدوام . وقد نهب التتار الخوارزميون القدس في ١٢٤٤ . ثم وقعت في أيدي المصريين سنة ١٢٤٧ مرةً أخرى بعد ان حكموها في عهد الأيوبيين سلاطين دمشق ، فقدر لها ان تبقى خاضعةً لسلطة المماليك مدة ٢٧٠ سنة شيد خلالها عدد من أحسن أمثلة العمارة الاسلامية الباقية في القدس اليوم . وفي ١٥١٧ احتل السلطان سليم الأول التركي بيت المقدس فافتتح بذلك فترة التسلط العثماني التي امتدت الى أربع مئة سنة . وأعاد

---

(١) The Order of the Hospital of St. John

سليمان القانوني خلفه بناء المتاريس والاستحكامات بشكلها الحالي . ثم شيد باب دمشق وهي آخر هدية من العمارة الاسلامية في القدس الشريف .

ثم ظلت القدس ثلاث مئة سنة من دون ان يكون لها تاريخ يستحق الذكر غير أن أعين الغرب اتجهت اليها من جديد في القرن التاسع عشر . فكان يحكمها ما بين ١٨٣٢ و ١٨٤٠ محمد علي خديوي مصر وابنه ابراهيم باشا . وفي ١٨٣٨ فتحت فيها قنصلية بريطانية ، فكان من بين واجباتها المحافظة على مصالح اليهود بوجه عام . ثم تأسست الأسقفية الأنكليكانية في ١٨٤١ . وبعد ذلك بقليل بعثت بطريركية اللاتين من جديد لتقف على قدم المساواة مع كنيسة الأورثودوكس والأرمن . وكذلك وجدت كنائس القبط والأحباش . وقد كان لحرب القرم ، التي وقفت فيها فرنسة وانكلترا الى جانب تركية في حلف عسكري ، تأثير بالغ على منزلة الأوروبيين في القدس — ففي ١٨٥٥ سمح لهم بالدخول الى الحرم لأول مرة ، وفي ١٨٥٦ أصدر الباب العالي « مرسوم التساهل » تجاه جميع الأديان الموجودة في الامبراطورية العثمانية . وبدىء بالاضطلاع بالتنقيب عن الآثار . ففي ١٨٤١ كان ضابطان من المهندسين الملكيين قد قاما بأول مسح لمدينة القدس . وأعقب ذلك القيام بمسح آخر بمقياس أوسع على حساب أنجيلا بورديت كوتس[١] (البارونة بعد ذلك) في سنة ١٨٦٤ . فأدى هذا النشاط إلى تأسيس « جمعية ارتياد فلسطين[٢] » . وفي خلال القرن التاسع عشر كله اتسع نطاق الطائفتين اليهوديتين ، الأشكنازي والسفاردي ، برعاية انكلترة وازدادت حيويتهما في ثمانينات القرن بتأسيس أول المستوطنات الزراعية اليهودية في البلاد وبنمو الحركة الصهيونية وتعاظمها في الخارج بعد ذلك . فقد عقد المؤتمر الصهيوني الدولي الأول في بازل ، سويسرة ، سنة ١٨٩٧ .

---

(١) Burdett - Coutts

(٢) Palestine Exploration Society

القدس الحديثة – لقد أصدرت بريطانية العظمى في تشرين الثاني ١٩١٧ وعد بلفور المعروف . وفي الشهر التالي دخل الجنرال اللنبي القدس مستولياً عليها فاقيمت فيها ادارة عسكرية ، ليعقبها في ١٩٢٠ تأسيس إدارة مدنية فيها . وفي ٢٥ نيسان من تلك السنة عهد المجلس الأعلى المنعقد في سان ريمو بايطالية بالانتداب على فلسطين الى بريطانية العظمى . فتمتعت القدس خلال عهد الانتداب بفترة من التوسع والازدهار المادي لم تعهدها منذ أيام الرومان . فالعدالة والصحة والتعليم والطرق والماء وتسوية حقوق الأرض ، مع جميع مستلزمات المجتمع الحديث ، قد أُدخلت اليها وثبتت جذورها فيها . وربما كانت فلسطين في نهاية عهد الانتداب أحسن دولة تدار في آسية . لكن الأمور كانت تتحول فيها من سيء الى أسوأ من الناحية السياسية . فقد ساعد وعد بلفور الصهيونية وألهب نيران الشك والريبة في نفوس العرب . ولذلك كان الفريقان تزداد عدم ثقة أحدهما تجاه الآخر ، وتجاه الدولة المنتدبة خلال الحقبة كلها ، ويتكرر التعبير عنه بالعنف ، بينما كان التقدم المادي والاجتماعي يسير في أعظم مراحله . وهكذا قدر للقدس في أيامها الأخيرة ، مثلما كان قد قدر لها في أيامها الأولى ، ان تبرهن على وجود العقدة التي فطر عليها مصيرها : فقد كانت وما تزال موئلاً لأسمى أنواع العبادة وأعظمها ، ومنبعاً لأشد النزاع وأعنفه . وقد ترك خط الهدنة الذي رسم بعد اقتتال العرب واليهود في ١٩٤٨ ، وجُعل حدوداً بمقتضى الأمر الواقع ، مدينة القدس التاريخية القديمة مع أرباضها الشمالية والمطار ومتحف الآثار القديمة تحت حكم المملكة الهاشمية في الأردن ، والأرباض الغربية والجنوبية في حكم اسرائيل . ولا يسمح بأي اتصال بين سكان المنطقتين ، الا للمسيحيين المقيمين في اسرائيل في عيدي الميلاد والفصح .

وقد حصل الكثير من الانشاء والتعمير في الجانبين ، وعلى الأخص في الجانب الاسرائيلي الذي يعد أبرز ما أُنشيء فيه أبنية الجامعة العبرية ، التي تقع في منطقة منزوعة السلاح في جبل سكوبس من الأراضي الأردنية . وقد

ضمنت التعليمات التي يفرضها الجانب الأردني . بوجوب بناء واجهات المباني جميعها بالحجر . ان تكون الأحياء الجديدة جذابة مهيبة . ثم فتحت طرق جديدة وأسست حديقة جديدة للبلدية بالقرب من باب دمشق . ودُشن في تشرين الأول ١٩٦٠ مستشفى سان جون للرمد . وتعد القدس العربية مركزاً لاحدى المحافظات . ويشرف حاكمها على الاماكن المقدسة فيها وفي بيت لحم . ويمكن الوصول اليها من بيروت في لبنان جواً . وبطريق البر من دمشق في سورية ، ومن العقبة الكائنة على البحر الأحمر . ومع ما يصادفه الحجاج والزوار من عراقيل بسبب تقسيم المدينة ؛ فانهم يتقاطرون عليها من جميع أنحاء العالم ، ويأتي كثير منهم من بلاد لم يسمع بها في الأيام الغابرة .

الأناء الذهب

وممن كتب عن القدس ، وفلسطين كلها ، امرأة انكليزية منصفة ، وكاتبة قديرة تدعى المسز ستيوارت أيرسكين . فقد كتبت هذه المؤلفة كتباً عدة عن العرب وبلادهم فكانت منصفة فيما كتبت بوجه عام . ومن جملة كتبها كتاب (فلسطين العرب [1]) الذي أصدرته في ١٩٣٥ فدافعت فيه عن حقهم ووجهة نظرهم تجاه الباطلين الصهيوني والاستعماري .

ويبحث الفصل الأول من هذا الكتاب عن القدس بعنوان « الاناء الذهب » ويعتبر هذا الفصل خلاصة مفيدة جداً عن وضع القدس وأهميتها الدينية فضلاً عن وضعها التاريخي والسياسي . فهي تقول ان القدس تعد قلب فلسطين ، وقيّمة الأماكن المقدسة فيها ، ومركزاً للكفاح والنضال . وبذلك تشغل منزلة مزدوجة في التاريخ . وقد كانت فلسطين منذ القدم ساحة حرب للامبراطوريات المحيطة بها . فأسهمت القدس وهي جاثمة بين تلالها وجبالها بقسطٍ غير يسير

(١) Erskine, Mrs Stewart — Palestine of the Arabs. London 1935

من مصائبها . ولو أراد المرء ان يعدد الحصارات والحرائق والهجمات ووقائع التدمير الكلي والجزئي التي نزلت بالقدس لملأ صفحات بقوائم المصائب والرزايا المعروفة للجميع . لكن ما يلفت النظر في كل ذلك ان القدس برغم تبدل أسيادها وسلالاتها الحاكمة ودياناتها ولغاتها وعاداتها قد حافظت على شخصيتها الخاصة بها واحتفظت بضوء يشتعل حول حرمها الداخلي المقدس .

ويعني اسمها ، الذي بقي غير متبدل خلال ألفي سنة من النور والظل ، دار السلام .. لكن الرومان بمدينتهم الوثنية ايليا كابيتولينا ومعبدهم المكرس للاله جوبيتر قد تلاشى حتى ذكرهم بين زحمة الوقائع التي تتالت على المدينة المقدسة . وهي إذ تكون مدينة للسلام من جهة ومدينة النزاع من جهة أخرى ، ومرتعاً لتصادم الأقوام والديانات منذ أيام الغزوات العشائرية في أيامها الأولى الى يوم القلاقل العنصرية والسياسية هذا ، وموضعاً لتقديس أبناء الديانات العظمى الثلاث في العالم ، قد احتفظت بطبيعتها المقدسة خلال التقلبات التي وقعت في أثناء وجودها الطويل ..

ثم تقول المؤلفة ان المرء قبل ان يحاول فهم وضع القدس السياسي في هذا اليوم ، لا بد من ان يدرك ماذا تعني فلسطين كلها بالنسبة للعرب واليهود ، وماذا تنطوي عليه علاقتهم بالبلاد وبعضهم ببعض . وبعد ان تشير الى ان الغربيين كلهم على علم تام بمنشأ التوراة والانجيل فيها ، وظهور الأنبياء في أزمنتها القديمة ، تأتي على ذكر شيء عن منشأ العرب وعلاقتهم باليهود .

فهي تقول ان الجد الذي تسمى به العرب واليهود ، وجميع الساميين في الحقيقة ، كان سام بن نوح . ويدعي العرب واليهود على حد سواء أنهم يتحدرون من نسل ابراهيم الكلداني الذي هاجر من أور الكلدانيين الى الغرب بأوامر آلهته . فقد تحدر اليهود من سارة الزوجة وتحدر العرب من هاجر الوصيفة . وكانت في أرض الميعاد حتى قبل ان يدخل اليها ابراهيم قبائل سامية وغير سامية أخرى ، كان يطلق عليهم بمجموعهم اسم الكنعانيين في بعض الأحيان . ولما كان من المعتقد اليوم ان هذه القبائل قد تحدر من نسلهم فلاحو

فلسطين الحاليون ، فان الجو قد تهيأ للكشف عن الدراما بكاملها ..

ثم تذكر المسز أيرسكين ان ابراهيم عليه السلام كان يلجأ الى الطرق السلمية في التسلل الى فلسطين والحصول على منزل فيها . وقد تزاوج أتباعه برغم تحذيره لهم مع القبائل التي كانت تملك الأرض في فلسطين ، وتدينوا ببعض دياناتهم أحياناً . وحينما نام ابراهيم نومته الأبدية في الخليل استمر ابناؤه على العيش في فلسطين حتى ذهب حفيده يعقوب للأقامة في مصر حيث حصل يوسف على رعاية فرعون له . وقد أدى تغير السلالة المالكة في مصر ، التي أعقبها اضطهاد الاسرائيليين ، الى ظهور موسى برسالته ومبادرته الى قيادة شعبه والعودة بهم الى أرض الميعاد . وبعد كثير من التجوال والتطويح استقروا أخيراً في مكانٍ ما ، وانتخبوا شاؤول أول ملك لاسرائيل .

وتشير المسز ايرسكين بعد ذلك الى أن القدس كان لها تاريخ حافل قبل ان يلقي داود خليفة شاوول نظرةً عسكرية على أسوارها المنيعة . وقد نجح في انتزاع الحصن من اليبوسيين فاتخذ القدس عاصمةً له . وكان الملوك والأمراء يسكنون في القدس وهي تابعة الى مصر ، التي كانوا يراسلونها برسائل حفظتها الرقم المكتشفة في تل العمارنة . فقد كانت مكاناً منيعاً جديرة بالقتال دونها ، ومهمة جداً لداود لأنها تشغل موقعاً ستراتيجياً بين المملكتين الشمالية والجنوبية اللتين وحدهما وأدخلهما في حكمه معاً .

وقد شيد داود قصراً وهيكلاً فوق أوفيل . لكن سليمان ابنه انتقل الى جبل موريا حيث شيد البيوت والثكنات والقصور وهي ترتفع بعضها فوق بعض في السفوح حتى تنتهي بالهيكل الذي أقيم حيث تقوم قبة الصخرة اليوم بلونيها الأزرق والرمادي البارزين أمام امتداد جبال مواب الطويل . وكان يبدو يومذاك ان مملكة اسرائيل أصبحت قوية الجانب تضاهي في قوتها الصخور التي بنيت فوقها القدس . لكن ذلك لم يتحقق .

فلم تستقم المملكتان المتحدتان بعد موت سليمان . بل انقسمتا من جديد

ولم تعمرا طويلاً حتى في هذه الحالة. فقد تحطمت المملكة الشمالية في ٧٢٢ قبل الميلاد، وتلاشى الأسباط العشرة بعد ان تفرقوا أيدي سبأ، بينما ظلت مملكة يهوذا الجنوبية تكافح دون حتفها الى سنة ٥٩٧ قبل الميلاد حين استولى بنوخذنصر على القدس ونهبها، ثم أخذ زبدة أبنائها في السبي المعروف. وبعد عشر سنوات التفت صدقيا آخر ملك من ملوكها الى مصر فعوقب بتدمير القدس وتخريبها. وبهذا ترك سبي آخر مملكة يهوذا التي كانت مزدهرة في يوم من الأيام قاعاً صفصفاً. اما عودة بقايا من اليهود الى القدس بعد أن أطلق كورش الايراني سراحهم. والسماح لهم ببناء الهيكل، فلم يكن الا شيئاً فاتراً تعوزه الحماسة لأن الكثيرين من أهل السبي آثروا البقاء في بابل.

وفي عهد السيطرة المقدونية سادت الحضارة الأغريقية في سورية وفلسطين. وكان اليهود يتضايقون من تعسف الملك أنتيكوس ابيفانوس فأدى بهم ذلك الى الثورة بقيادة كاهنهم الكبير ماتاثياس وابنائه. وقد تعتبر هذه الوقائع من النقاط للامعة في تاريخ اليهود، لكنها سرعان ما تتعتم بظهور هيرود وميله الى مسالمة روما. وليست بنا حاجة هنا الى الاسهاب في ذكر كيفية ظهور هيرود، وزواجه بالأميرة الحسمونية سليلة المكابيين، التي قتلها بنزوة من نزوات الغيرة، وموته في السنة التي ولد فيها المسيح بعد أن أصدر مرسوماً في قتل «الأبرياء». وانما يكفي ان نتذكر أنه بنى آخر هيكل فقدر له ان يكون قصير الأجل. ومن المهم ان يذكر في الحقيقة ان الهيكل هذا قد صححت نبوءة السيد المسيح فيه، ففي خلايا الأربعين السنة المذكورة في النبوءة هدم الهيكل الى وجه الأرض خلال حصار تايتوس للقدس في سنة ٧٠ للميلاد.

وتخلص المؤلفة من كل هذا الى القول انه يتضح بان العبريين لاحق لهم فيما يدعون به اليوم. فقد عجزوا في تحقيق الوحدة فيما بينهم، وكان يقاتل بعضهم بعضاً باستمرار، ولم يمتلكوا فلسطين كبلاد تحكم نفسها بنفسها حكماً ذاتياً قط، حتى في أوج حكمهم. لكننا نجد من جهة أخرى أن التاريخ الروحي لشعب اختاره الله ليحمل النور في وقت الظلمة يجب ان تكون له أهمية فائقة

بالنسبة للانسانية جمعاء . فقد قادتهم رسل موحى اليهم بوحيٍ مباشر ، وأُرشدوا الى الطريق السري الذي كان عليهم ان يسلكوه . فماذا كانت النتيجة ؟ ولماذا كانوا يعاقبون بين حين وآخر ؟ ان الجواب على كل هذا موجود في كتبهم الدينية هم أنفسهم . فان خطب أنبيائهم اللاذعة تميط اللثام عن ان اليهود كانوا مفتونين بالوثنية وعبادة الأصنام بحيث أوحى بقمعهم . وحينما عُنّفوا وزُجروا « أغلظوا رقابهم »كما فعل آباؤهم من قبل . وتقول التوراة ــ العهد القديم ــ ان المصائب التي نزلت باليهود انما نزلت لتلقنهم دروساً لا يبدو انهم تعلموها بأي حالٍ من الأحوال . وحينما صلبوا مسيحهم كانت نهاية وجودهم القومي غير بعيدة عنهم .

وبعد ان انقسمت الامبراطورية الرومانية ، أصبحت فلسطين من حصة الامبراطورية الشرقية وعاصمتها بيزنطة . وقد جعل مرسوم ميلان سنة ٣١٣ المسيحية ديناً معترفاً به . فأبدى قسطنطين وأمه هيلانه ورعهما المعروف بتشييد الكنائس في المواقع المقدسة ، وبذلك اتخذ مصير القدس شكلاً آخر .

فقد تمتعت فلسطين في أيام الحكم البيزنطي بحالةٍ من السلم انتهت في سنة ٦١٦ حين غزاها خسرو الثـــاني ملك ايران . وفي سنـــة ٦٣٦ نقلت معركة اليرموك الحاسمة السلطة الى العرب .

وبعد ان تتطرق المسز أيرسكين الى تاريخ العرب القديم قبل الاسلام ، واتصالهم باليهود ، ومجيء ابراهيم الخليل واسماعيل الذي أعاد بناء الكعبة في مكة ، تخرج من ذلك الى ظهور النبي محمد عليـــه السلام واعترافه بأنبياء بني اسرائيل . ثم تبدأ بذكر الفتوحات فتعرج على فتح العرب لبيت المقدس .

فتقول ان الخليفة الراشد أبا بكر عين خالداً بن الوليد المعروف بسيف الله المسلول على رأس قواته التي حاربت الايرانيين ، والبيزنطيين في سورية وفلسطين بعد ذلك . فكان النصر حليف خالد اينما اتجه ، ولا سيما في قتاله

بجيوش الامبراطور هرقل التي فتك بها في موقعه أجنادين الكائنة بين غزة وبيت المقدس . وقد توفي أبو بكر بُعيد هذا النصر الحاسم في اليرموك سنة ٦٣٦ . فقد وجد الامبراطور هرقل ، الذي كان يتبجح بأن جيوشه بوسعها القضاء على « شرذمة العرب البداة » ، نفسه مطروداً من سورية وفلسطين والطريق قد انفتح لسيطرة العرب عليهما .

وقد صمدت القدس وقيصرية ، وهما من معاقل العقيدة الأورثوذكسية المعروفة ، لمدة ما لكنهما اضطرا الى التسليم في النهاية. حيث استسلمت القدس في ٦٣٩ واستسلمت قيصرية بعد ذلك بسنة . ولا غرو فقد كان العرب لا بد من ان يجبروا هاتين المدينتين على التسليم بعد أن أصبحوا أسياد دمشق ، أقدم مدينة في سورية وأهمها ، وانطاكية ملكة الشرق الواقعة على نهر العاصي ، وحمص ذات الحصون المنيعة ، وغيرها من المراكز المهمة . وكان لهم فضل كبير فيما أظهروه من اعتدال عند تقديم مطاليب الاستسلام .

فحينما اتضح لسكان بيت المقدس عدم جدوى المقاومة عقد اجتماع فيها بين بطريرك الروم الأورثوذوكس وقائد الحامية ، وتقرر ان تجلو الحامية الموجودة فيها وتنسحب الى مصر وان يترك الأمر الى البطريرك بأن يتفق على الشروط مع العرب . فاشترط ان تسلم مفاتيح المدينة الى الخليفة عمر بنفسه نظراً لأن النبوءة كانت تقول في هذا الشأن ان المنتصر يحمل اسماً بثلاثة حروف كما هو الحال في اسم الخليفة العربي « عمر » . فأُبلغ الخليفة بذلك ووافق على القيام بهذه الرحلة الطويلة ، وأخيراً وصل الى الموقع وهو يمتطي جملاً هزيلاً ويرتدي اسمالاً بالية ليظهر ازدراءه لتوافه هذا العالم الشرير . وحينما لاحظ البعض من قواده ، الذين وقفوا لاستقباله في خارج السور يلبسون ملابس صنعت من حرير دمشق استشاط غضباً ، ولم يوافق على الدخول الى المدينة بصحبتهم الا بعد ان أروه ما كانوا مدججين به من سلاح تحت البسة الحرير الناعمة .

ثم تقول ان الخليفة عمر دخل الى المدينة المقدسة راجلاً والى جانبه البطريرك واذا كان منظره يومذاك شيئاً غير موثر فقد كانت شروطه رحيمة سخية ، حينما فرضت على النصارى واليهود عن دون تميز . وقد كان فيها بعض التحفظات ، لكنها كانت تنطوي على الرفق والرحمة بوجه عام فقبلت بكثير من المنة والتقدير . ولم يبق الخليفة مدة طويلة في بيت المقدس ، لكنه تيسر له متسع من الوقت لزيارة كنيسة العذراء التي هي المسجد الأقصى في يومنا هذا ، وكذلك وضع الأساس لتشييد مسجد للمسلمين في موقع الهيكل اليهودي الذي كان مختفياً تحت اكوام من الزبل المتراكم على مدى الأجيال المتعاقبة .

وكان هناك سبب لسياسة التسامح هذه . فقد كانت القدس مقدسة عند المسلمين ، وكانت تأتي بعد مكة فقط في الشهرة باعتبارها درة غالية في تاج الفتوح التي حققوها ، وكانوا تواقين جداً للاحتفاظ بها وتجميلها . حيث ان الاعتقاد بان بيت المقدس ستكون المكان الذي يحشر فيه المؤمنون يوم القيامة يشترك فيه المسلمون واليهود على سواء ، كما يلاحظ أو يفهم من الرغبة التي يبدو نها في الدفن بقربها . ويجل المسلمون كذلك المكان الذي أعلن النبي محمد بأنه شاهده في الرؤيا .

في ليلة هادئة لم تكن تعكر هدوءها ولا نسمة ريح قال النبي عليه السلام ان صوتاً ايقظه من نومه وهو يقول « استيقظ ايها النائم » ، ففتح عينيه وإذا بجبريل الملك يمثل أمامه ويطلب اليه ان يركب البراق فأسرى به وهو بصحبته إلى بيت المقدس . وهنا قيل له ان يترجّل ويصلي ، ثم أخذ إلى « صخرة التضحية » في منطقة الهيكل ، ومن هناك رفع إلى السماوات العلى .

فأصبحت هذه الرؤيا من معتقدات المسلمين الذين ما زالوا يقدسون المكان الذي صلى فيه النبي ، والصخرة التي رفع من فوقها إلى السماء على سلم من نور وحتى المكان الذي وقف فيه البراق .

وبعد ان تأتي المؤلفة على ذكر شيء عن أعمال الخليفة عمر وما حدث بعد

قتله من اختلاف في أيام الخليفتين الراشدين عثمان وعلي تقول ان فلسطين تمتعت بقرن من الهدوء والسلم قبل أن تبدأ علائم الانحطاط في الامبرطورية العربية الجسيمة. وقدازدهرت القدس إزدهاراً غير يسير لكنها لم تصبح مركزاً كبيراً للثقافة والحضارة كما أصبحت قرطاجة قرطبة التي كان اليهود الأوربيون يتقاطرون عليها للدراسة في جامعتها الاسلامية. فقد كانت في فلسطين مراكز دينية معروفة في القدس والخليل وطبرية وصفد لكنها لم يكن فيها من الثقافة العامة العالمية التي كانت تزخر بها مدن اسبانية الأسلامية وصقلية.

وبعد ان تذكر المؤلفة شيئاً عن حضارة العرب في الأندلس وفضلها على الغرب تقول: وكان الخلفاء الأمويون يحكمون من دمشق، لكن الأسرة العباسية المالكة حينما حلت في محلهم وأسست العاصمة في بغداد انحط الاهتمام ببيت المقدس. فقد كان هارون الرشيد يبدي اهتماماً بسورية وأسس المدارس فيها، لكنه لم يفعل الا القليل من هذا في فلسطين التي انقسمت الى شيع واحزاب وأصبح الاختلاف هو العادة المألوفة فيها. وفي نهاية القرن العاشر استولت الخلافة الفاطمية في مصر على القدس. وفي ١٠٧١ احتل السلطان السلجوقي سورية وفلسطين فأعقب ذلك حلول فترة من الرعب عانى فيها النصارى ما عانوا من الجور والتعسف. وقد أثارت آلام الحجاج المسيحيين واهمال الاماكن المقدسة تذمرات الحجاج الذين كانت تتقاطر جموعهم على بيت المقدس، وكان أحدهم وهو بطرس الراهب هو السبب في البدء بالحملة الصليبية الأولى.

وقد حرر الصليبيون «القبر المقدس» وأسسوا مملكة لاتينية قصيرة العمر في القدس، لكن الحملات المتفرقة التي أعقبت الحملة الأولى لم تكن كافية لضمان البقاء الدائم في البلاد المقدسة.. وبعد ان تغلب صلاح الدين على الصليبيين في قمم حطين الرهيبة قتل[1] رينيه دي شاتيون بيديه من دون سلاح، وأمر

(١) سيأتي تفصيل السبب في بحث الحملات الصليبية بعد هذا.

بقتل مئتي فارس من فرسانهم على مرأى من الجيش كله . لكنه حينما أقدم على تسلم بيت المقدس أظهر كل ما يمكن من ضروب الرحمة والاعتدال . فقد سمح لجميع من يرغب في ترك هذه المدينة المقدسة بأن يفعل ذلك من دون ان يتعرض لأي نوع من الأذى ، حتى أنه سمح للأساقفة بأن يأخذوا معهم الكثير من الكنوز العائدة للكنائس ، وقدم لمن بقي شروطاً سخية .

وبذلك عادت القدس مرة ً أخرى الى أيدي المسلمين ، وبذل صلاح الدين كثيراً من الجهد لاستعادة أمجادها السابقة وتعمير أماكنها المقدسة مثل قبة الصخرة والمسجد الأقصى اللذين قلبهما النصارى الى كنيستين . وبمرور الزمن تلاشت من بين المسلمين والمسيحيين البغضاء التي أوصلها الصليبيون الى الأوج ، واتخذت الترتيبات اللازمة بالسماح النصارى في زيارة القبر المقدس متى شاءوا . لكن ذلك لم يدم طويلاً . ففي سنة ١٢٤٠ اكتسح الأتراك الخوارزميون البلاد ، وهدموا بيت المقدس تهديماً جزئياً بعد ان فتكوا بالسكان المسيحيين فيها . وفي ١٢٥٠ ظهر المغول بقيادة هولاكو حواليها فردهم السلطان المملوك بيبرز ، الذي أخضع فلسطين للحكم المصري مرة ً أخرى . وقد استقام الحكم المصري هذا زهاء ثلاث مئة سنة ، أي الى ان انتزع الأتراك العثمانيون منه السلطة لأنفسهم وأصبحوا أسياد الشرق الأوسط . وباستثناء فترة قصيرة استعادت فيها مصر السيطرة على فلسطين ، فقد بقيت بأيدي الأتراك منذ ذلك التاريخ حتى سلموها الى حوزة الانتداب البريطاني في ١٩١٧ .

ولا يعرف الا القليل عن أحوال بيت المقدس الاعتيادية في الفترات التي كانت تتخلل ما يذكره المؤرخون من بلايا ومصائب عظيمة . لكنه يستفاد من انطباعات المقدسي ، الجغرافي العربي الشهير ، عن القدس التي ولد فيها سنة ٩٤٦ أنها ثمينة لندرة مثيلاتها بين البلاد ، وأنها أجمل مدينة في العالم ، لأن الحياة فيها على حد قوله كانت ملأى بكل ما هو لطيف وجميل ، وان كل من يريد التمتع بما في الدارين ان يفعل ذلك عن طريق الاقامة في قدس القرن العاشر الميلادي . وبعد ذلك يحدثنا عن العقارب التي يمتلىء بها « وعاؤها الذهب » .

ويبدو ان العقارب التي يعنيها المقدسي هي حماماتها القذرة . وأزوادها الغالية . ومدارسها الخالية ، ومسجدها الذي لا يمتلىء بالعلماء والدارسين . واستفحال أمر النصارى واليهود فيها . وتعقب المسز أرسكين على ذلك بقولها ان ذلك الوعاء الذهب ما زالت تتوالد فيه أنواع العقارب . مثل ما يجري في داخل أسوارها وخارجها من الاضطرابات والقلاقل ، ومثل الخصومات السياسية والصدامات العنصرية والأماني والآمال المتضاربة التي لم تتحقق .

من التاريخ القديم

لا شك ان تاريخ القدس القديم تاريخ حافل بالوقائع والحوادث في كل دور من أدواره ، وقد حظي بالكثير من العناية والتنقيب لدى العلماء والباحثين نظراً لقدسية هذه المدينة العريقة في القدم ، وعلاقة ذلك بابناء الديانات الكبرى الثلاث . ولا شك أن إقدام الكثيرين من مؤرخي الغرب ومنقبيه على البحث في تاريخ القدس يرجع أيضاً إلى ظهور السيد المسيح حولها . وصلبه ودفنه فيها على ما يقولون . ونشوء الانجيل والتوراة في ديارها .

ولذلك نرى ان ما كتبت من الكتب والرحلات في اللغات الغربية عن القدس القديمة وتاريخها . ولا سيما في الانكليزية والفرنسية والألمانية ، أوسع مما يمكن ذكره أو الاحاطة به في مثل هذا البحث . على اننا سنحاول هنا أن نوجز الحوادث المهمة التي تعين القارىء على تفهم المجرى التاريخي العام . وقد لاحظنا من بين الكتب الحديثة التي تستند الى أحدث ما حصل من التنقيب الآثاري ، في القدس وما حولها من البلاد ، كتاباً يفي بهذا الغرض . وقد كتب هذا الكتاب باحث ألماني يدعى فيرنر كيلر بعنوان (الانجيل كتاريخ) (١) ،

(١) Keller Werner — The Bible As History. (Archeology confirm the Book of Book), Translated from German into English by Dr. William Neil. First published in 1956, Tenth impression 1961.

واستند فيه الى احدث الاستكشافات الآثارية وأوثقها على ما يدعي . ثم ترجم الى الانكليزية وطبع لأول مرة سنة ١٩٥٦ ، ثم أعيد طبعه عدة مرات كانت آخرها الطبعة العاشرة في ١٩٦١ .

ويتناول المستر كيلر في هذا الكتاب تاريخ ما ورد في التوراة والانجيل من حوادث ووقائع مشهورة ، فيحاول البرهنة على صدقها في ضوء المكتشفات الحديثة ، وقد يناقش قسماً منه فيخطوه أو يورد آراء مختلفة حول بعض النقاط . ومن أهم ما يبدأ ببحثه من ذلك ، ولا سيما ما يختص منه باليهود وتاريخهم ، موضوع ابراهيم الخليل عليه السلام ، فيناقش معيشته في أور ثم يذكر هجرته الى حران الكائنة في شمال العراق في ضمن ما كان يسمى بمملكة ماري السامية . لكنه يخرج من ذلك الى انه عليه السلام يصعب ان يكون قد عاش في أور الكلدانيين كما هو معروف في التوراة ، ويخطّىء ليونارد وولي المنقب الانكليزي الذي تولى التنقيب في أور خلال العشرينات من هذا القرن واكتشف مدينة السومريين التي كان يجهلها العالم تقريباً . فقد كتب وولي يقول ان ابراهيم كان مواطناً من مواطني مدينة عظيمة (أور) ورث تقاليد مدنية راقية عريقة في القدم ، ولم يكن من أناس مترحلين بداة كما يفهم من بعض آيات التوراة ونصوصه . لكن كيلر يقول في كتابه (الص ٤٢ — ٤٤) أن وولي وان كانت تؤيده في رأيه هذا بعض آيات سفر التكوين قد تسرع في ما ذهب اليه ، لأن آيات أخرى في سفر التكوين نفسه تنص على خلاف ذلك أيضاً . لأنه حينما أوفد خادمه القديم من بلاد كنعان الى مدينة ناحور ليخطب زوجةً لابنه اسحـــق يسمي هذه المدينة « أرض مولدي » ويشير الى « بيت أبي » و « أرض أجدادي » . وناحور تقع في منطقة حران الكائنة في شمال بلاد بين النهرين . ويذكر كذلك ان يوشع بعد ان استولى على أرض الميعاد خاطب أصحابه يقول « لقد سكن آباؤكم في الجهة الأخرى من الطوفان قديماً ، وفعل ذلك حتى تارح والد ابراهيم وناحور » ، ويقصد بالطوفان هنا وفي نصوص التوراة الأخرى نهر الفرات . ولا شك ان مدينة أور تقع في

الجانب الأيمن من الفرات ، واذا ما نظر اليها الرائي وهو في بلاد كنعان فهي تقع في هذا الجانب أيضاً وليس في الجانب الآخر . ويتابع كيلر مناقشته لوولي فيقول ان تنقيباته لم تكتشف ما يدل بصورة باتة قاطعة على ان تارح وابنه ابراهيم كانا يعيشان فعلاً في أور . ثم ينهي هذه المناقشة بقوله ان البحث المضني ، ولا سيما التنقيب الآثاري في العقدين الأخيرين من السنين ، يجعل من المؤكد تقريباً ان ابراهيم لا يمكن ان يكون قد وجد في العاصمة السومرية أو كان مواطناً من مواطنيها . فان ذلك يناقض جميع الأوصاف التي يصف التوراة بها ابراهيم وطراز حياته ، وكونه من سكنة الخيام الذين يتنقلون مع قطعانهم من مرعى الى آخر انتجاعاً للكلأ ومن بئر إلى أخرى ، فهو والحالة هذه لا يعيش كما يعيش مواطن المدينة الكبيرة بل عيشة البدوي المعروفة .

ويقول كيلر في موضع آخر (الص ٦٧) ان أسماء أجداد ابراهيم واسلافه تخرج من العصور المظلمة وهي لا تعدو كونها أسماء مدن كائنة في شمال شرقي بين النهرين ، أي في فدان آرم في سهل آرم . وفي وسط هذا السهل تقع حران التي كانت على ما يظهر من وصفها مدينة مزدهرة خلال القرنين التاسع عشر والثامن قبل الميلاد . ويذكر كذلك ان المكتشفات التي عثر عليها المنقبون الفرنسيون في ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٤ ، في تل الحريري الكائن على بعد سبعة كيلومترات من البوكمال ، تبرهن لأول مرة على أن حران هي موطن ابراهيم الخليل والمكان الذي ولد فيه العبرانيون . وتقع بالقرب من ذلك مدينة ناحور المعروفة في التوراة أيضاً ، وهي موطن ربيكا زوجة اسحق .

هجرة ابراهيم عليه السلام الى أرض الميعاد

ويذكر كيلر بعد هذا اننا اذا ما أردنا ان نصدق بالتواريخ المذكورة في التوراة نجد ان ابراهيم قد ترك موطنه حران قبل فرار الاسرائيليين من مصر بست مئة وخمس وأربعين سنة . وقد ظلوا يهيمون في الصحراء نحو أرض الميعاد بقيادة النبي موسى خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ولذلك فلا بد

من ان يكون ابراهيم قد عاش في حران حوالي سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد . وهذا ما تؤيده حفريات مملكة ماري .

ويأتي بعد ذلك الى ذكر كنعان (الص ٧٠) وهجرة ابراهيم اليها تنفيذاً للأوامر الالهية ، فيقول ان الطريق الذي كان عليه ان يقطعه يبلغ طوله ما بين حران وبلاد كنعان ما يزيد على ست مئة ميل . وهو يمتد على طول نهر البليخ الى الفرات . ومن هناك يسير المسافر بطريق قديم للقوافل يرجع الى آلاف السنين في قدمه ، فيمر بتدمر والشام ، ومنها يتجه في اتجاه غربي الى بحيرة الجليل (طبرية) . وبلاد كنعان على ما يقول كيلر هي الشطيطة الجبلية المنحصرة بين البحر الأبيض والبادية الممتدة من غزة الى حماه على شواطىء العاصي في الشمال . وقد كانت كنعان يومذاك تعرف ببلاد الأرجوان لأن الكنعانيين سكانها كانوا معروفين باستخراج الأرجوان من حيوانات المريق القشرية البحرية .. وكان الأرجوان من السلع الغالية لأن صبغته كانت تصبغ بها الملابس الثمينة التي يرتديها كبار الناس ومرموقهم في المجتمع يومذاك . ولذلك كان اليونانيون الأقدمون يطلقون على صانعي الأرجوان وصباغيه « الفينيقيين » وعلى البلاد « فينيقية » ، وهو اسم مشتق من كلمة **Phoenicia** التي تعني الأرجوان في لغتهم .

اما البلاد التي كانت ستصبح موطناً للاسرائيليين فقد سماها الرومان ، على ما يقول كيلر ، باسم أعداء اسرائيل . فقد سموها باسم « الفلستينيين[1] » أو « بلشتيم » حسب التسمية الواردة في التوراة ، الذين كانوا يسكنون في القسم الجنوبي من الساحل الكنعاني . وهي تمتد على ما يفهم من نصوص التوراة من منابع الأردن في أسفل جبل الشيخ الى التلال الكائنة في غرب البحر الميت . والى النقب في الجنوب ، أي انها تقدر بحوالي مئة وخمسين ميلاً في الطول وخمسة وعشرين ميلاً في العرض في أضيق بقعة منها . ولم تصبح أوسع من

---

(١) **Philistines**

هذا قط الا خلال عشرات قليلة من السنين . فقد امتدت في أيام داود وسليمان الى عصيون جابر على البحر الأحمر في الجنوب والى ما وراء الشام بقليل في الشمال .

ويظهر مما يكتبه كيلر ان ابراهيم سلك في هجرته هذا الطريق فمر بالشام ثم دخل هو وزوجته سارة وابن أخيه لوط وأقاربه وقطعانه الى فلسطين التي كانت قايلة السكان على ما يقول ، وكانت مدنها يومذاك عبارة عن قلاع متباعدة تتعرض على الدوام الى هجمات البدو وغزواتهم من البادية بين حين وآخر . وقد حرص على ان يدخل من دون ضجة ، وان يكون سيره هذا تسللاً ، لأنه لم يكن قادراً على الاصطدام بالكنعانيين ، فحل في شكيم الكائنة في شمال فلسطين . ويلتقي في سهل شكيم طريقان أحدهما يمر بالمناطة المأهولة فيذهب الى وادي الأردن الخصيب ، ويمر الثاني بطريق التلال المنعزلة فيتخطى القدس الى النقب . وقد آثر ابراهيم ان يسلك الطريق الثاني حتى وصل القدس العائدة لليبوسيين ، فزار فيها ملكيصادق الذي يسميه كيلر « ملك سالم » أي ملك القدس نفسها على أغلب الترجيح . وفي الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية يذكر ان ملكيصادق هذا قدم لابراهيم خبزاو خمراً لأنه كان كاهناً لله العلي ، وبارك ابراهيم بقوله : مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض وتبارك الله العلي الذي رفع اعداءك الى يدك .

ثم توجه ابراهيم الى مصر مع لوط وعادا بعد ذلك الى فلسطين ، فتوجه لوط مع أسرته مفارقاً عمه نحو الشرق ، وظل ابراهيم يتنقل حوالي القدس حتى شاء ان يستقر في أواخر أيامه في قرية مامر القريبة من حبرون التي سماها العرب بعد ذلك باسمه ، أي « الخليل » . وفي هذا الشأن يقول كيلر (الص ٩٧) انه قضى أيامه الأخيرة في قرية صغيرة تدعى مامر ، غير بعيدة عن بلدة الخليل ، حيث شيد المذبح . وقد تملك هنا أول قطعة أرض من الحثيين ليعد قبراً صخرياً لزوجته سارة ، على عادة الساميين . وقد دفن هو كذلك في الضريح نفسه . وهذا ما تؤيده الحفريات بوضوح . وعلى بعد ميلين من الخليل

يقدس العرب اليوم على قول كيلر موقعاً يسمونه « حرم رامة الخليل » . وقد عثر الأب المنقب مادر بالفعل بالقرب من هذا الموقع على أحجار مذبح ما تزال تبدو فيها آثار الاشتعال .. وما يزال قبر ابراهيم يعتبر اليوم موقعاً مقدساً يحج اليه الناس .

ويقول كيلر في موقع آخر كذلك (الص ١١٢) ان ابراهيم نصب خيمته في مقربة من حبرون في جنوب تلال اليهودية ، ما بين ابناء « حث » — أي الحثيين — وقد اشترى منهم الأرض التي أودع فيها زوجته سارة وتركها لراحتها الأبدية .. ويخبرنا حزقيال النبي — الأصحاح السادس عشر من سفره — ان الحثيين مسؤولون جزئياً عن تأسيس القدس . .

خروج اليهود من مصر الى أرض الميعاد

ويقول كيلر ان موسى بعد أن أدى واجبه الشاق فأخرج اليهود من مصر ومدنها التي كانوا مستعبدين فيها رشح يوشع خلفاً له ورحل عن هذا العالم الفاني ، من دون أن يقدر لقدميه ان تطأ أرض الميعاد أو مدينة القدس ، لكنه استطاع ان يلمحها عن بعد من قمم جبل نبو . ومع جميع البراعة التي أبداها يوشع بن نون في قيادة اليهود الى أرض الميعاد ، والقسوة التي تذرع بها في الاستيلاء على البلاد الفلسطينية وأهلها بالقوة ، لم يستطع انتزاع القدس من أهلها لمناعة حصونها وخطته في تحاشي مهاجمة الأماكن الحصينة . ومما يذكره كيلر في هذا الشأن (الص ١٦٢) ان اسرائيل كانت قبيل سنة ١٢٠ قبل الميلاد قد بلغت الهدف الذي ظلت تكافح من أجله ردحاً طويلاً من الزمن . فقد دخلت كنعان لكنها لم تستول على البلاد كلها استيلاءً تاماً . وخلفت وراءها خطاً طويلاً من المدن المحروقة . وقد تحاشى يوشع مهاجمة القلاع الحصينة مثل قلعتي القدس وجيزر . وبقيت كذلك في أيدي الكنعانيين السهول الخصبة ووديان الأنهر ، وستبقى كذلك لعدة أجيال تأتي .

وبعد ان يتحدث كيلر عن مجيء الفلسطينيين من جزيرة كريت واحتلالهم

للساحل الجنوبي من فلسطين ، ثم استقرارهم في عسقلان وغزة وأشدود وعقرون ، يشير الى تهديدهم للاسرائيليين وخطورة ذلك عليهم . فيقول (الص ١٧٩) : وفي حوالي ١٠٥٠ قبل الميلاد أصبح وجود اسرائيل نفسه مهدداً بالخطر . فقد كانت توشك ان تخضع لنير الفلسطينيين وتواجه وجوداً مفعماً بالعبودية التي لا تنتهي . وتجاه هذا الضغط الخطير من الخارج أصبحت اسرائيل أمةً من الأمم ؛ ووقع اختيارها على شاؤول البنياميني ليكون أول ملك لها .. وشاؤول هذا هو طالوت الوارد ذكره في القرآن الكريم .

وقد اكتشف البروفسور أولبرايت على بعد عدة أميال من القدس سنة ١٩٣٣ ، في تل يسمى « تل الفول » ، بقايا قصر شاؤول وهو أول قصر ملكي لاسرائيل حيث كان يجلس شاؤول ، على ما يذكر كيلر ، ومن حوله أصدقاؤه وابنه يونا وأبنر ابن عمه وقائد جيشه ، وداود حامل سلاحه الشاب .. على ان هذا كله على ما يبدو لم يكن ينفع اليهود ولا ملكهم المتبختر شاؤول ، فقد اصطدموا بالفلسطينيين وكانت النتيجة مميتة على ما يقول كيلر (الص ١٨١) لان انتصار الفلسطينيين عليهم كان كاملاً وانتحر شاؤول بعد ان قتل ابناه في المعركة . واحتُلت أرض اسرائيل بأجمعها ، ثم علقت جثة الملك وابنيه فوق أسوار مدينة بيت شان القريبة من ساحة المعركة .. والظاهر ان ساعة اسرائيل الأخيرة قد دقت ، وبدا أنها قد كتب عليها الزوال . وهكذا سارت المملكة اليهودية الأولى ، التي كانت تعقد عليها الآمال في البداية ، الى نتيجتها المخيفة . فقد أصبح الشعب الحر يرسف في قيود العبودية ، ووقعت الأرض التي وعد بها في أيدٍ أجنبية (كذا) .

كيف استولى داود على القدس

لقد تولى قيادة بني اسرائيل بعد اندحار شاؤول وانتحاره حامل سلاحه وقائد جنوده المرتزقة داود . فمن دركات القنوط الواطئة التي أصبح فيها الاسرائيليون ، ووضعهم الميئوس منه تحت نير الفلسطينيين ، ارتقى هؤلاء

القوم ، على ما يقول كيلر (الص ١٨٤) ، خلال عشرات قليلة من السنين الى موضع العزة والعظمة . وكان كل ذلك بفضل داود الشاعر مرتل المزامير . فقد كان مجهول الهوية خامل الذكر عرف لأول مرة حاملاً لسلاح شاوُول . ثم قائداً لقواته المرتزقة ، ورجلاً عنيفاً من رجال المقاومة ضد الفلسطينيين بعد ذلك ، حتى انتهى في عمرٍ متقدم وهو يجلس في القدس على عرش شعبٍ صار قوة عظيمة يحسب لها الحساب .

وبعد ان يثني كيلر على داود وشعبه ، ويبالغ في مدح اعماله مبالغةً يبدو فيها الأفراط الممل ، يأتي على وصف الكيفية التي اكتشفت فيها طريقة استيلاء داود على القدس الحصينة وانتزاعها من اليبوسيين .. فهو يقول (الص ١٨٨) وقد أُميط اللثام في نهاية القرن الماضي عن الطريقة الرومانتيكية التي وقعت فيها قلاع القدس الحصينة في يدي داود ، بالصدفة من جهة وبالولع الاستكشافي الذي كان يتحلى به نقيب من نقباء الجيش البريطاني يومذاك من جهة أخرى ففي الجهة الشرقية من القدس حيث تنحدر الصخور الى وادي ستي مريم (كدرون) تقع عين ستي مريم . وكانت هذه العين على الدوام المعين الدائم للماء والذي يستقي منه سكان المدينة المقدسة . ويمر الطريق المؤدي اليها اليوم بخرائب مسجد قديم ، ثم بسرداب منعزل . وتؤدي ستون درجة هنا الى حوضٍ صغير يتجمع فيه ماءٌ صاف ينبثق من الصخر .

وفي ١٨٦٧ زار الكابتن وارن مع جمعٍ من الحجاج هذه البركة المشهورة التي تقول عنها الاسطورة انها المكان الذي كانت السيدة مريم تغسل فيه أقمطة ابنها الرضيع . وقد لاحظ وارن في هذه الزيارة وجود مغارة مظلمة في السقف برغم العتمة الشديدة في الداخل ، على بعد عدة ياردات من اعلى البقعة التي كان يتفجر فيها الماء من الصخر . والظاهر ان هذه المغارة لم يلاحظ وجودها أحد من قبل لأن وارن حينما سأل عنها لم يستطع الحصول على أية معلومات بشأنها .

فعاد في اليوم التالي الى بركة العذراء وهو متشوق الى استطلاع الأمر من جديد ، آخذاً معه قطعة من الحبل الطويل وسلماً مناسبا ، من دون ان يعلم ان مهمة خطرة يكتنفها شيء من المغامرات كانت في انتظاره .

وكانت تمتد من منبع القناة الى ما فوق في اتجاه الصخر بخط مستقيم قناة غير متسعة . وكان وارن يجيد التسلق في الجبال ، وعلى علم بكيفية المروق من مثل هذه الممرات الضيقة . فتمكن بعناية فائقة من الصعود الى أعلى بطريق القناة هذه ، وبعد ما يقرب من أربعين قدماً انتهت القناة فجأة . وحينما تحسس وارن طريقه في الظلام هناك وجد ممراً ضيقاً في النهاية ، فدخل فيه وهو يزحف على الأربع ووجد ان عدداً من الدرجات كان قد نُحت في الصخر . وبعد برهة من الزمن لاحظ أمامه من بعيد وميضاً من نور ، ووصل الى حجرة مقببة لا تحتوي الا على جرار وقنان زجاجية يعلوها الغبار . وحينما حشر نفسه في شق موجود في الصخر هناك وجد أنه قد خرج الى نور النهار الساطع في وسط المدينة ، وبركة العذراء على بعد غير يسير من تحته .

وقد دلت الاستقصاءات الموثوقة التي قام بها باركر بعد ذلك في ١٩١٠ ، موفداً من المملكة المتحدة باشراف صندوق ارتياد فلسطين ، على أن هذه الترتيبات المدهشة تعود في قدمها الى الألف الثانية قبل الميلاد . فقد بذل سكان القدس القديمة جهوداً مضنية يومذاك في شق ممر من الصخر ليستطيعوا الوصول منه بأمان في وقت الضيق الى عيون الماء التي كانت تتوقف عليها حياتهم .

وبذلك اكتشف وارن بدافع حب الاستطلاع الطريق الذي كان داود قد استخدمه قبل ٣٠٠٠ سنة في الاستيلاء على حصن القدس بصورة مفاجئة . فان كشافة داود الاستطلاعية لا بد من أنها كانت على علم بهذا الممر السري كما يمكن ان يلاحظ من بعض نصوص التوراة التي كانت غامضة من قبل ..

وهكذا استقر داود في القدس واتخذها عاصمة له بعد حبرون ، ثم أسماها (مدينة داود) على ما تقول معظم المراجع ونصوص التوراة . ومن

طريف ما يذكره كيلر (الص ١٩١) عن داود ، استناداً الى المكتشفات التي اكتشفها الفرنسيون في قصر مملكة ماري ، ان داود لم يكن يسمى بهذا الاسم ، وأن هذا الاسم هو لقب من الألقاب العسكرية التي كانت تعني « القائد » ، وقد غلب عليه في التسمية واختُصر من « دافيدم » الى « دافيد »[1] . واستعان داود في تشييد قصره الذي أنشأه في أورشليم على هضبة صهيون ، وسماه « بيت داود » ، بحيرام ملك صور الفينيقي الذي بعث اليه بمهندسين مختصين ونجارين ونحاتين ماهرين ، مع شيء غير يسير من أخشاب أرز لبنان . اما العبرانيون فقد اقتبسوا حضارة اليبوسيين حينما أخذوا يستقرون في أورشليم ، فغادروا الخيام وسكنوا البيوت كما كان يفعل الكنعانيون ، وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يكتسون بها فلبسوا الثياب المنسوجة من الصوف التي تشبه ثياب الكنعانيين أيضاً .

سليمان الحكيم

يبدأ كيلر (الص ١٩٤) ، عند البحث عن سليمان الذي أعقب والده داود في تولي الحكم في القدس ، بايراد عدة آيات من سفر الملوك في التوراة . وكلها تدل على الأبّهة التي كان يعيش فيها سليمان وعلى مقدار الثروة والغنى عنده ، ويفهم منها أنه كان له أربعون ألف مربط من مرابط الخيل التي كان يستعملها لعرباته ، واثنا عشر ألف خيال وسائس . وأنه أنشأ اسطولاً من السفن في عصيون جابر الكائنة بجانب إيلات ، وأن جميع أوانيه كانت من الذهب لأن أسطوله كان يجلب اليه من الخارج الذهب والفضة والعاج والقرود والطواويس . وان البيت الذي بناه لله (الهيكل) كان كله مغلفاً بالذهب ، وان خيوله كان يأتي بها من مصر ، وأن وزن الذهب الذي جيء به اليه في سنة من السنين بلغ « ست مئة ستين » وستة قناطير . وبعد ان يذكر كيلر ان هذه المبالغات تكاد لا تصدق يعود فيقول انه من المؤكد ان بعض القصص الموجودة

---

(١) Davidum & David

في التوراة يعتبرها العلماء من الأساطير مثل قصة بلعام المشعوذ وحماره الناطق ، وقصة شمشون الذي كان شعره الطويل يمنحه مزيداً من القوة ، ومع هذا فان هذه القصص الأسطورية هي في الحقيقة ليست خرافات مطلقاً (كذا) . ولا ريب ان تعصب كيلر هو الذي يحدو به الى تدوين مثل هذا الرأي ، والى محاولة اثباته بالبراهين التنقيبية الملموسة .

وهنا يشير الى التنقيبات التي أجرتها البعثة الآثارية الامريكية برآسة نلسون كلوك سنة ١٩٣٧ في تل الخليفة في الأردن ، واكتشاف ميناء عصيون جابر فيه بالقرب من العقبة . وقد اكتشف هنا أيضاً منجم كبير للنحاس الذي استخدم سليمان قسماً منه في بناء الهيكل وزخرفته في القدس ، وصار يصدر مقادير كبيرة منه الى الخارج في مقابل الذهب والأشياء الثمينة الأخرى التي كانت ترد اليه . فقد كانت عدة أشياء في هيكل سليمان هذا مصنوعة من النحاس ، مثل المذبح والحوض الكبير الذي كان يسمى « البحر » وقواعد الأركان العشرة والأواني والأحواض الصغيرة وما أشبه ، علاوةً على عمودي النحاس العظيمين « ياكين » و« بواز » في رواق الهيكل . ثم يقول كيلر ان سليمان ، الذي يسميه كلوك « ملك النحاس العظيم » ، لا بد من أنه كان من أعظم مصدري النحاس في العالم القديم . ويضيف بعد ذلك قوله ان سليمان نازع الفلسطينيين في الجنوب على حقهم في احتكار الحديد أيضاً وحصل منهم على الطريقة السرية في استخراجه . وهكذا تصح نصوص التوراة عن النحاس والحديد الواردة في سفر التثنية على حد قوله .

يضاف الى هذا ان سليمان كان عاهلاً تقدمياً على ما يظهر . فقد كان مقتنعاً بالاستفادة من الأدمغة والخبرة الأجنبية ، وهذا هو السر الذي جعل النظام الفلاحي البسيط الذي كان يتميز به اليهود في عهد أبيه داود ينقلب في قفزات سريعة الى نظام اقتصادي من الصنف الأول على ما يزعم . وهنا أيضاً ينطوي السر في ثروته التي يؤكد عليها التوراة . حيث انه استقدم خبراء صهر المعادن وتنقيتها من فينيقية ، وعهد الى حورام أبي الصانع الماهر من (صور)

بصب زخرفات الهيكل في القدس وتنسيقها : واستقدم كذلك خبراء في الملاحة والسفن ، وفي شؤون الأرصفة والموانىء ، من البلاد الفينيقية . وقد وردت جميع هذه الأخبار وتفصيلاتها في النصوص الفينيقية المكتشفة كذلك . فهي تنص على ان حيرام ملك صور عرض على « أمير اليهود » مواد إنشائية لقصره الجديد اذا ما تنازل له عن ميناء في البحر الأثيوبي (الأحمر) ، فقدم له الأمير ذاك بلدة إيلات وميناءها . ومع وجود الكثير من النخيل حول المكان لم يكن هناك خشب مناسب للأغراض البنائية ، ولذلك اضطر حيرام ان ينقل الخشب على ثمانية آلاف جمل . وقد بُني اسطول عدته عشر سفن من هذا الخشب .

وهنا يكتفي بهذا المقدار مما يذكره كيلر عن سليمان ، الذي كان عصره من أبهى عصور القدس وأزهاها ، وننتقل الى ما كتبه الكاتب الفرنسي المعروف جان لوي برنار عن سليمان مؤخراً . فقد أورد[1] رأياً يكاد يكون غريباً يشكك في كون سليمان يهودياً من بني اسرائيل ويقول انه رجل أجنبي عنهم .

فهو يقول في بحث طويل : ماذا يعني الاله لدى الاسرائيليين ؟ أن المتباكين لدى حائط المبكى في القدس سيضحكون من أنفسهم ذاتها حين يعلمون ان سليمان مشيد الهيكل لم يكن يهودياً ، وانما كان آشورياً . كان « نائب ملك » معين من الخارج لايجاد التوازن في « برج بابل » ، ذلك البرج الذي يضم شعوباً مختلفة الأصول تقطن في فلسطين .. وسليمان هو شلما نصر الذي « عبرنه » الاسرائيليون فحولوا اسمه الى سليمان ..

.. وبصورة عامة لعبت فلسطين دور نائب الملك التابع ، ومهما أوغلنا في تاريخها القديم لا نجدها أبداً قد عاشت مستقلة . وحتى في أيام داود ، الذي

(١) أسطورة الشعب المختار ، ترجمة الدكتور أكرم فاضل ، نشر وزارة الثقافة والاعلام ١٩٦٩ (بغداد) .

تولى الحكم في القدس ، كانت تدور في الفلك المصري العملاق . وكل فرعون كان يعين نائباً له يختاره قطعاً من العنصر المحلي . والرومان قد حذوا حذو الفراعنة ، فان هيرود مثلاً كان من عنصر آخر ، كان أيدومياً على حد تعبير العهد الجديد . وهذا العنصر قد قاسى ما قاسى من كره اليهود له .

. وكان فرعون يعين في محميته « نائب الملك » ممن ليسوا من أهل المنطقة ، ثم يزوجه امرأة من الطبقة الأرستقراطية المصرية . وامتد هذا الاجراء حتى شمل الهاربين والخونة والمرتدين السياسيين وكذلك الرهائن ، وكانوا ينشئونهم على الطريقة المصرية ويزوجونهم بالطريقة نفسها . وبهذا الخصوص أقول ان أفضل مثل يضرب دون نزاع هو مثل سليمان .. ففي عهده دخلت سطوة مصر العسكرية في دور الاضمحلال ، كما هي حالة سطوة بابل . اما الكوكب الذي توسط كبد السماء فهو الكوكب الآشوري . فتحولت « نيابات الملك » التابعة من يد الى أخرى ، تحولت في فينيقية كما تحولت في فلسطين .

وأرجح كون سليمان سامياً ، كما كانوا ساميين أولئك الآشوريون المنحدرون من جبال زاغروس ، ومن صياصي القفقاس ومعهم شطر من الأكراد .. كل هؤلاء هبطوا الى ما بين النهرين ليخضعوها بعد أن دب في أوصالها الانحلال .. وقد تمثلوا لغتها وثقافتها . والثقافات المسماة سامية نابعة من الجزيرة العربية القديمة الممعنة في الحضارة .. وسليمان من معدنهم ، فهو نصف عربي (وهذه حصته البابلية) ، وهو نصف كردي . وهذا يفسر لنا الصداقة التي تربط سليمان بالملوك الفينيقيين الذين ساعدوه في بناء هيكله الذائع الصيت في القدس . ويفسر لنا كذلك الحب الذي ستكرسه ملكة سبأ العربية للحكيم سليمان . ولوكان يهودياً لاستحالت هذه الصداقة ولاستحال هذا الحب الى كراهية وبغضاء ، لأن اليهود وهم أمشاج مختلطة كانوا منبوذين في العالم العربي . ولكن هذا السامي الكردي مرتبط روحياً بمصر اذا لم يكن هذا الارتباط سياسياً ، وقد تزوج بامرأة مصرية من طبقة روحية عليا تدين بديانة الآلهة هاتور وتتكلم في ديانتها هذه ، وهاتور آلهة سماوية ذات وجه أسود .

وان آية الشاعر الملك الرائعة هي « نشيد الأنشاد » الذي هو عبارة عن غزل ديني كان سائداً آنذاك ، وهو مصري قلباً وقالباً . « انني سوداء ولكنني حسناء » .

.. وهذه الفكرة غريبة للغاية على التصوف اليهودي الذي لا يعطي المرأة أية قيمة روحية ، بل الأمر بالعكس ، وان « نشيد الانشاد » هو نبع خالص من الأدب الصوفي المصري .. وهناك مفسرون سطحيون رأوا في هذه المعشوقة السوداء جارية ً من جواري الحريم من الجنس الأسود ، فيا لها من نظرة سخيفة .. فالحقيقة ان القضية هي قضية انشودة غرامية مهداة الى عذراء سماوية ذات قناع أسود . وهذه النظرية الغامضة كانت أساس العديد من الجمعيات السرية وهي كلها صوفية ، وكانت تشمل الشرق بأسره فهل هذه مصادفة إذا كان سليمان يعتبر الأب الروحي لكهان الشرق ؟

لقد كان عالماً بأسرار الجانب الخفي من الدين . وان الماسونية الحرة نفسها تدعي أنها تدين بدين سليمان وبهيكله المشهور في القدس .. والشك هنا لا محل له من الاعراب . فقد كان سليمان شخصية عظيمة لا سيما على الصعيد الروحي ، فهل لهذه الغاية اغتاله اليهود ؟ هذا ما يجعلنا نفهمه من الكتاب المقدس .. فانه ببنائه الهيكل ، وبفتحه أبواب القدس للروحانيات الأجنبية قد أوجد دواءً لنرجسيتهم (عبادة الذات) .. ولكنهم فضلوا أسطورة الشعب المختار .

واذا كان هذا الملك السامي الكردي قد استطاع ممارسة الدين الذي تكتنفه الخفايا والأسرار — وهو من أعلم أهل زمانه — فانه كان مدنياً بهذا العلـــم لكاهنة مصرية من كهنة الآلهة هاتور . وهذه الكاهنة تزوجها بدافع الطموح السياسي .. وتوج كل هذا بمعاهدة مصرية — آشورية . ففلسطين التي كانت حتى ذلك العهد محمية مصرية أصبحت في الواقع آشورية . وقد وافق فرعون على تعيين نائب للملك الآشوري شريطة ان يرتبط بمصر عن طريق امرأة مصرية ، ونصيبه كنصيب أسلافه .. وعن طريق المرأة نقلت مصر بحيازتها

على التقاليد الانسانية القديمة امتيازاتها الروحية ، فعهدت بها الى أجانب من النخبة الممتازة . وقضية سليمان نطرحها كمثال .. ولأجل ان نحسن فهم ماهية هذه المنقولات علينا ان نناظر بين الملك سليمان المعبر ن بصورة اعتباطية وبين شخصية أخرى هي شخصية الحبر الأعظم (يويا) المعبر ن هو أيضاً بصورة كاذبة ، فسموه يوسف الذي باعه أخوته ..

ملكة سبأ في القدس

يفرد المستر كيلر فصلاً خاصاً (الفصل ٢١) لزيارة ملكة سبأ سليمان الحكيم في أورشليم ، يتحدث فيه عن « العربية السعيدة » ومدنيّتها وكونها كانت منبعاً للكثير من السلع الثمينة النادرة التي كانت تأتي بها القوافل بانتظام الى الشمال ، حتى صار سكان الكثير من البلاد في تلك الأعصر الخوالي يتخيلون سحرها ويتناقلون قصصاً خيالية عن قبورها الملأى بالذهب ، وعمّا كان فيها من توابل وعطور .

وبعد ان يصف أشياء كثيرة من هذا القبيل يخرج كيلر من كل ذلك الى ان منتهى « طريق التوابل والعطور » كانت اسرائيل ، وكان وكلاء سليمان الرسميون « تجار الملك » في القدس وغيرها يتسلمون السلع الثمينة ويتاجرون بها . ولذلك كانت حياة ملكة سبأ تتوقف على هذه التجارة التي صار يملك زمامها يومذاك الملك سليمان نفسه . لأن هذه السلع والقوافل كان لا بد لها من ان تمر باسرائيل قبل أن تذهب الى سورية ومصر وفينيقية .

ولأجل تأمين هذه التجارة المزدهرة ، ونظراً للسمعة التي صار يتمتع بها سليمان يومذاك ، شدت بلقيس ملكة سبأ الرحال الى أورشليم وفي صحبتها هدايا ثمينة اليه . وبهذا يمكن اعتبارها شريكةً تجارية له ، على ما يفهم مما يذكره كيلر . لكن التوراة تعلل زيارتها لسليمان في القدس بكونها كانت تريد امتحانه ببعض الأمور وتلتمس الحكمة منه (الاصحاح العاشر من سفر الملوك الأول) . فلما اختبرته ووقفت على ما عنده من حكمة قدمت اليه هدايا

كثيرة . فقد قدمت له مائة وعشرين وزنة من الذهب وكميات كبيرة من الطيوب والحجارة الكريمة . ولا شك ان هذا كله يدل على ثروة هذه الملكة وغناها إن صحت الروايات ، وعلى شهرة سبأ بالذهب عند اليهود .

على ان الدكتور جواد علي يقول في تاريخه[١] ان قصة هذه الزيارة وإن كانت دونت فيما بعد ، كتبها كتبة التوراة بعد عدة قرون ، تستند الى قصص قديم كان متداولاً ولا شك بين العبرانيين ، فدونها هؤلاء الكتاب . وقد رأى بعض نقدة التوراة ان هذه القصة كتبها أولئك الكتبة لاثبات عظمة سليمان وسعة دولته وشهرة حكمته . غير ان هذا لم يبت به حتى الآن . ورأى آخرون ان هذه الملكة لم تكن ملكة سبأ في اليمن ، بل كانت ملكةً تحكم في العربية الشمالية ، وربما كانت تحكم جماعة من السبأيين المقيمين في الشمال . ويستند الدكتور في هذا على ما يقوله البحاثة هيستينغ[٢]

اما ويندل فيليبس منقب جامعة كاليفورنية الذي أجرى في نهاية ١٩٥١ تنقيبات أثرية في مأرب ، يشير اليها المستر كيلر نفسه ، فيقول في كتابه[٣] عن ملكة سبأ : والجدير بالذكر انه لم يسبق لأي شيء في ذلك الجزء من العالم أن نسب الى زمنها الذي كان على وجه التقريب حوالي سنة ٩٥٠ قبل الميلاد . والآن ونحن نتطلع الى نقوش من صنع انسان قد يكون حياً في الوقت الذي كانت تعيش فيه بلقيس ، فانه لا يسعنا الا أن نفكر في ملكة سبأ أكثر فأكثر .

وكان الكثير من الأساطير قد دار حول ملكة سبأ ، تلك الملكة التي ورد ذكرها ، أول ما ورد ، في الفصل العاشر من سفر الملوك ، حيث قص علينا

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ، الص ٣٥٤ .

(٢) Hastings, James — Encyclopedia of Religion & Ethics, P. 843

(٣) كنوز مدينة بلقيس — قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن ، ترجمة عمر الديراوي ، بيروت ١٩٦١ . الص ١٢٢ — ١٢٥ .

نبأ زيارتها للملك سليمان في القدس . وفي ذلك الوقت كان الملك سليمان . الذي قدر الاستاذ أولبرايت انه كان يعيش في الفترة الواقعة ما بين سنة ٩٦١ وسنة ٩٢٢ قبل الميلاد . يشرف على عمليات بحرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي . وكما روى سفر الملوك انها قدمت شمالاً في قافلة من الجمال . ومما لا شك فيه ان زيارتها كانت ذات قيمة تجارية مهمة : فانها أهدت الملك ١٢٠ وزنة من الذهب والأحجار واللآلىء التي لم يشاهد مثلها من قبل .. وكان هناك مقدار وفير من التوابل لم يسبق ان شهدت مثله القدس .

.. ويقول بعض المؤرخين ان ملكة سبأ كانت بالفعل شمالية تحكم قبائل رحل في شمال شبه الجزيرة العربية . اكثر منها ملكة تخضع لها الأمة التي كانت عاصمتها مأرب . وبالرغم من ان هناك ملكات من العرب أكثر من الملوك . ورد ذكرهن في النقوش والكتابات الآشورية . خلال الفترة الواقعة بين سنة ٨٠٠ وسنة ٦٥٠ قبل الميلاد . فان ذلك لا يثبت ان الملكة انما كانت تعيش فقط في شمال الجزيرة العربية ..

ومن بين القصص التي تروى عن هذه الملكة عند زيارتها للقدس قصة تشرح كيف انها بعد أيام من وصولها الى بلاط الملك سليمان قد رأت الملك يصاب بصدمة حينما سمع الشائعات التي تقول عنها ان لها رجل عنزة . ولما لم يكن الملك راغباً في إحراج هذه السيدة . وأن يسألها ان ترفع أهداب ثوبها لتريه قدمها . فقد أعد خطة بارعة للتوصل الى ما يريد .. فقد بنى مهندسوه أرضاً من البلور تلوح للرائي كأنها ماء . وقد جاء اليوم ، وكان سليمان يقف فيه في المكان المواجه للأرض البلور . عندما دعا ملكة سبأ لتنضم اليه . واعتقاداً منها بان عليها ان تعبر ماءً رفعت الملكة ثوبها كما تفعل السيدات وقفزت الى الأمام . وقد رأى سليمان ما قرت به عينه وهدأ خاطره .. كانت تملك ساقين عاديتين .. ولطيفتين أيضاً .

ومن بين الأساطير الحبشية . أسطورة تقول انه لما كانت ملكة سبأ امرأة صالحة ترفض باستمرار ألوان الغزل والمداعبة التي يعرضها عليها الملك سليمان

فقد دعاها في ليلة حارة إلى عشاء دسم ، ثم وضع جرّة تحتوي على ماء بارد قرب فراشة بينما وضع جرة فارغة قرب فراشها . وبعد ان استراحت الملكة فعلت تلك الأطعمة فعلها فزادت في عطشها . وأخيراً تسللت الى مخدع سليمان لتستعير شيئاً من الماء ، وبذا اقتربت عن براءة بنفسها من صاحب الجلالة الذي كان ينتظرها على أحر من الجمر .

وقد تكون هذه الأساطير ملفقّة مخترعة ولكنه ليس هناك سبب واحد يدعونا الى الشك في ان الملكة المشار اليها كانت ملكة فعلاً .

نهاية الدولة اليهودية

لقد قضى سليمــان نحبه في سنة ٩٢٦ قبل الميلاد فقُبر وقُبر معه الى الأبد حلم اسرائيل ببقائها دولة واحدة معظمة ، على ما يقول كيلر (الص ٢٢١) فقد تسنى لداود وسليمان ان يحققا شيئاً من هذا الحكم المفعم بالطموح خلال جيلين من الأجيال ، ولكن في اللحظة التي رحل فيها سليمان الى العالم الآخر نشبت الخلافات العشائرية بين اليهود من جديد فتحطمت الامبراطوريــة الفلسطينية بنتيجة ذلك النزاع . وحلت في محلها مملكتان — مملكة اسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب . وكان الاسرائيليون هم الذين يعملون على تقويض امبراطوريتهم ، فأدى هذا الى ان يقع سكان اسرائيل فريسة للآشوريين وسكان يهوذا فريسة للبابليين . وكان الذي حل بهم ، وهم منقسمون على أنفسهم ، أسوأ من مجرد اختفائهم في عالم النسيان . فقد وقعوا بين شقي رحى الدول المعظمة التي قدر لها في القرن الذي أعقب ذلك ان تسيطر على المسرح العالمي ، وانهارت مملكتا يهوذا واسرائيل في غمرة النزاع المحتدم ولما يتم مرور ٣٥٠ سنة على موت سليمان فاصبحتا أثراً بعد عين .

فقد نُفذت آخر رغبة لسليمان قبل وفاته ، على ما يذكر كيلر ، وجلس ولده رحبعام على عرش القدس ليحكم القبائل كلها مدة وجيزة من الزمن . لكن الأسباط سرعان ما ازدادت الخصومة والنزاع بينهم فزجت البلاد في

حرب أهلية . وآل ذلك الى انفصال عشرة أسباط عن عرش سليمان في القدس واسسوا لهم في الشمال مملكة أخرى في ٩٢٦ قبل الميلاد باسم اسرائيل وعاصمتها شكيم . ونصب يربعام ملكاً عليها . اما السبطان الباقيان ، يهوذا وبنيامين ، فقد بقيا على ولائهما لرحبعام في الجنوب فتكونت منهما مملكة يهوذا التي اتخذت القدس عاصمة لها .

ومع هذا فقد استمر النزاع بين المملكتين مدة من الزمن . وما ان نشبت الحرب الأهلية بينهما حتى تعرضت فلسطين الى احتلال غير منتظر دام عدة أجيال . فقد هاجمها شينشق (الفرعون شينونك الاول) من مصر بجيوشه واكتسح البلاد فنهبها في طريقه . وكانت أعظم الغنائم التي استولى عليها غنائم القدس العاصمة ، إذ نهب هيكل سليمان وما فيه من نفائس ، ونهب قصره الذي يسميه التوراة « بيت لبنان » . ولم يكن يمضي على تشييدهما أكثر من عشرين عاماً ، وبذلك جُرّدت النصب الدالة على عظمة سليمان عن عزّتها ومجدها . وصار رحبعام يصنع دروعه من النحاس بدلاً من الذهب ، وفي هذا فأل سيء على ما تقول التوراة .

اما اسرائيل فقد بلغت درجة من الضعف تغلبت فيه عليها حتى مملكة موآب . على ان الخطر ظل يهدد الدويلتين اليهوديتين من الشرق . فقد كان نجم الآشوريين آخذاً بالصعود . وصار ماوكها العظام يولون وجوههم شطر الدول والامارات السامية التي تحجبهم عن البحر في سورية وفلسطين . وسرعان ما هوجمت المدن الفينيقية .. ولا شك ان هذا كان نذير سوء للمملكتين اليهوديتين في فلسطين فقد قيل .. « من حلقت لحية جار له فليسكب الماء على لحيته » . فقد تولى الحكم في آشور تيغلات بيلسر الثالث ، وراح يكتسح بلدان البحر الأبيض المتوسط على ما يقول كيلر (الص ٢٣٨) ، وأجبر الشعوب المستقلة على ان تكون تابعة الى الامبراطورية الآشورية . ثم توجه الى فلسطين فخضعت له اسرائيل في عهد الملك مناحيم الذي تحاشى تدمير بلاده بدفع ألف قنطار فضة جمعها من أهالي اسرائيل المتمكنين . ويذكر كيلر ان

هذه تساوي بعملة اليوم ستة ملايين باون ذهب استرليني ، ويقدر ان اسرائيل لا بد من ان يكون فيها يومذاك حوالي ستين ألف موسر ، لأن كلاً منهم دفع خمسين شقلاً .

وما ان تراجع تيغلاث پيلسر حتى هب رزين ملك دمشق وتزعم تكوين حلف من الدويلات الآرامية في وجه هذا الخطر الداهم . وانضمت اليه اسرائيل والدويلات الفينيقية والعربية ، على ما يذكر كيلر ، وكذلك انضمت مدن فلسطين الجنوبية والأدوميون . وحينما امتنع يوحاز ملك يهوذا في القدس عن الانضمام الى الحلف هاجمته الدويلات المتحالفة في عاصمته فاستنجد بسيده في آشور . وكانت النتيجة عـلى ما يذكر التوراة (سفر الملوك) وتؤيده التنقيبات الأثرية ، ان دمرت اسرائيل تدميراً تاماً ومحيت من الوجود على يد سرجون الثاني . إذ يقول كيلر ان عشرات الآلاف من الناس طردوا بعنف من ديارهم ، وسيقوا الى بلادٍ غريبة ، وحل في محلهم أناس جيء بهم من مختلف الأنحاء .

وهكذا اختفى من الوجود سكان مملكة اليهود الشمالية وملوكهم ، وامتصّتهم شعوب بلاد أخرى ، فلم يظهروا بعد ذلك الى الوجود مطلقاً . فان جميع التنقيبات الأثرية التي أُجريت للتفتيش عن مصير الأسباط العشرة لم تؤدِ الى نتيجة ما .

اما مملكة يهوذا فقد توفي ملكها الذي جامل الآشوريين واستكان لهم . وتولى بعده ابنه حزقيا ، فأخذ يكتل مدن فلسطين الجنوبية معه . واتصل بفرعون مصر شاباك الحبشي يومذاك لا سيما وقد كانت وفوده موجودة في أورشليم . وقد رد سرجون على ذلك في الحال بتدمير مدن فلسطين الجنوبية ، ونكّل بها تنكيلاً شديداً كما يفهم من النقوش المكتوبة على جدران قصره ، وبذلك قضى على الجبهة المناوئة له . فالتفت حزقيا عند ذاك الى مردوخ بلادان ملك بابل ليتعاون معه في تكوين جبهةٍ جديدة ، وحينما هم سرجون

بالقضاء على خصومه الجدد اغتيل في قصره فتأخرت الكارثة التي كانت بانتظار مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم .

على ان حزقيا صار يعد للأمر عدّته ، فأُصلحت مواقع الدفاع في أورشليم وهيئت لحصار طويل الأمد ، بعد أن جددت الأجزاء القديمة من الأسوار وشيدت فيها الأبراج . كما شيد سور خارجي ثانٍ من الجهة الشمالية المعرضة للهجوم ، بعد ان هدم بعض الدور من أجله . وأهمّ ما اتخذ في هذا الشأن من تدابير تدبير الماء للمدينة في أثناء الحصار . ففي خارج المدينة حيث تنحدر السفوح الجنوبية انحداراً تدريجياً نحو وادي كدرون كانت توجد بركة ماء[1] ، فاتخذ تدبير بارع صار يمكن به تحويل ذلك الماء بصورة سرية الى المدينة عند الحاجة .

اما الآشوريون فقد تولى العرش عندهم بعد سرجون الثاني ابنه سنحاريب ، وبعد أن أدب المتمردين في بلاد بين النهرين توجه في نهاية سنة ٧٠٢ ق.م فسحق البلاد الثائرة في الحال ، واستولى على مملكة يهوذا كلها عدا عاصمتها أورشليم . فقد حاصرها وضيّق عليها الخناق من جميع الجهات ، وظل على هذه الحال حتى حدث أمر مفاجيء أمر فيه سنحاريب جيوشه بالانسحاب والعودة الى آشور . ولا تشير النقوش الآشورية الى سبب الانسحاب بشيء ، لكن المستر كيلر يستنتج من التنقيبات التي وجدت بالقرب من القدس أن وباءً مخيفاً تفشى في الجيوش الآشورية فأدى الى الانسحاب ، بعد ان وافق حزقيا المحاصر في أورشليم على دفع غرامة باهظة . ويقول النص المختص بموقعة القدس هذه ، المستمد من النقوش الآشورية ، على لسان سنحاريب ما يأتي : .. أما حزقيا فقد انسحق بروعة جلالتي .. وأرسل الى نينوى من بعدي كنوزاً ثمينة .. ثلاثين قنطار ذهب ، وبعث ببناته ونساء حرمه ، وبالمغنّين نساءً ورجالاً . ولتقديم الطاعة والجزية بعث برسله .. اما التوراة

(١) يراجع البحث الوارد قبل هذا حول استيلاء داود على القدس .

(سفر الملوك الثاني) فيذكر ان حزقيا بعث الى نينوى بثلثماية قنطار فضة وثلاثين قنطاراً من الذهب .

سبي بابل

وهكذا تدنى أمر مملكة يهوذا ، لكن القدر انقذها في آخر لحظة وبقيت على قيد الحياة ضعيفة الجانب مهيضة الجناح . وأخذت تستعيد شيئاً من الحياة بالتدريج خلال المدة التي حكم فيها أسرحدون بعد ابيه سنحاريب في آشور ، وآشور بانيبال من بعده . وقد حصلت تطورات خطيرة بعد ذلك في توازن القوى فأدت الى انتهاء أمر آشور كدولة معظمة ، وظهور الميديين والكلدانيين في بابل . إذ تحالفت هاتان القوتان فيما بينهما فقضتا على الدولة الآشورية وتقاسمتا أسلابها . وكانت المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من حصة الميديين والبقية من حصة البابليين . وبهذا وقعت سورية وفلسطين من حصة نيبو بلاصر والد نبوخذنصر .

وكان أول ما فعله انه بعث بنبوخذنصر ولي عهده لتسليم ممتلكاته الجديدة . وكانت مملكة يهوذا قبيل ذلك قد وقعت فريسةً في يدي نخو فرعون مصر الذي ألحق فلسطين وسورية به . وأخذ يهوحاز بن يوشيا أسيراً الى مصر بعد أن جرده من كل ما يمت للملكية بصلة . ونصب في أورشليم مكانه ابناً آخر من ابناء يوشيا يدعى يواقيم فبدل اسمه الى يهويواقيم .

وما باشر نبوخذنصر بدحر نخو فرعون مصر في شمال بين النهرين تمهيداً لتسلم سورية وفلسطين حتى توفي والده فعاد الى بابل وتأخرت نهاية يهوذا المرْدية الى سبي بابل بضع سنوات . وفي دورة القرن السادس قبل الميلاد وقعت الواقعة التي أدت الى محو مملكة يهوذا من الوجود الى الأبد وشطبها من سجل التاريخ كأمة من أمم الشرق القديم ، على ما يقول كيلر (الص ٢٧٣) . وأخذت الحوادث تترى بسرعة مخيفة على الدولة التابعة وسكانها في أورشليم وما يحيط بها . فقد آل بهم الأمر الى طريق المنفى والترحيل القسري الى بابل .

وقد بدأت الواقعة برفض الجزية واعلان الثورة عن السيد الاقطاعي الجديد على ما يعبر عنه كيلر ، وذلك في سنة ٥٩٧ ق.م : فلم يتدخل نبوخذنصر في بادىء الأمر وانما اكتفى بسوق جيوش محلية من موآب وأمون وسورية على أورشليم ، وحينما عجزت عن قمع الثورة بسرعة خف هو بنفسه الى مملكة يهوذا . وبينما كان في طريقه اليها مات يهوياقيم فجأة ، وتولى عرش أورشليم في مكانه ابنه يهوياكين . وكان هذا يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، ولم يحكم سوى ثلاثة أشهر . وحينما وصل نبوخذنصر الى أسوار أورشليم استطاع فتحها والقضاء عليها بعد أن نهبها ودمرها ، ثم أخذ ملكها وسبى أهلها الى بابل . ويقول كيلر إن التوراة يذكر بأن يهوياكين وأسرته قد أخذوا أسرى الى بابل في سنة ٥٩٧ ق.م ، لكن التنقيبات الأثرية التي أجراها الاستاذ كولديوي الألماني في بابل سنة ١٨٩٩ ، والرقم الطينية التي ظلت محفوظة الى سنة ١٩٣٣ حتى قرأها وحل رموزها فايدنر ، تميط اللثام عما يخالف ذلك . فلم يضطهد اليهود في بابل كما جاء في التوراة وانما عاش ملكهم مع أسرته وحاشيته في قصر نبوخذنصر نفسه في بابل عيشةً مرفهة . كما تشير الى ان نبوخذنصر سمح لمملكة يهوذا ، بعد أن أخذ ملكها وسبى قسماً من أهلها ، بأن تبقى مملكةً من الممالك التابعة الى بابل . وكان الذي تولى عرش أورشليم بعد يهوياكين عمه ماتانيا الذي أعاد نبوخذنصر تسميته باسم صدقيا .

ومع هذا فقد عادت يهوذا الى الثورة والعصيان بتحريض من فرعون مصر المسمى أفريز . فخف نبوخذنصر في هذه المرة الى يهوذا بسرعة الصاعقة ، في حملة تأديبية ماحقة . وبعد ان استولى على انحاء المملكة كلها من جديد ظلت أورشليم تقاوم مدة ثمانية عشر شهراً بأمل وصول النجدة التي وعدت بها من مصر . لكن أملها في ذلك كان سراباً خادعاً ، ولم يكن بالامكان تأخر النتيجة القاضية . فقد تمكن الجيش الكلداني من اقتحام أورشليم ، وأسر صدقيا ثم ذبح أبناءه على مرأى منه ، وسملت عيناه تنفيذاً لما يقتضيه القانون العسكري البابلي بالنسبة للخونة . اما أورشليم فقد أُبيحت للسلب والنهب

وأضرمت النار في هيكل سليمان والقصر الملكي . ثم هدمت أسوار المدينة الى الأرض . وفي هذه المرة أيضاً سُبي قسم كبير من اليهود (سنة ٥٧٦) وأخذوا الى بابل ، فمحى نبوخذنصر بذلك أسرة داود الملكية من الوجود بعد ان حكمت في أورشليم مدة اربعماية سنة . واصبحت يهوذا كلها مقاطعة بابلية . اما الذين تخلفوا في البلاد من اليهود فقد نظموا حرب عصابات للمقاومة في الجبال ، وقتلوا الحاكم البابلي غيداليا على ما يدعون . وقد أدت هذه الأعمال الى قيام البابليين بترحيل اليهود للمرة الثالثة والأخيرة من فلسطين . واستطاع عدد منهم الافلات من ذلك فنجوا بأنفسهم الى مصر . وهكذا أُسدل ستار التاريخ على بلادٍ خالية . وتفرق أسباط اسرائيل مع الريـــاح الأربعة على حد تعبير كيلر .

ثم يذكر كيلر (الص ٢٨٠) ان بعض علماء التاريخ مثل كوك وتيري ينكرون صدق الرواية التي توردها التوراة في ترحيل السكان الى المنفى ، وهم يرون ان الترحيل لم يكن بمقياس واسع من يهوذا وانما أُخذت بعض الأسر المرموقة وأُسرت في بابل . لكن التنقيبات الأثرية تدل على عكس ذلك تماماً ، حيث لم يُعثر في التنقيب ولا على بلدة واحدة في مملكة يهوذا ظلت مسكونة باستمرار خلال مدة السبي . فقد دمر البابليون مملكة يهوذا تدميراً كاملاً وأخلوها من السكان . وبذلك يكونون قد نظفوها وكنسوها كنساً كاملاً على حد تعبير كيلر .

وهكذا ، فبعد ستماية وخمسين سنة من الوقت الذي وطأت فيه أقدام أبناء اسرائيل أرض الميعاد لم يبق فيها من نسلهم ولا شخص واحد . وبذلك تحققت تحذيرات انبيائهم وتهديداتهم ، ونفذت ارادة الله بحقهم . فتعزو التوراة ما أصاب دولتي اليهود من نكبات الى انحرافهم المستمر وإكثارهم من الخيانة وتعاطي الرذائل . فقد جاء في الأصحاح الســابع عشر من سفر الملوك : وعبدو آلهةً أخرى وجروا على سنن الأمم التي طردها الرب من وجههم ؛

وعلى ما سنّه ملوك اسرائيل[١] . وعملوا في الخفاء أموراً غير مستقيمة في حق الرب إلههم . ابتنوا المشارف في جميع مدنهم وأقاموا أنصاباً على كل أكمة . وقتروا هناك مثل سائر الأمم . وفعلوا أفعالاً سيئة لاسخاط الرب . وعبدوا الأصنام فأمرهم الرب على ألسنة أنبيائه بالتوبة وحفظ وصاياه فلم يسمعوا . وصلّبوا رقابهم مثل آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب ؛ ورذلوا فرائضه وعهده ؛ واقتفوا الباطل وتركوا جميع وصايا الرب إلههم . وصنعوا لهم عجلين من المسبوكات . وأقاموا غاباً وسجدوا لجميع جند السماء . وعبدوا البعل وأجازوا بنيهم وبناتهم في النار . وتعاطوا العرافة والفأل وباعوا أنفسهم لعمل الشر . فغضب الرب جداً من اسرائيل ونفاهم من وجهه ولم يبق الا سبط يهوذا . ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب وسلكوا في سنن اسرائيل فرذل الرب جميع ذرية اسرائيل وأذلهم وأسلمهم الى أيدي الناهبين ..

وهناك في الاصحاح السادس والثلاثين من سفر أخبار اليوم الثاني أشارة الى ذكر استيلاء نبوخذنصر على أورشليم وسقوط دولة يهوذا . فقد جاء : حتى ان جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم . ونجسوا بيت الرب الذي قدسه في أورشليم . فارسل الرب إله آبائهم اليهم عن يد رسله مبكراً ومرسلاً لانه أشفق على شعبه وعلى مسكنه فكانوا يهزأون برسل الله . ورذلوا كلامه وتهاونوا بانبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه ، حتى لم يكن شفاء . فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف في بيت مقدسهم . ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده . وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة . وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه . وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم . وأحرقوا جميع قصورها بالنار . وسبي الذين بقوا من السيف الى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً الى أن ملكت مملكة فارس .

---

(١) لقد أقام الملك يربعام ومن جاء بعده معبدين في أورشليم ووضعا فيها تمثالين للعجل .

حياة السبي

تدل التنقيبات الأثرية . واللقى التي عُثر عليها في بابل وغيرها . على أن حياة اليهود في المنفى لم تكن حياةً سيئة كما تذكر بعض المراجع . فقد كانت عيشتهم فيها عيشة مرفهة . اكتسبوا فيها ثقافةً عامة هيئوا أنفسهم بواسطتها لمقاومة الفناء والاحتفاظ بخصائصهم المعروفة : إذ يذكر كيلر (الص ٢٨٣ — ٢٩٠) بعد ان يصف بابل وعظمتها . ويشير الى أنها لم تكن مركزاً تجارياً فقط بل مركزاً دينياً عظيماً أيضاً . والى أنها كانت أعظم من طيبة . وممفيس وأور ، وحتى أعظم من نينوى . بان يهود السبي الآتين من فلسطين وحتى من أورشليم المتغطرسة كانوا أناساً ضيقي الأفق محدودي التفكير . ولم يكونوا يعرفون سوى الطرق الضيقة والأزقة المظلمة .

ويشير كذلك الى ان يهود المنفى أخذوا بوصية جرميا التي بعثها من أورشليم الى كبارهم وأنبيائهم وحاخاميهم وقد نجحوا نجاحاً باهراً . ثم عاشوا عيشة مثمرة في ظل السلم الذي توخّوه . فقد كتب لهم جرميا (سفر جرميا) يوصيهم ببناء منازل والسكنى فيها . وزرع البساتين والحقول وأكل حاصلاتها حتى يتكاثروا ولا يقل عددهم . وطلب اليهم أن ينشدوا السلم في المدينة التي أُخذوا سبايا اليها . وبذلك كانت حالتهم أحسن من حالة أجدادهم الذين وجدوا في مصر على عهد النبي موسى . ولا تقارن بها .

ومن طريف ما يذكره المستر كيلر في هذا الشأن . مما عثر عليه المنقبون الأمريكان في نفّر . ان أسرةً يهودية من أسر السبي كانت قد أسست شركة خاصة لها وفتحت محلاً تجارياً مقره في نفّر وفروعه في كل مكان . وكانت هذه الشركة المسماة بشركة « موراشو وأولاده » تدير مصرفاً دولياً . وتتعاطى أعمال التأمين ونقل الملكية والقروض والمتاجرة بالأراضي الزراعية وغير الزراعية وما أشبه . حتى أصبحت ذات سمعة كبيرة وصيت ذائع . وقد استمرت في أعمالها خلال مدة تقاربماية وخمسين سنة . وبقيت الى أيام الفرس الذين

حكموا بابل بعد الكلدان . ويشبّه كيلر هذه الشركة بشركة « لويد » في يومنا هذا . فيدعوها « لويد بين النهرين » . ولقد اكتشفت وثائق هذه الشركة ومخابراتها محفوظة في جرار مسدودة بالاسفلت . ومما وجد فيها ان الذين كانوا لا يستطيعون الكتابة من عملائهم ومراجعيهم كانوا يوقعون على المستندات ببصمة أظافرهم . ويورد كيلر تفصيلات عدد من المعاملات التي قامت بها شركة موراشو هذه لاناس معينين بأسماء معروفة . كما يورد نصوص مقاولات موقع عليها ببصمة الأظافر ومؤرخة بتاريخ أيلول أو غيره .

ويفهم من كل هذا ان ضمانات الذين يسجنون عن الديون كانت تودع في مصرف هذه الشركة . التي كانت تخصص شعبة خاصة من دائرتها لكل شأن من شؤون الحياة . وان مقدار الفائدة كان عشرين بالماية . ويعقب كيلر على هذا بقوله ان شركة موراشو وأولاده يمكن ان تتخذ مثالاً للمهنة التي أصبحت منذ عهد السبي مقرونة بأبناء اسرائيل . فقد أصبحت بالنسبة لهم مهنة مفضلة وبقيت كذلك حتى يومنا هذا . وهي مهنة المتاجرة والبيع . وقد كانوا في موطنهم الأول فلاحين ومربي حيوانات وأصحاب أراض وباعة فقط . لأن قانون اسرائيل لم يخصص نصاً للتجارة التي كانت مهنة غريبة عنهم . ولذلك كانت تترك للكنعانيين وغيرهم . ويقول كيلر بعد ذلك ان انتقال اليهود الى المهنة التي كانت محرّمة عليهم حتى ذلك اليوم كان عملاً بارعاً للغاية . لأنه برهن بالنسبة لما عندهم من تعلق شديد بعقيدتهم القديمة على كونه أحسن ضمان لبقائهم كشعب من الشعوب بين أمم الارض . فهم كفلاحين وزراع لو استمروا على مهنتهم وانتشروا في الأرض لاختلطوا وتزاوجوا مع الأقوام والعروق الأخرى . ولأدى ذلك خلال أجيال معدودة الى امتصاصهم واختفائهم من الوجود . فقد تطلبت مهنتهم الجديدة هذه ان تكون بيوتهم في مجتمعات كبيرة يستطيعون في ضمنها ان يكتلوا أنفسهم في مجتمع خاص بهم ويمارسون طقوسهم الدينية المختصة بهم . وهذا يعني أنها كونت فيهم التماسك والبقاء على أنهم مهما أخلدوا الى السكينة والسلام في

المحيط الذي كانوا يوجدون فيه ، ومهما استفادوا من كل ذلك . فانهم لم يستطيعوا نسيان مدينة داود أورشليمهم المحبوبة .

العودة الى أورشليم

وحينمـــا تسنى لكورش ملك الفرس ان يقضي على الدولة الكلدانية في بابل سمح لليهود المقيمين فيها بالعودة الى أورشليم . وأصدر أمره الامبراطوري الذي كان مكتوباً بالآرامية يومذاك الى شيش بازار الحاكم في أورشليم بالاشراف على اعادتهم وتعمير أورشليم والهيكل فيها ، وأعطاهم ما أخذه نبوخذ نصر من المعبد من أواني الذهب والفضة ، فعادت جماعات منهم على دفعتين يبلغ عددهما معاً خمسين ألفاً . بينما تخلف أكثر المنفيين في « المنفى » . ويقول كيلر (الص ٢٩٩) انه من المفهوم في هذه الحالة بعد بقاء اليهود خمسين عاماً في المنفى ان لا يغتنم هذه الفرصة بالعودة الى موطن آبائهم . وعلى كل فقد كان من المجازفة للفرد منهم ان يغادر بلاد بابل الغنية التي استقر فيها . ونشأ معظمهم بين ظهرانيها . فيسلك طريق العودة الوعر ويعود الى خرائب البلاد التي ظل ينعق فيها البوم . وعلى الرغم من هذا غادرت بابل في ربيع سنة ٥٣٧ قبل الميلاد ، بعد استعداد طويل الأمد ، قافلة كبيرة نحو أرض « الوطن » . وليس من الصعب ان نتصور شكل هذه القافلة بحاخاميها ومغنيها وحماليها ، وبنسائها وأطفالها . وهم يسيرون وئيداً على ضفاف الفرات العظيم . ثم يتجهون الى الغرب فيمرون بدمشق ومنها الى أسفل جبل الشيخ والى بحيرة طبرية . وبعد ذلك حلّ اليوم الذي لاحظوا فيه من بين قمم اليهودية السمراء خرائب مدينة صهيون المقفرة وشاهدوها بأعينهم . فكانت أورشليم بعينها .

ويعتقد علماء الغرب وعدد كبير من مفكريهم « ان مستقبل العالم كان ينطوي في تلك القافلة التي ذهبت الى أورشليم » « فقد كان يتوقف عليها أمر كتابة التوراة والانجيل كما نعرفهما اليوم ـــ التوراة والانجيل والعقيدة اليهودية والنصرانية ، مع عدة قرون من الحضارة الأوربية . فلو لم تحصل العودة الى

أورشليم للقيت مملكة يهوذا على وجه التأكيد نفس المصير الذي آلت اليه مملكة اسرائيل قبلها . ولاختلاط أفرادها بأمم الشرق وانعدم وجودها بين الأمم » . ولا شك أنهم يقصدون بذلك ظهور السيد المسيح ونشوء النصرانية التي ظهرت بعد عودة اليهود من السبي كما لا يخفى .

وحالما عاد اليهود الى أورشليم بنيت أسس الهيكل الجديد في غمرة من الحماسة المتصاعدة على حد ما يقول كيلر . لكن العمل سرعان ما أخذ بالتباطؤ . وفترت الحماسة العظيمة التي ظهرت في بادىء الأمر ، لأن الحياة كانت شاقة جافة في تلك البلاد التي فرغت من سكانها حيث كانت البيوت المتهدمة عاجزة عن تقديم أقل نسبة من الأيواء والحماية للناس . وكان هناك علاوة على هذا مشكلة الحصول على القوت والمعيشة ، حتى أصبح الكل أعجز من ان يهتم بغير مشكلاته الخاصة . ومع هذا فقد تقدم التعمير ببطء . وكان أول المستوطنين فقراء معدمين كما يبدو من المكتشفات الآثارية .

وليس من الغريب ان يعمد كيلر في كتابه هذا الى عدم ذكر المقاومة التي قوبل بها اليهود العائدون من سكان البلاد الأصليين . وهو الذي يبدو تحيزه واضحاً لليهود في ثنايا الكتاب . إذ يقول[1] الأستاذ دروزة انهم حينما أخذوا يستعدون لتعمير المدينة والمعبد بعد وصولهم تصدت لهم شعوب الأرض في شرق الأردن وغربه وأرسلوا العرائض ضدهم الى ملك الفرس الذي خلف كورش يحذرونه منهم . ويذكرون له ما كان من سيرة آبائهم . حيث يبدو من هذا استمرار كراهية وحقد أهل البلاد لهم نتيجة لما كان من سيرتهم معهم . وقد نجحوا في حملتهم فصدرت الأوامر بمنعهم وظل المنع مستمراً ردحاً من الزمن غير قصير الى أن أذن لهم دارا الثاني بالبناء . ولقد برز من بين المنفيين زعيم اسمه نحميا عينه الفرس والياً على اليهودية فجاء وأخذ ينشط

---

(١) محمد عزت دروزة – تاريخ الجنس العربي ، ج ٤ ، الص ٢٣٤.

في سبيل انعاش قومه . وتحصين سور أورشليم . فتصدى له أهل شرق الأردن وفلسطين بقيادة زعماء ثلاثة هم : جاشم العربي . وسنبلط السامري ، وطوبيا العموني . وأخذوا يصاولونه ويزعجونه ويعرقلون نشاطه . واشترك معهم الآشوريون والفلسطينيون . ويؤيد هذا كله ما ورد في بعض أسفار التوراة .

ويذهب الى هذا كذلك الدكتور جواد علي[1] فيقول ان سفر نحميا يخبرنا بأن سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني وجاشم العربي قد احتقروا اليهود حينما حاولوا بناء سور القدس واغتاضوا من ذلك ، وان سنبلط وطوبيـا والعرب والعمونيين والاشدوديين غضبوا جداً وقرروا ان يحاربوا أورشليم ، وان سنبلط وجاشم خاصة حاولا إبطال بناء السور لانهما خافا من تمرد اليهود ومن عودة ملكهم .. وهذا مما يدل على ان العرب وحلفاءهم قد استعادوا نفوذهم في فلسطين وأنهم كانوا على أبواب القدس . ويظهر من هذا السفر ايضاً ان عدداً قليلاً من العبرانيين أرادوا الرجوع بعد السبي إلى أورشليم على الرغم من سماح الفرس لهم بالعودة والحاح الأنبياء عليهم في طلب الرجوع .

ثم يتابع كيلر سرد الحوادث في هذا الشأن فيقول ان إعادة تشييد الهيكل في أورشليم لم يؤخذ بصورة جدية أخيراً الا في عهد دارا خليفة كورش . أي بعد أن مرّ عشرون عاماً على المباشرة بوضع الأسس له . وكان على اليهود بعد ذلك ان ينتظروا الى حلول القرن التالي ليبدأوا فيه بتشييد سور المدينة من جديد . وقد تم ذلك على عهد نحميا الذي عينه الفرس حاكماً مستغلاً على اليهودية ، أي في سنة ٤٤٤ قبل الميلاد .

في حكم اليونانيين

لقد انتقل مركز القوى في القرن الرابع قبل الميلاد من « الهلال الخصيب » الى الغرب بالتدريج . وعندما استطاع الاسكندر الكبير دحر دارا الثالث سنة

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ، الص ٣٦٢ .

٣٣٣ ق.م بالقرب من الاسكندرونة تمهدت له الأمور فاستولى على الشرق كله

اما بالنسبة للقدس وفلسطين فان يوسفوس[١] المؤرخ اليهودي يورد رواية غير موجودة في التوراة مفادها ان الاسكندر بعد ان استولى على حصن غزة المنيع جاء الى القدس ، فاستقبله الناس فيها والحبر اليهودي الاعظم جدوع استقبالاً حافلاً .وزار الهيكل فقدم القرابين فيه ، ثم أنعم على الناس بانعامات غير قليلة . غير ان كيلر يستبعد صحة هذا الخبر لأن التنقيبات الأثرية لا تؤيد ذلك ، ولأن الاسكندر لم يكن لديه الوقت الكافي لزيارة القدس بعد أن تأخر حوالي تسعة أشهر في محاصرة صور وغزة . وعلى كلٍ فالظاهر ان القدس اليهودية كلها قد خضعت للحكام الجدد . وليس هناك ما يدل على حصول مقاومة أو تمنع في هذا الشأن .

وحينما قضى الاسكندر نحبه في بابل بالبرداء (الملاريا) . وتقاسم قواده الملك بينهم ، كانت القدس وما حولها من بلاد اليهودية من حصة البطالسة في مصر بادىء ذي بدءٍ واستمر ذلك مدةً تناهز المابة سنة وقد زاد خلال هذه المدة النفوذ اليوناني الهلينستي بين اليهود حتى انتقل قسمٌ كبير منهم الى الاسكندرية ، وترجم التوراة الى اليونانية . وفي سنة ١٩٥ ق.م استولى انطيخوس الثالث على فلسطين ومملكة يهوذا كلها . فأصبحتا خاضعتين للسلوقيين تمام الخضوع . وقد حاول السلوقيون إكراه اليهود على التخلي عن تقاليدهم وطقوسهم الدينية ، ونجحوا في ذلك الى حد غير يسير لأن الكثيرين من يهود القدس ومنهم رؤساء الحاخامين ما لأوا السلطة وأخذوا يفعلون ما تريد . ثم تخلق الكثير منهم ، ولا سيما الشبان ، بأخلاق اليونان وأخذوا يظهرون في الألعاب الاولمبية وهم عراة في كل مكان وعلى الأخص في الملعب الذي أقامه جيش الحبر الأعظم اليهودي في قلب القدس ، أي في الوادي الذي يحاذي الهيكل ويقع قريباً منه .

(١) Flavius Josephus

ثم جاء أنطيخوس الرابع ، المسمى أبيفانوس ، فنهب هيكل القدس وانتهك قدسيته في سنة ١٦٨ ق.م ، حيث كان من عادته انتهاك قدسية المعابد في كل مكان . ولم يكتف بما حصل عليه في الهيكل من نفائس ، بل كلف بالاضافة الى ذلك جابي ضرائبه أبولونيوس بالتوجه الى القدس مع قوة من الجيش . فعمد هذا الى نهب المدينة واضرام النار فيها ، ثم هدم البيوت والجدران في كل مكان ، وأخذ النساء والأطفال أسرى ، كما استولى على المواشي وسائر الحيوانات .

وكان ما أصاب اليهود في القدس على أيدي السلوقيين أشد مما أصابهم حتى في عهد الآشوريين والبابليين . فقد ادخلت عبادة زيوس إله الأوليمپ في هيكل يهوه ، وعوقب بالموت كل من كان ينفذ تعاليم اليهودية مثل تقديم الضحايا والقرابين ، ومراعاة السبت ، والختان ، وتحريم لحم الخنزير ، وما أشبه . ويقول كيلر (الص ٣١٦) ان هذا كان أول اضطهاد ديني منظم حصل في التاريخ .

وبتأثير هذا الضغط والقسوة حدثت ثورة في البلاد بقيادة الحاخام ماتاثياس وأولاده الخمسة . وقد بدأت في قريتهم الصغيرة مودين التي تسمى اليوم المدية ، وتقع على بعد عشرين ميلاً من القدس . وهذه ما اطلق عليها بثورة المكابيين . وتمكن يهوذا مكابيوس بن ماتاثيوس الذي قاد الثورة بعد أبيه من تحرير القدس في ١٦٤ ق.م وإعادة العبادة في الهيكل الى ما كانت عليه في السابق . ثم أعيد بناء المذبح وقُدمت القرابين الى يهوه . ومع ان الثورة التي امتدت الى مختلف الأنحاء لم تستطع الصمود في وجه القوة التي جردت عليها بكل ما تحتويه من خيالة وفيلة ، مع اختلاف اليهود بين أنفسهم وخيانة الكثيرين منهم ، فقد كانت نتيجتها اعتراف انطيخوس الرابع بحرية اليهود الدينية وبطبقة رجال الدين في القدس سنة ١٦٧ ق.م . لكن المكابيين أخذوا بعد ذلك يطالبون ويثورون من أجل الحصول على الحرية السياسية كذلك ،

كما حصل في أيام يوناثان وشمعون أولاد يهوذا المكابي . حتى انتهى الأمر بالحصول على الحرية السياسية ايضاً في . ١٤ ق.م على عهد شمعون .

لكن السلوقيين ضعفوا بمرور الزمن ؛ ولم يعد بامكانهم اخضاع المكابيين لمشيئتهم . وعند ذاك تعالى شأن الرومان في روما واستطاعوا التحرر من ربقة التسلط القرطاجي (الفينيقي) الذي كان يفرضه حني بعل (هانيبال) عليهم . ثم انتزعوا السلطة من السلوقيين وغيرهم . وزحف القائد الروماني بومبي مخترقاً المملكة السلوقية الى فلسطين . وبعد ان حوصرت القدس ثلاثة أشهر دخلتها الفيالق الرومانية سنة ٦٣ ق.م وأصبحت اليهودية مقاطعة رومانية . وبهذا ينتهي استقلال اليهود السياسي الذي لم يعمر طويلاً .

المكابيون وظهور السيد المسيح

وقد حكمت في القدس اسرتان من المكابيين . أولاهما تعرف بأسرة حشمتاي وكان منها عشرة ملوك من ضمنهم ماتاثيا وأولاده الخمسة قادة الثورة . وأسرة هيرود التي كان من خطتها مسايرة اليونان والرومان المسيطرين والتعاون معهم في حكم البلاد . وكان هيرود هذا رجلاً من أصـــل ايدومي — غير عبري — يدين باليهودية ؛ وقد عينه الرومان للملكية فحكم اليهود بقسوة وفضاضة على ما تشير اليه نصوص التوراة وغيرها . وفي عهده ولد السيد المسيح في بيت لحم على ما تقول التوراة . وظهرت نجمة بيت لحم في كبد السماء فكانت اشارة تنبيء بمجيء حكماء المجوس من الشرق الى القدس للتفتيش عنه والأيمان به .

ويذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس ان شائعةً سرت بين الناس في تلك الأثناء بان الله سبحانه وتعالى قد قرر انهاء حكم الرومان الأجانب . وأن اشارةً سماوية قد أنذرت الناس بظهور ملك يهودي جديد . فجفل هيرود لهذا الخبر . وبادر في الحال الى جمع رجال الدين وكتّاب الناس جميعهم ،

وطلب اليهم ان يعلموه حينما يولد المسيح ويدلوه على المكان الذي يولد فيه ثم دعا حكماء الشرق وبعثهم الى بيت لحم الكائنة على بعد خمس كيلومترات عن القدس ، للتفتيش عنه وهناك أيدت الاشارات السماوية ولادته لهم .

وفي أيام هيرود كذلك زارت كيلوپاطرة ملكة البطالسة في مصر القدس عدة مرات ، وحاولت ان تستميله الى جانبها لانها كانت تخطط سرياً لاعادة سطوة آبائها القديمة على هذه البلاد . فلم تفلح في ذلك ، وأخذت تحرك عليه لدى عشيقها انطونيوس الروماني ، ولولا لباقة هيرود ومرونته لأدى التحريك الى قطع رأسه . فقد استطاع إقناع انطونيوس بالهدايا الثمينة لكنه أجبر على التنازل عن الساحل الفلسطيني ومدنه كلها ، فأهداه أنطونيوس الى عشيقته لتلطيف خاطرها . وقد أخذت بالاضافة الى ذلك مدينة أريحا وما يحيط بها من مزارع وبساتين عامرة تحتوي على الكثير من النباتات العطرية ، التي يقال ان ملكة سبأ كانت قد أهدتها الى سليمان الحكيم ، ومنها نبات البلسم الذي أخذت كيلوباطرة عُقلاً منه الى مصر فزرعتها في منطقة المطرية .

وقد مات هيرود في سنة ٤ ق.م في السبعين من عمره ، بعد ان حكم ستاً وثلاثين سنة قضاها في اضطهاد شعبه وسكان بلاده على ما يزعمون . ويقول يوسفوس ان اليهود عانوا من ظلم هيرود وتعسفه خلال سنوات معدودة ما لم يعان مثله آباؤهم خلال المدة الطويلة التي مرت على عودتهم من بابل في عهد كورش وقد قُضي بهذه الوسيلة على كثير من أسر القدس العريقة وأُزيلت من الوجود . وكان آخر ما فعله قبل موته انه قتل ابنه أنتي باتر ، ثم مات بعد خمسة أيام ، بعد ان رشح ثلاثة من أولاده الصغار وهو على فراش الموت ليخلفوه في الحكم . وأول من خلفه ابنه أرخلاوس ، فقد بايعه على الملك في القدس أفراد أسرته وجنوده المرتزقة المتكونة من الألمان والغال والمكدونيين .

وبدلاً من ان يحزن اليهود لموت هيرود صاروا يطالبون بتخليد ضحاياه ، الذين ذهبوا قرابين لتعسفه وأطماعه . غير ان ابنه الملك الجديد رد عليهم بسوق الجيوش على القدس نفسها . وجرت في اعقاب ذلك مذبحة رهيبة فيها قتل في اثنائها ثلاثة آلاف شخص في يوم واحد . بحيث ملأت جثثهم قاعات الهيكل وأبهائه . وبذلك برهن على ان « الولد على سر أبيه » .وقد صادف ان ذهب الملك أرخلاوس واخوه هيرود انتيپاس الى روما للحصول على تأييد الامبراطورية لحكم أرخلاوس . فانتهز الشعب المتذمر غيابهما واتسع نطاق الاضطرابات والقلاقل في القدس وما حولها بحيث اضطر الرومان الى سوق فيلق خاص اليها لتهدئة الحالة .

ثم حصلت ثورة اخرى تجاوز فيها اليهود على جنود الرومان . فبادر الجند الى أضرام النار في الهيكل . ثم هاجموا الناس في داخله ونهبوا جميع ما وصلت اليه ايديهم هناك . وانتشرت الثورة من القدس الى سائر انحاء المملكة اليهودية كما تنتشر النار في الهشيم . فنهبت القصور الملكية في كل مكان وأضرمت النيران فيها . ثم خف حاكم سورية الروماني الى القدس مع جيش قوي تعزز بوصول نجدات اليه من بيروت وبلاد العرب . وما وصلت أرتال الجيش الى مشارف القدس حتى فرّ الثوار اليهود . فتعقبهم الجيش وألقى القبض على عدد كبير منهم . وعند ذاك شنق حوالي الفي شخص[١] .

وقد صادف في هذه الفترة العصيبة أن مر يوسف النجار في طريق عودته من مصر الى فلسطين . وسمع بحكم أرخلاوس في مكان أبيه فلم يمكث في القدس بل توجه الى الناصرة . وهناك قضى السيد المسيح طفولته وصباه . حتى بُعث مبشراً وهادياً للناس .

ويقول الاستاذ دروزه[٢] : وفي هذه الفترة . وبالتحديد في عهد

---

(١) كيلر ، الص ٣٤٢ .

(٢) تاريخ الجنس العربي ، ج ٤ ، الص ٢٣٧ – ٢٣٩ .

أوغسطوس قيصر . وفي أواخر عهد هيرودس الثاني ظهر من بني اسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام داعياً الى الله وحده ، ربه ورب السماوات والأرض . والى الصلاح والاصلاح ، مبشراً بالرحمة والرفق والسلام ناعياً على اليهود وزعماء دينهم ما ارتكسوا فيه من انحرافات وآثام دينية وخلقية .. وقد كان من طبيعة الدعوة التي دعا اليها ان غدت الديانة المسيحية ديانةً انسانية عامة انضوت تحت لوائها أمم مختلفة .. وقد تألب رؤساء اليهود على السيد المسيح بسبب دعوته الاصلاحية لأنه كان يشدد الحملات والنكير عليهم . وحرضوا الجمهور عليه ، ثم شكوه الى الحاكم الروماني بلاطوس البنطي وطالبوا بشنقه . وتذكر الأناجيل المعروفة ان الحاكم استجاب لهم ونفذ طلبهم . لكننا نقول تعليقاً على هذا ان القرآن الكريم يقرر أن الله أنزل الانجيل على عيسى وإنّ شنق عيسى لم يتم بلا شبّه لهم ، وان رواية شنقه قائمة على الظن دون اليقين ، وان هناك اختلافات كثيرة في شأن عيسى بين النصارى أنفسهم .

صلب السيد المسيح

ذهب السيد المسيح في رحلته الأخيرة من الجليل الى البلد المقدس ، وقد سلك الطريق الذي كان ابراهيم الخليل قد سلكه مع أسرته من قبل ماراً من بين الجبال التي تخترق منطقة السامرة . فمنعه السامريون من المرور في بلادهم واضطر الى ان ينحرف عنها ويحاذي الحدود الأردنية في سيره ، ثم يعبر الأردن الى اريحا . ومن ثم قصد القدس . وقد استغرقت رحلته كلها ثلاثة أيام بلياليها ، لأنه كان يقطعها مشياً على الأقدام مع بعض حوارييه .

فبانت له القدس قبل انتهاء الطريق من وراء قمة جبل الزيتون وكأن يداً سحرية قد استحضرتها من بين الجبال . وهنا يورد كيلر (الص ٣٤٩) وصفاً للمدينة المقدسة من بعيد كما كانت تبين للرائي يومذاك ، نقلاً عن المؤلف غارستنغ[1] في كتابه عن أريحا :

(١) Garstang, J.B.E. — The Story of Jericho (1940)

.. فقد كانت ترتفع أسوارها العظيمة الى علو مئتين وخمسين قدماً عن الوادي . وكانت تعلو من وراء شرفاتها المنفرجة خطوط أبنيتها الكبيرة المارة بالبقعة التي تنحصر فيها البيوت والشوارع والأزقة الضيقة . ويقع في مقابل جبل الزيتون مباشرةً الهيكل الذي يشغل مقدمة المنظر ، فيحجب بلمعانه وروعته جميع الأبنية الأخرى . وتتجه واجهته ، التي ترتفع الى مائة وخمسين قدماً وتمتد في عرضها بالمقدار نفسه ، نحو الشرق فتتألف بكليتها من الرخام الخفيف . وكانت زخارفه وتزييناته كلها بالذهب الخالص ، كما كانت الأساطين تطوق أبهاءه الوسيعة ودهاليزه المتفرعة . على ان ما كان يتوّج جلال المنظر وبداعته المعبد الذي يقوم في الوسط ، ويتلألأ كما يتلألأ الجبل الذي تكسو قممه الثلوج ، على ما يعبر به المؤرخ اليهودي يوسفوس .

وفي الجهة الشمالية الغربية من سور المعبد كان يرتفع مباشرةً « برج أنطونيا » موكّراً فوق مرتفع صخري القوام . ويبلغ ارتفاع كل بريج من بريجات زواياه الكبيرة حوالي مائة وعشرين قدماً . وتوصل بين الجهة الجنوبية لمنطقة المعبد وقصر الأسرة الحسمونية المالكة في المدينة العليا قنطرة متينة خاصة . وفي أعلى نقطة في المدينة كان يقوم قصر هيرود بالقرب من السور الغربي ، وتعلوه بالشاكلة نفسها ابراج ثلاثة يبلغ ارتفاعها ١٣٠ و ١٠٠ و ٨٠ قدماً . وقد أطلق عليها هيرود الأسماء الآتية : هيبيكوس ، وفاسيل ، وماريامن . ويمتد من هذه النقطة سور سميك فيخترق بحر البيوت المنتشر حتى يصل الى منطقة الهيكل ، فيقسم بذلك قلب المدينة مرةً أخرى الى قسمين كبيرين .

ويكتنف المدينة ، على ما يقول كيلر جوٌ قهّار يم عنه تعدد التحصينات وكثرة الأسوار والأبراج التي تحيط بالهيكل . فحينما ينظر الناظر الى القدس بهذه الحالة يكاد يتنفس عنادها وصلابتها أو عدم مرونتها . وقد كانت هذه المزايا نفسها هي المسؤولة عما حل بالقدس من دمار بعد ذلك ، وطرد اسرائيل من أرض الآباء (كذا) .

ولا بد من ان ... لحه هاجس داخلي بمستقبل القدس ... ومصيرها حينما ... طر ونقّل ناظريه في أنحائها ... كما يذكر إنجيل ...

اما ما ذكر في ... عن محاكمة السيد المسيح في القدس : والحكم عليه بالصلب . وتنفيذ ... الحكم . فقد تم التأكد منه بدقة علمية بذلها عدد من الباحثين فوجدوا أنها ... موثوقة بكل ما فيها من تفصيل .

إذ تبدأ المأساة التي لا ... التكشف منذ أول توقيف المسيح . فقد كان عليه السلام قد جمع حواريه ... في حديقة الجثمانية فوق جبل الزيتون وما أن بدأ بحديثه معهم حتى فاجأهم جمع كبير من اليهود بالسيوف والعصي يتقدمهم يهوذا ، أحد حوارييه . وكان هؤلاء قد بعثهم اليه حبر اليهود الأعظم والحاخامون . فأوقفوه وأتوا به الى المجلس الديني الأعلى لليهود . أو السانهدرين الذي كانت بيده يومذاك السلطة اليهودية العليا والذي تجتمع فيه السلطتان الدينية والدنيوية . وكان هذا المجلس كذلك يتولى أعمال المحكمة العليا لليهود . ويجتمع تحت المعبد فيما يقرب من الجسر المؤدي الى القسم الأعلى من القدس .

اما الأسباب التي استند اليها المجلس اليهودي في الحكم على السيد المسيح بالصلب فيلخصها كيلر بالنقاط الآتية نقلاً عن الأستاذ الالماني مارتن نوت (١) :

اجتماع الحواريين بمريم والقديسات من النساء وفجأة عصفت ريح من السماء وامتلأت الدار على ما جاء في الانجيل .



---

(١) Noth, M — Die Welt des Alten Testaments (1953), Geschichte Israels (1954)

« .. ان انتظار أنبياء اليهود القدماء الذي كان يتركز في ظهور مسيح ملك في المستقبل قد تطور خلال مدة التسلط الأجنبي الطويلة ، وانقلب الى أملٍ في ظهور محرر سياسي يحرر اليهود من الأجانب . وكان كلما يزداد التذمر من حكومة البلاد الرومانية تزداد وضوحاً في مخيّلة ! . د فكرة ظهور مسيح فاتح يتولى القضاء على السلطة الأجنبية الممقوتة . واذ وع الناصري بهذه المقاييس لا يمكن أن يكون هو ذلك المسيح المنتظر .. وإذ لم يكن كذلك فانه لا بد من أن يكون دعيّاً ومسيحاً مزيفاً . ولما ثبت كونه دعياً ومسيحاً مزيفاً فان مصلحة السلم والحياة الدينية في أورشليم لا بد من ان تتطلب التخلص منه . كما ان ادعاء يسوع في أثناء المحاكمة بانه المسيح ، وانه ابن الله بالنسبة للأسس التي جاء بها العهد القديم ، كان يكفي للحكم باعدامه بتهمة الكفر الصريح ».

وقد كان القانون يومذاك يقتضي مصادقة الوكيل الروماني . بيلاطوس البنطي[1] ، على هذا الحكم قبل تنفيذه . وكان بيلاطوس هذا مكروهاً جد الكراهية من اليهود ، لكنه كان يدرك كذلك ان يسوعاً المتهم كان موضع حقد اليهود وكرههم له ، ولذلك رفض المصادقة على القرار من دون تردد وقال لحبر اليهود الأعظم انه لم يقتنع بالذنب المنسوب الى يسوع . لكن الغوغاء التي تجمهرت حول قصر الوكيل بتحريضٍ من أحبار اليهود ورجالهم أصرت على طلبها في إعدام المسيح ، فاضطر الى المصادقة . ثم أخذ بيده وسلمه اليهم ليصلبوه .

وكان المكان الذي وقع فيه هذا كله الساحة « المبلطة » في محكمة بيلاطوس والمعروف ان هذه الساحة بقيت سالمة حتى بعد أن دُمرت القدس في سنة سبعين بعد الميلاد . وقد اكتشفها المنقبون في السنوات الحديثة بعد كثير من التنقيب والبحث ففي ساحة برج أنطونيا المعروف وجدت بقعة كبيرة مبلطة تبلغ حوالي ٣٠٠٠ ياردة مربعة في مساحتها ، مبنية على الطراز الروماني في عهد السيد

(١) Pontius Pilate

المسيح . فكانت هـذه البقعة هي التي وقف فيها بين يدي بيلاطوس بينما كانت الغوغاء يعلو صراخها في الخارج . وفي هذه البقعة كذلك عُذب المسيح وجُلد قبل صلبه ، كما كانت العادة المتبعة يومذاك. ثم أخذه الجنود الرومانيون ليقوموا بصلبه . وقبل ان يفعلوا ذلك أخذوه فألبسوه الأرجوان ووضعوا فوق رأسه تاجاً من الشوك ليسخروا به. وهكذا أُخذ الى التل الذي صُلب فيه (جبل الجلجلة[1]) . وقدموا له قبيل الصلب شيئاً من الخمر المخلوط بالمر للتخفيف من عذابه ، لكنه امتنع عن شربه وتحمل آلام مسمرة جسمه في الصليب[2] . فقضي الأمر .

ولا يكاد يبعد هذا عن الموقع الذي جلس فيه بيلاطوس للمحاكمة بأكثر من ألف ، خطوة ، على طول « طريق الالام »[3] المنتهي بكنيسة القبر المقدس . وفي سنة ٣٢٦ ميلادية أقام الامبراطور قسطنطين نصباً بديعاً فوق قبر السيد المسيح ، الذي كان قد اكتُشف حديثاً يومذاك . وكان يتألف من أعمدة مزينة تزييناً غير قليل ، يعلوها سقف من العارضات المطلية بالذهب .. وفي داخل مصلى الكنيسة اليوم هناك عدد من الدرجات المتآكلة تؤدي الى سرداب فيه قبر طوله ستة أقدام منحوت من الصخر . فهل هذا هو مدفن السيد المسيح ؟

يقول المستر كيلر (الص ٣٥٦) ان ما يزيد على ألف قبر قد اكتشف في فلسطين تعود الى ذلك العهد ، لكنها كلها كانت في مقابر أو سرادب

---

(١) Monticulus Golgatha

(٢) كيلر الص ٣٥٦ .

(٣) Via Dolorasa

تعود للأسر . اما هذا القبر فهو لوحده . ويفهم من أحاديث الانجيل ان المسيح كان أول من دفن في قبر كبير . فقد تسلمه يوسف النجار ولفه بقطعة نظيفة من نسيج الكتان ووضعه في قبره الجديد الخاص الذي كان قد نحته في الصخر ، ثم دحرج حجراً كبيراً سدّ به الضريح وغادر المكان .

ويذكر في مكان آخر من الكتاب (الص ٣٦٧) ان بطرس كان أول رسول بعد وفاة السيد المسيح بشّر بين الوثنيين وهداهم الى النصرانية ، كما كان رئيس أول طائفة مسيحية في القدس واليهودية ، ثم وسع مجال عمله بعد ذلك الى خارج فلسطين .

تدمير القدس على أيدي الرومان
سنة ٦٦ ـ ٧٠

يفهم مما جاء في انجيل لوقا ان السيد المسيح تنبأ بتدمير القدس وقتل الكثيرين من أبنائها ، وأخذ عدد آخر منهم أسرى الى بلاد أخرى ، ودخول غير اليهود اليها دخول المنتصر . وقد أنذر بني اسرائيل بذلك حينما طغوا وتجبروا وهزءوا برسالته السماوية التي جاءت تبشر بالسلام والمحبة على طول الأجيال .

فصح ما تنبأ به عيسى بن مريم وحل الدمار بالقدس بعد مجزرة رهيبة استقامت خمس سنين ، فأدت الى محوها من الوجود واختفاء اسم اليهود منها عبر القرون ولما يمض على صلب المسيح جيل واحد .

فقد تعالى صوت اليهود يوماً بعد يوم وكثرت احتجاجاتهم على الرومان وتصرفهم في أورشليم على ما يقول كيلر (الص ٣٧٥) . وراح « الزيلوت » المتعصبون من اليهود يؤلفون عصابات ثائرة في البلاد . ويطالبون بازالة الحكم الأجنبي عنها . وكان كلّ منهم يحمل خنجراً أو مدية ويخفيه بين طيات ثيابه على الدوام ، ثم ازداد عدد هؤلاء وانضم الناس اليهم في كل مكان حينما كانت تصرفات الوكيل الروماني تزيد في الطين بلة ، وتؤدي الى ازدياد التوتر .

وانقلب هذا الغضب المتزايد الى ثورة علنية في مايس سنة ٦٦ للميلاد . حينما طالب فلورس الوكيل الروماني اليهود بتسليم سبعة عشر قنطاراً من خزانة الهيكل في القدس . وعند ذلك تسلم الثوار المدينة وصارت في قبضة أيديهم . فقد كان الامتناع عن التضحية اليومية للامبراطور يعني اعلاناً صريحاً للحرب ضد الامبراطورية الرومانية . وألقت القدس بقيودها على أقدام روما فتحدت بذلك الامبراطورية العظيمة .

وسرت نيران الثورة في كل مكان بعد ذلك ، فخرج الزمام من يدي

فلورس ولم يعد هو المسيطر في البلاد . وحينئذٍ زحف سيستوس غالوس حاكم سورية على القدس لينقذ الموقف بفيلق واحد ، وعدد كبير من القوات المساعدة ؛ لكنه اضطر الى النكوص بخسائر فادحة . واستولى الثوار على البلاد

وإذ كان اليهود على ثقة بان روما سترد على هذا التحدي بكل بطشٍ وجبروت . خفّوا الى تحصين المدن واصلاح مواقع دفاعها . فرمّموا الأسوار القديمة وعيّنوا القادة العسكريين . وقد تعين يوسفوس ، المؤرخ اليهودي القديم ، قائداً عاماً في منطقة الجليل . اما بالنسبة للرومان ، فقد عهد الامبراطور نيرون بالقيادة الى الجنرال فسبا سيانوس[1] ، الذي كان قد برهن على كونه جندياً لامعاً ، وأظهر كفايةً ممتازة ، عند احتلال الرومان لبريطانية .

فزحف ، يصحبه ابنه تايتوس ، على رأس ثلاثة من أحسن فيالق الجيشِ الروماني وعدد من القوات المساعدة ، وهاجم منطقة الجليل في الشمال . وقد شهدت القرى الصغيرة المطلة على بحيرة طبرية ـ التي كان المسيح يعظ صيادي السمك فيها قبل سنوات قليلة ، أول مجزرة دموية في هذه الحروب . وأُخضعت منطقة الجليل بكاملها في تشرين الأول سنة ٦٧ للميلاد . وسار بين جموع الأسرى في النتيجة يوسفوس القائد العام نفسه ، فقد قُيد بالسلاسل وحمل الى المقر العام بأمرٍ من فسياسيان . وأصبح ستة آلاف أسير من بعده عبيداً يعملون في قناة الكورنيث في روما .

ثم استؤنف قمع الثورة في الربيع التالي ، لكن أخباراً وصلت في أثناء المعركة تفيد بانتحار نيرون فتوقفت الأعمال العسكرية مدة من الزمن . وبعد تطورات كثيرة وكفاح مرير حصل في روما نودي بفسياسيان قائد فلسطين نفسه امبراطوراً على رأس الامبراطورية الرومانية ، وغادر البلاد بعد أن عهد الى ابنه تايتوس بانهاء المهمة . فظهر على أبواب القدس يقود

(١) Titus Flavius Vespasianus

جيشاً لجباً في ربيع سنة سبعين ، وكان هذا الجيش يتألف من الفيلق الخامس والعاشر والثاني عشر والخامس عشر ، مصحوبةً بالخيالة والمهندسين وسائر القوات المساعدة ، بحيث بلغ مجموع الجيش الكلي ثمانين ألف محارب

وكانت المدينة المقدسة تعج بالناس ، لان الحجاج كانوا قد قدموا اليها من قريبٍ أو بعيد للاحتفال بعيد الفصح اليهودي . وقد حصل نزاع بين الزيلوت المتطرفين وبين المعتدلين من اليهود خلال المراسيم فبقي القتلى والجرحى في مكانهم من دون أن يخف اليهم أحد . وكان الرومان في الوقت نفسه يتوزعون على المعسكرات القريبة من المدينة . ثم قوبل نداء الجيش بالاستسلام بالهزء الصاخب ، ورد عليهم تايتوس بالهجوم . فراح المشاة الرومان وأدوات الحصار السريعة الرمي وقاذفات الحجارة يعملون عملهم في وقتٍ واحد . وكان كل واحد من المجانيق يمكن ان يرمي أحجاره الى بعد ستماية قدم . ولم تخمد الحرب الأهلية بين اليهود في الداخل الا حينما أخذت الأحجار والقذائف تمطر المدينة بوابلٍ متواصل منها . فاصطلح الطرفان المتناحران واتفقا على ان يتولى شمعون باركيورا زعيم المعتدلين الدفاع عن الجهة الشمالية ، وان يعهد الى يوحنان الكيشالي قائد الزيلوت المتطرفين بالدفاع عن منطقة الهيكل وبرج انطونيا .

وقد استطاعت في بداية أيار آلات الحصار وأجهزته ، بعد قصفٍ متواصل استدام اسبوعين ، ان تحدث ثغرةً كبيرة في السور الكائن في أقصى الشمال . وفي خلال خمسة أيام أخرى اخترق الرومان السور الثاني . وبعد أخذٍ ورد دام عدة أيام سيطر الرومـان على الضاحية الشمالية وثبتوا أقدامهم فيها .

وكان تايتوس في تلك المرحلة قد اقتنع بأنه اذا أوقف القتال واستعرض الجيش في داخل السور على مرأى من الناس فانهم سيبادرون الى الاستسلام فأمر بذلك ودخل الجيش يستعرض ويدق طبوله من الصباح الباكر حتى المساء خلال أربعة أيام متوالية ، فلم يحدث التأثير المطلوب . ثم حاول محاولة أخيرة لاقناعهم ، فندب اليهم أسيره يوسفوس المؤرخ اليهودي ليناشدهم بالخضوع .

وذهب اليهم وراح يخاطبهم بلهجة تدمي الفؤاد ويذكرهم بماضيهم وتاريخهم وبآبائهم وأجدادهم ، وبرسالة اسرائيل ، فلم يعبأوا به . ثم أخذ يحذرهم وينبههم الى المصير المظلم الذي ينتظرهم ، والخراب الذي سيحل بالمدينة والهيكل فذهبت توسلاته ادراج الرياح .

ولذلك بدأت الحرب ثانيةً من السور الثاني ، وكان الهدف برج انطونيا . واندفعت مقدمة الجيش من خلال شوارع الضاحية الى منطقة الهيكل والجهة العليا من المدينة . واستمرت المقاومة خلال الوقت كله . وكان الرومان اذا ما جنّ الليل يلاحظون أشباحاً هزيلة تحيط بهم من كل الجهات ، وكانت هذه الأشباح تتسلل من الداخل ناجيةً بنفسها من جحيم الحصار وجوعه في داخل المدينة . وقد رأى تايتوس ان ينتقم من هؤلاء تأديباً للذين يقاومون في الداخل ، فأمر بان يصلب على الأعواد كل هارب أو ملتجىء أو طالب طعام أو علف . وتنفيذاً لذلك الأمر كان الجنود المرتزقة يصلبون خمسماية شخص يومياً على صلبان تنصب خارج المدينة ، وسرعان ما تكونت غابة كبيرة تمتد الى سفح التلول ، واستمر هذا العمل حتى توقف بتعذر الحصول على الخشب المطلوب للصلبان . فقد قطعت الأشجار كلها لهذا الغرض ولأغراض الحصار الأخرى ، وأصبح ما يحيط بالمدينة قاعاً صفصفاً ، وحتى جبل الزيتون لم يعد يتكون فيه الظل المألوف . وفسد الهواء بروائح الجثث المنتنة التي كانت ترمى الى الخارج وتتكدس بقرب الأسوار بالآلاف ، وهي جثث المائتين من الجوع والساقطين صرعى في الحروب وغيرهم .

ولأجل تشديد الحصار والنكير على المدينة ومن فيها أمر بأن تحاط كلها بسدود عالية من التراب ، فتم ذلك وطُوقت القدس من جميع الجهات بعد ان اشتغل فيها أفراد الجيش في الليل والنهار ، وتم كذلك انشاء ثلاثة عشر استحكاماً وعدد من النقاط الحصينة الأخرى . وبهذا انقطع حتى تهريب بعض القوت والطعام والنجدات الى داخل المدينة . فخيّم شبح المجاعة على القدس التي كانت ملأى الى حد الطفوح بالحجاج ، وأخذ الموت يحصدهم

حصداً مخيفاً ، وقد أدى الجوع بالناس الى ارتكاب كل ما تعافه النفس وتأباه الانسانية من أجل الحصول على القوت .

وقد استمرت المجانيق على قصف القدس بأثقالها ليل نهار ، وسئم تاتيوس من هذا الكابوس المخيف فأراد ان ينهيه بأسرع ما يمكن . وفي غرة تموز هاجم جنوده برج أنطونيا فنسف القصر الذي كـــان يسوع الناصري قد حوكم فوق ساحته المبلطة وحكم بالموت قبل سنين ، من أساسه . وكانت جدرانه تتاخم سور الهيكل الشمالي . ثم جاء دور الهيكل الحصين بكل ما فيه من بهاء وأورقة ودرابزينات . وذاكر القائد العام ضباطه في هذا الخصوص ، وكان كثير منهم يريدون اعتباره حصناً من الحصون فيشنون عليه الهجوم بكل الوسائل . لكـــن تاتيوس عارضهـــم في هـــذا وأراد ان أمكـــن ان يحافظ على المعبد الذي انتشرت سمعته في انحاء الامبراطورية على ما يقول كيلر (الص ٣٨٢) . ولآخر مرة طلب الرسل من المدافعين ان يستسلموا فكان الرد بالرفض مرةً أخرى . وهكذا قرر تاتيوس مهاجمة هذا المكان المقدس .

فانصب على ساحاته وأبهائه وابل متواصل من السهام والحجارة الثقيلة ، وصمد اليهودُ في الدفاع كالمأخوذين على ما يذكر كيلر . ولم يتراجعوا قيد أنملة وكان في أملهم ان يخفّ يهوه الى انجادهم في آخر لحظة فينقذ هيكله المقدس . وكان من الصعب تهديم الحجارة التي بنى بها هيرود الهيكل من قبل . ولأجل ان يدخل اليه الجنود بالقوة أمر تاتيوس بأن يحرق بابه الخشبي . وقبل ان يتم احتراقه كله أصدر تعليماته باطفاء النار وفتح ممر للجنود من خلاله لمهاجمة الهيكل في الداخل . ومع ان اوامر تاتيوس كانت تحتم تحاشي تدمير البقعة المقدسة فقد تسربت النار في الليل الى الساحة الداخلية . واندفع الجنود في كل مكان فجرت مجزرة مخيفة بينهم وبين المدافعين حول تلك البقعـــة . وقد بلغت الحماسة بأحد الجنود أن رمى مشعلاً ملتهباً من شباك الذهب في الغرف المجاورة

لقدس الأقداس . وكانت هذه الغرف مغلفة بخشب قديم وتحتوي على مواد قابلة للاحتراق ومن جملتها جرار الزيت المقدس . فالتهب كل شيء ، واندلعت ألسنة اللهيب في كل مكان حتى احرقت قدس الأقداس وما يحيط به ، على الرغم من محاولة القائد تاتيوس إطفاء النار وإنقاذه بنفسه . حيث لم يرتدع الجنود عن نشر النار وترويجها ، ولم يكفوا عن مهاجمة كل شيء لأنهم كانوا يعتقدون بوجود الذهب في كل مكان منه .

وفي شهر آب من سنة ٧٠ للميلاد نصب جنود الفيالق الرومانية أعلامهم في البقعة المقدسة ، وضحوا لها . ومع ان نصف القدس كانت في أيدي العدو ، وبرغم أعمدة اللهيب والدخان التي كانت تتصاعد من الهيكل المحترق لم يشأ المتطرفون ان يستسلموا . . فتحتم على تاتيوس القائد ان يبذل في هذه المرة أيضاً كل ما كان عنده من جهد ويستغل جميع امكانياته للسيطرة التامة على المدينة بكاملها . وما حل أيلول حتى تم له ما اراد وانتهت المقاومة .

فاستولى الجيش الروماني على المدينة التي ظلت تقاوم بعناد وقوة مدة من الزمن بعد ان نهبها وقتل الكثيرين ممن ظلوا فيها . وعند ذاك أمر القائد بأن تهدم المدينة بأسرها ، وان يدمر الهيكل الى الأرض ، ولم يبق قائماً سوى الأبراج الثلاثة وجزء من سور المدينة في الجهة الغربية لتكون مقراً للحامية التي تقرر إبقاؤها .

وكان عدد قتلى اليهود عالياً بحيث لا يمكن تصوره . فقد كان في المدينة خلال الحصار ستماية ألف نسمة . ويذكر يوسفوس ان عدد الأسرى بلغ ٩٧،٠٠٠ أسير ، غير الذين صلبوا وبقرت بطونهم ، وان عدد الجثث التي التي أخرجها اليهود من باب واحد من ابواب المدينة فقط خلال ثلاثة أشهر قد بلغ ١١٥،٨٠٠ جثة .

وفي سنة ٧١ للميلاد احتفل تاتيوس بنصره العظيم على القدس اليهودية بموكب مظفر هائل سار في شوارع روما . وكان يسير بين السبعماية أسير

يهودي في ذلك الموكب حنا الكيشالي وشمعون باركيوار وهما يرسفان في قيود الأسر . وفي غمرة الفرح الذي استولى على روما حمل في موكب الظفر هذا نصبان تذكاريان ثمينان من الذهب الخالص ، هما الشمعدان المسبع ومائدة خبز التقدمة اللذان كانا في هيكل القدس .

وفوق هذه الخرائب المقفرة المتجهمة التي منع اليهود والنصارى على السواء من الاقتراب اليها جاء الأمبراطور هدريان (١١٧ ــ ٣٨ م) فشيد مستوطنة رومانية جديدة ، سماها إيليا كابيتولينا . على ان منظر المستوطنة الأجنبية فوق هذه الأرض اليهودية المقدسة أدى الى نشوب ثورة أخرى في البلاد ، بقيادة رجل اسمه باركوكبا أي ابن الكوكب . فدُعي القائد جوليوس سيفيروس من حاكميته في بريطانية الى اليهودية فسحق آخر محاولة يائسة بذلها اليهود للحصول على حريتهم . لكن ذلك استغرق ثلاث سنوات . وعند ذاك أنشأ الامبراطور هدريان هناك « ساحة سباق » وحمامين ومسرحاً كبيراً . ثم نُصب تمثال لكبير آلهة الرومان (جوبيتر) فوق خرائب الهيكل اليهودي للتشفي ، وفي الموقع الذي يعتقد النصارى بأنه موقع الضريح المقدس كان الغرباء يصعدون الدرجات ليقدموا الخضوع والطاعة في مزارٍ وثني أُقيم للالهة فينوس ، إلآهة الحب والجمال عند الرومان .

وقد بيع القسم الأعظم من سكان أرض الميعاد ، الذين لم يقتلوا في حرب ٦٦ ــ ٧٠ م الدامية وثورة ١٣٢ ــ ١٣٥ ، بيع العبيد في البلاد . ولم يعثر علماء الآثار ومنقبوها على بيّنات ملموسة تدل على وجود الاسرائيليين في فلسطين بعد سنة سبعين للميلاد ، ولم يجد أحد حتى ولا قبراً واحداً كتبت عليه كتابة عبرية . وهدمت الكنائس كلها ، وحتى بيت الله في كوپرنوم المادثة استحال الى خرابٍ بلقع .

بعد تدمير القدس

يذكر عدد من المؤرخين ان اليهود الذين نزحوا الى خارج فلسطين على أثر هذه النكبة . ولا سيما الذين توجهوا الى قبرص ومصر والقيروان اصطدموا في عهد الامبراطور تروجان (٩٨ – ١١٧) باليونانيين الوثنيين الذين كانوا في هذه الأقاليم ، وتمكنوا من قتل آلاف منهم . وكانوا يمثلون تمثيلاً فظيعاً بهم فيقطعون أطرافهم ويشربون دماءهم ويأكلون لحومهم . فغضب الامبراطور عليهم وأوقع في الاسكندرية مذبحة هائلة فيهم ، وكذلك فعل قواده في قبرص كما بعث برجاله الى ليبية وبين النهرين للعمـــل على ذبحهم هناك أيضاً .

وحينما انقسمت الامبراطورية الرومانية الى شرقية وغربية صارت فلسطين وسائر بلاد الشرق العربي تابعة للقسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية . وممن تولى في هذه العاصمة بعد قسطنطين ، يوليانوس المرتد أو الجاحد ، لأنه ارتد عن المسيحية وراح يضطهد المسيحيين ويعيد بناء المعابد الوثنية .

وكان مما فعله في القدس انه حرض اليهود القليلين يومذاك على تجديـــد هيكلهم فيها . وأمدّهم بالمال والرجال ليبرهن على كذب السيد المسيح – على حد قوله – حينما تنبأ بأنه سوف لا يقام في الهيكل حجر على حجر بعد تدميره . فتسارع اليهود من الخارج الى القدس واغتنموا هذه الفرصة . لكن الروايات تقول عن بناء الهيكل ان اليهود كانوا كلما أقاموا جبهة من جبهاته تتداعى في اليوم الثاني ، ولذلك لم يتم بناء الهيكل حتى الآن .

وقد قتل يوليانوس فأُحبطت خططه ، واضطهد اليهود في القدس من جديد في عهد جوتنيان (٥٤١ – ٥٧٩ م) فثاروا في أيامه وقمعت ثورتهم بشدة وقسوة كذلك . وفي سنة ٦١٥ ميلادية انتصر الفرس على الرومان واستولوا على سورية وفلسطين ، فعاد اليهود الى التنمر وأخذوا ينتقمون لأنفسهم من النصارى في القدس وسائر انحاء فلسطين التي شهدت مذابح أهلية

كثيرة مرة أخرى . ومما يروى[١] في هذا الشأن ان اليهود ساعدوا الفرس على احراز الانتصار ، وأنهم كانوا يشترون منهم الأسرى ويذبحونهم . وقد بلغ عدد الذين قتلوهم بهذه الطريقة حوالي مائة وتسعين الفاً . وحينما انتصر هرقل على الفرس سنة ٦٢٥ م وأجلاهم عن فلسطين تسنى للنصارى ان ينتقموا من اليهود فتجددت المذابح بينهم . وهذه هي المذابح التي وقعت قبيل الفتح الاسلامي للقدس ، وهي تدل على شدة كراهية النصارى الذين طغت أكثريتهم على فلسطين يومذاك ولا سيما في القدس نفسها . وقد أدت بهم هذه الكراهية الى ان يشترطوا في الصلح الذي عقدوه مع الخليفة عمر بن الخطاب ، عندما فتح القدس ، عدم سكنى اليهود فيها .

استنتاجات أساسية

يلاحظ من الخلاصات التاريخية المار ذكرها ان هناك نقاطاً أساسية تختص بوجود اليهود في فلسطين ، ومقدار حقهم فيها ، لا بد من أن نوردها هنا لالقاء الضوء الحقيقي على تاريخ هذه البلاد المقدسة ، وازهاق الباطل الذي أخذت الصهيونية وأنصارها في العصر الحديث تبالغ فيه وتستند عليه في تكوين حق تاريخي لليهود وحدهم في البلاد الفلسطينية .

وأول ما يتبادر الى الذهن من هذه النقاط التاريخية هوان القدس ، وما يحيط بها من بلاد ، لم تكن يهودية في الأصل ، وان اليهود كانوا طارئين عليها وظلوا غرباء عنها حتى تسنى لهم ان يحتلوها بالقوة لفترة محدودة من التاريخ . ويؤيد ذلك بلا شك الكثير مما جاء في أسفار التوراة التي تجعل فلسطين أرضاً غريبة وُعدوا بها[١] فسميت أرض الميعاد . فقد كانت تسكن فيها قبل ان يأتي اليها ابراهيم – وقبل ان يخرج اليهود مهزومين من مصر – أقوام ذات مدنية عريقة عمرت الأرض فاستغلت زرعها ومعادنها ، وشيدت المدن والبلاد ،

---

(١) دروزة – تاريخ الجنس العربي ، ج ٤ ، الص ٢٤٤ .

ردحاً طويلاً من الزمن . وكانت هذه تتألف من العشائر الكنعانية السامية والشعوب العربية التي أثبتت وجودها في مواطنها هذه خلال حقب طويلة من الأعصر التاريخية.إذ كان هناك الأموريون ، والعمالقة ، والمدينيون ، والأدوميون والأنباط ، واليبوسيون ، الذين بنوا مدينة القدس واعتبروها من المدن المقدسة ، وغيرهم[١] . وقد كان الأنباط والعمالقة والأدوميون والمدينيون واليبوسيون من العرب المقيمين في فلسطين . وهناك شواهد وأدلة كثيرة تبرهن على ذلك .

فمن طريف ما يشير الى عروبة الأدوميين قسم من نقوش أسر حدون الآشوري (٦٨٠ - ٦٦٩) التي تنص على ما يأتي : من أدوماتو (أدوم) قلعة العرب التي كان فتحها سنحاريب ملك آشور أبي ، وأخذ منها الأسلاب . وفتحتها أنا فأسرت ملكتها أفكالاتو ملكة العرب جاء حزائيل ملك العرب بهدايا كثيرة ، وقبل قدمي وتوسل الي لأعيد اليه التماثيل فعطفت عليه وأصلحت عطب أثار سماين ، وداي ، ونُهي ، وررولدا (رضا) ، وأبيرولو ، وأتاركوروما العرب وأعدتها اليه بعد ان نقشت عليهــا اسم سيدي آشور وقوته العليا ، واسمي .. ولمـــا حل القضاء بحزائيـــل أجلست ابنه ياتـــا (يطيع) .. وبعد ذلك قاد وهب أو أبو (وهب) جميع العرب في ثورة على (يطيع) ولكني انا أسرحدون ملك آشور ، ملك الأقطار الاربعة المحب للعدل :. أرسلت جنودي لنجدة (يطيع) فأخضعت جميع العرب وقدت وهباً وجنوده وحملتهم الي فوضعت الأطواق في أعناقهم[٢] .. ويؤيد هذا ما يذكره المؤلف الأمريكي مونتغومري الذي يقول ان الأدوميين كانوا عرباً في عنصريتهم ، وكانت عواطفهم مع العرب[٣] .

---

(١) الدكتور جواد علي – تاريخ العرب قبل الاسلام ، الطبعة الاولى ج ٢ ، ص ٣٥٢ – ٣٥٩ . ومحمد عزة دروزة– تاريخ الجنس العربي القسم الرابع الص ١٥٧ .

(٢) الشيخ نسيب وهيبة الخازن – من الساميين الى العرب ، الص ١٥٦ (بيروت ١٩٦٢) .

(٣) Montgomery, James — Arabia & the Bible (Philadelphia 1934) P. 175.

ويذكر الاستاذ دروزة عن اليبوسيين (الص ١٥٧) : وليس هنالك ما يوضح هوية اليبوسيين الذين يظهر ان ذكرهم مع الكنعانيين بسبب كونهم من أرومة أخرى نرجح أنها أرومة عربية الجنس تفرعت من إحدى الموجات التي كانت تخرج من جزيرة العرب وتطرأ على بلاد الشام ، وجاءت الى عرب الأردن فاستقرت فيها قبل خروج بني اسرائيل من مصر . وبعض النصوص يفيد ان اسم مدينتهم يبوس ، وأنها هي القدس ، ولعل الاسم من اسم القبيلة على ما كان يجري عليه الأقدمون في التسميات .

ومما أورده الدكتور جواد علي كذلك (الص ٣٤٨ و ٣٤٩) استناداً الى مونتغومري ونولدكه[1] الألماني ان من أسفار التوراة المهمة التي ورد فيها ذكر عدد من القبائل التي يظن أنها عربية سفر القضاة ، ففيه خبر غزو قام بـــه (المدينيون) (أهل مدين) والعمالقة وبنو « المشرق » لفلسطين الى حدود غزة . وقد قاموا بهذا الغزو في أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد . وفي القضاة ايضاً ان المدينيين أذلّوا الاسرائيليين وان الرب دفع الاسرائيليين الى أيدي المدينيين سبع سنوات .. والمدينيون والعمالقة وأبناء المشرق وهم « بنو قديم » كانوا أصحاب إبل ، وهم من الأعراب على رأي كثير من العلماء .

وأورد أيضاً (الص ٣٥٨) ان النبط قد ورثوا أدوم فاضحوا يسيطرون على شرايين التجارة الحساسة التي كانت تمر بأرض أدوم .. والظاهر أنهم ذابوا فيمن ذاب من القبائل في مملكة النبط التي انصهرت نفسها في بوتقة أوسع ، وهي بوتقة العروبة التي صهرت كل تلك العناصر ، وأذابتها في سبيكة الاسلام بعد ذلك . وقد ذاب في هذه السبيكة عدد كبير من يهود فلسطين وجزيرة العرب ، ومن اندمج فيهم وتأثر بديانتهم ولا شك قبل الاسلام وبعده . فالعرب هم أحق من غيرهم إذن في حيازة الملك .

---

(١) Noldeke — Encyc. Bib. P. 3079, uber die Amelkiter und eingie endère nachbawolher der israeliten, 1864

اما عن عروبة الأقوام الأخرى فاكتفي بايراد رأي الدكتور جواد الذي يقول فيه : ويتبين من هذه الاشارات الواردة في التوراة وفي « المكابيين » وفي أماكن أخرى ان العرب كانوا في الشام وفلسطين قرون عديدة قبل الميلاد، وأنهم كانوا من سكان تلك البلاد الاصليين . ومن المؤسف حقاً ان العرب الشماليين كانوا يكتبون باللغة الآرامية ، وان التوراة قصدت بالعرب في الغالب « الأعراب » . اما أهل المدن فلم تسمهم بهذا الاسم ، بل سمتهم باسمائهم الخاصة او بأسماء مدنهم ، فعز علينا الوصول الى معرفة هوية عرب الشام وفلسطين المتحضرين فحسبوا من الاراميين ، وحسبوا على غيرهم أيضاً ، وشك في أصل الآخرين لأنهم دعوا بأسمائهم ، ولم يدعوا عرباً لأنهم لم يكونوا أعراباً . ولو كانوا منهم لأشير الى ذلك ، ولهذا لم ترد في التوراة وفي المكابيين اشارات كثيرة اليهم ، لا لأنهم لم يكونوا من أهل الشام وفلسطين ، او لأنهم كانوا قلة ، بل لسبب آخر معلوم مفهوم ، هو انهم لم يكونوا أعراباً بل كانوا حضراً مستقرين . ولو كانت كلمة « عرب » قد خصصت في ذلك الوقت على نحو ما خصصت له في الوقت الحاضر لسمّوا بها من غير شك، ولتبين لنا أنهم كانوا كثرة ، وأنهم كانوا هناك اصلاً من الأصول (الص ٢٦٨) .

ويضيف الدكتور جواد (الص ٣٤٨) الى ذلك قوله : وعلى كل ٍ ففي التوراة اعتراف بان اسماعيل هو ابن ابراهيم البكر ، وانه ولد في فلسطين وعاش في برية فاران ، وفي ذلك دليل على ان مواطن الاسماعيليين (أبناء اسماعيل) الأولى على رأي قدماء اليهود والتوراة هي فلسطين . والاسماعيليون هم من العرب كما ذهب الى ذلك علماء التوراة ، فهم أقدم عهداً بها من الاسرائيليين .

والنقطة الثانية التي نستنتجها هي ان هذه الأقوام السامية والعربية التي كانت موجودة في القدس وما حولها من بلاد فلسطين قد قاومت اليهود على مجيئهم اليها من مصر ، وظلت تقاوم دخولهم مدة تقارب الأربعين عاماً . وكان العمالقة أول طبقة من سكان فلسطين قاومت العبرانيين وحاربتهم لمنعهم من الدخول

اليها .. فحارب العمالقة العبرانيين عند سيناء لمنعهم من اجتياز أرضهم . كما حاربوهم في الأرضين الجنوبية من فلسطين لصدهم عن الدخول اليها عن طريق قادش . وساعدوا المؤابيين في دور القضاة والمدينيين فيما بعد خلال حروبهم مع العبرانيين . وحاربوهم في أيام الملك شاوُول وفي أيام داود . فأثارت مقاومتهم العنيفة هذه للعبرانيين حقداً عنيفاً في نفوس الاسرائيليين عليهم يتجلى فيما دُوِّن عنهم في أسفار التوراة[١] . وقد قاوم اليهود وحاربهم أيضاً الأدوميون . وحاولوا منعهم من الدخول الى فلسطين والمرور في بلادهم وهم آتون من البرية الى فلسطين . بقصد الوصول الى القدس . وحاربوهم كذلك في أيام شاوُول ومن جاء بعده[١] . ثم قاتلهم اليبوسيون على أبواب القدس للدفاع عن مدينتهم والذبّ عنها . واستمر هذا الدفاع مدة طويلة من الزمن حتى استطاع داود التغلب على أسوارها المنيعة وكذلك حاربتهم طبقات السكان الأخرى وقاومت استيلاءهم على فلسطين والاستقرار فيها .

وعلى هذا فنحن . على ما يقول الدكتور جواد علي . أمام جيل من العرب كان يسكن فلسطين الوسطى وفلسطين الجنوبية . وفي طور سيناء . قبل هجرة العبرانيين الى هذه البلاد . وان هذا الجيل قد قاوم العبرانيين . ولم ينثن عنه عزمه حتى اندمج في بقية الشعوب التي ظلت تقاوم العبرانيين . ومن ذريته أبناء فلسطين الحاليون[١] .

وهناك نقطة أخرى يشير اليها عدد من مستشرقي الغرب المعروفين من أمثال مرغليوث ومونتغومري . وهي ان تلك الشعوب العربية التي كانت موجودة في حوالي القدس قد أثرت تأثيراً غير يسير في حياة اليهود وديانتهم ولغتهم . عندما دخلوا الى البلاد عنوةً واختلطوا بهم . فان الاصحاح الثالث من سفر الخروج يشير الى ان موسى عليه السلام حينما جاء الى مدين تزوج من صفوره ابنة يثرون (رعوئيل) كاهنها وأميرها . وان المدينيين كانوا بصحبة

(١) الدكتور جواد علي الص ٣٤٩ ؛ ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ .

الاسماعيليين حينما بيع يوسف لهم . والمدينيون في رأي كثير من علماء التوراة هم من العرب ، وتقع أرضهم في بلاد العرب . ويرى البعض ان موسى تأثر بآراء يثرون هذا ، وتعلم منه العبادة الجديدة التي شاعت بين العبريين وهي عبادة الاله « يهوه » ، ويهوه هو إله قبائل مدين أو بعض بلاد العرب الشمالية ، لا سيما وقد أقام موسى مدةً غير يسيرة بين المدينيين (جواد علي الص ٣٥٢).

ويقول المستشرق هيستينغز[١] ان النبي أيوب كان عربياً كما يستدل من الطابع الذي يغلب على أسفاره . فقد عاش أيوب في أيام حكم القضاة في حوران أو على حدود أدوم وبلاد العرب ، أو في جزيرة العرب نفسها . وكان يسكن أرض عوص التي يرى بعضهم أنها تقع في منطقة نجد ، ويرى آخرون انها في حوالي حوران أو فيما يقرب من فلسطين . ويشير مونتغومري (الص ١٧٢) الى ان من قدماء القائلين بأثر العربية في تلك الأسفار العالم اليهودي « ابن عزرا » من رجال القرن الثاني عشر للميلاد ، وتبعه عدد من الباحثين في ذلك حتى قالوا ان تلك الأسفار كانت مترجمة عن أصلٍ عربي . ومن المتحمّسين في الدفاع عن هذا الرأي المستشرق الانكليزي مرغليوث[٢] ، الذي درس الأسماء الواردة في تلك الأسفار وقابلها مقابلة لغوية أيضاً ويؤيده كذلك في هذا الرأي مستشرقان أمريكيان هما فوستر وفيفر .

ولقد تكرر في التوراة ذكر طغيان اليهود وخروجهم على رأي انبيائهم ، وتماديهم في الملذات وطرق الرذيلة من دون ان يعبأوا بنصائح رجالهم وانبيائهم . ولهذا كله أصابهم ما أصابهم من غضب الله وسخطه عليهم ، فنكبوا وشردوا في الأرض . ولادراك ما يراد بهذه الأقوال يجدر بنا في هذه المناسبة ان نورد هنا ما يذكره أحد المؤلفين الانكليز المختصين بالبحث عن الحياة الجنسية وتاريخها عند

---

(١) Hastings, James — Encyclopedia of Religion & Ethics.
(٢) Israelites Prior to the Rise of Islam. London 1924 P. 30.

الأقوام المختلفة . فيتطرق ج . راتري تيلور[1] أولاً في كتابه (الجنس في التاريخ) الى القانون اليهودي وشريعة موسى فيقول : وبالنسبة للتنظيمات التي تنظم السلوك الجنسي بين الناس كان القانون اليهودي يختلف عما كان عليه في العالم اليوناني ــ الروماني اختلافاً غير يسير . وكان هذا القانون مستمداً من مجموعة قوانين حمورابي البابلية ، لكن موسى نزل عليه الوحي الالهي فاستلهم الموافقة القدسية عليه . وقبل ان يصعد الى جبل سيناء كان « يهوه » إلاهاً محلياً جبلياً ينصرف اهتمامه الى دخاخين القرابين المحرّقة فقط . وكانت الوصية الجنسية الوحيدة التي تنطوي عليها « الوصايا العشر » الوصية ضد الزنا ، أو السطو على زوجة الجيران . ويجب ان يلاحظ ان الزنا في هذه الحقبة من التاريخ كان يعتبر ، كما يعتبر في روما وعند اليونان ، اعتداء على الملكية الخاصة ويعني اغتصاب حقوق الغير فقط . ولم يقصد في ذلك ان يقتصر المرء في التفاته على زوجته فقط ، حيث ان الحقيقة هي ان الزوجة حينما كان يثبت عمقها في إنجاب الأولاد كانت تقدم الى زوجها جارية من جواريها لتنجب ابناء له . ويذكر لنا التاريخ بالاضافة الى ذلك ان الرجال كانوا أحراراً في اتخاذ العشيقات والاحتفاظ بهن علاوةً على ما عندهم من أزواج ، ولم يكن هناك تحديد لعدد الزوجات عند كل رجل .

ولم يكن هناك كذلك اي حظر على العلاقات الجنسية قبل الزواج عند اليهود . ويلاحظ ان التوراة لم يكن يحرم الزنا غير التجاري وغير المتقصد كما لم يحرم اغتصاب المرأة بشرط ان يكون للوالد الحق في المطالبة بتعويض مادي عن البكارة ــ وحينما تصل البنت الى الثانية عشرة والنصف من العمر تكون حرة في ممارسة الاتصال الجنسي مع من تشاء ، ما لم يمنعها أبوها منعاً خاصاً . ومع ان البغاء كان لا ينظر اليه بارتياح فقد كان من الأشياء الشائعة في أورشليم ، وكان عدد البغايا على درجة من الكثرة بحيث كانت لهن سوق خاصة بهن فيها . ولم يكن اللواط في فترة ما قبل السبي جريمة يعاقب عليها القانون في

(١) Taylor, G. Rattray — Sex in History. London 1965 (Revised Edition), P. 237, 238

اورشليم كذلك . الا اذا ارتكب باعتباره جزءاً من العبادة الدينية للآلهة غير اليهودية[١] . ويمكن الاستنتاج مما جاء في الاصحاح التاسع عشر من سفري التكوين والقضاة ان اللواط يعتبر شكلاً طبيعياً من أشكال الغواية والفسق ، ولو كان شكلاً مبتذلاً ويشير الحظر المفروض في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية الى الشكل الديني منه فقط . كما ان الكلمة المترجمة بمعنى اللواط في سفر الملك جيمس من التوراة تختص بالقس الذي يعني ببغاء الهيكل . والحقيقة فقد أصبحت حتى هذه المهنة شائعة في مملكة يهوذا على عهد ملوك اليهود الأقدمين .



كلوب باشا

استيلاء العرب على بيت المقدس

لاحظنا من بين المراجع العربية التي تيسرت لنا ان من خير من يصف فتح العرب لبيت المقدس السر جون باكوت غلوب . العسكري البريطاني الذي اشتغل مدة طويلة في المملكة الأردنية الهاشمية واطلع على تاريخ العرب وأحوالهم . فهو يصف هذا الفتح بايجاز في كتابه «فتوحات العرب الكبرى»[٢] ويقول (الص ١٨٢) : فلما حل خريف سنة ٦٣٦م حتى كان العرب قد اكتسحوا سورية بأجمعها الى حد جبال آسية الصغرى . لكن القدس وقيصرية في الجنوب بقيتا صامدتين في وجههم . وكان العرب في

(١) May, G. — Social Control of Sexual Expression Allen & Unwin, London 1930

(٢) Glubb, Sir John Baggot — The Great Arab Conquests, London 1936

الوقت نفسه قد أنشأوا قاعدة عسكرية في الجابية الواقعة في منطقة الجولان ، وهي منطقة متوسطة يستطيع جيشهم منهـــا ان يدفع حركاته بسرعة في اي اتجاه كان لاخماد الثورات ويظهر ان فكرة انشـــاء قواعـــد عسكرية كبيرة مثل هذه ، في مواضع متوسطة يمكن تركيز القوات العربية فيها ، من دون ان يفسدهم الاتصال بالسكان المدنيين ، تعزى في أصلها الى الخليفة عمر بن الخطاب .

ومنذ ان بدأ الاستيلاء على سورية قبل ثلاث سنوات كانت فلسطين أقليم عمرو بن العاص الخاص . وكان ينضم الى الجيش العربي الرئيسي بين حين وآخر في أيام الشدة ، مثل موقعة اليرموك . ولكن حالما كان يزول الخطر كان يعود الى منطقته الخاصة . وقد كان التاكتيك العربي ، الذي جعلهم قوماً لا يغلبون في السهول المكشوفة ، لا يمكن ان يطبق في البلاد الجبلية او البلاد المغلقة . ولذلك فطالما كانت الجيوش البيزنطية موجودة في الميدان كان عمرو بن العاص يحصر نطاق عملياته في سهل فلسطين الساحلي من بئر السبع الى قيصرية . على ان جيوش الميدان المعادية لم يبق لها وجود الآن . فتسلق العرب بنتيجة ذلك جبال اليهودية الصخرية ، وضربوا نطاق حصارهم على القدس . ولم يعد من المؤمل أن يطول أمد هذا الحصار أو يتطاول بابتعاد هرقل وجيوشه الى ما وراء جبال طوروس . وقد فتح صفرونيوس بطريرك القدس باب المفاوضات مع العرب في أواخر خريف ٦٣٧ على وجه الاحتمال . وسرعان ما تم التوصل الى الاتفاق على شروط الاستسلام . على ان صفرونيوس قد أصرّ على ان لا يسلّم المدينة الا الى الخليفة عمر بن الخطاب شخصياً . فأرسل أبو عبيدة رسالةً في هـــذا المضمون الى المدينة المنورة ، وقرر عمر في الحال أن يزور الجبهة السورية بنفسه .

وقد سار راكباً في طريق القوافل الى درعة ، التي تقع اليوم على الحدود الجنوبية الفاصلة بين سورية والأردن ، وهو يلبس ملابسه المرقعة البالية كالمعتاد. لكن الخليفة المتقشف صُعق حينما لاحظ ان سكان درعة قد خرجوا لاستقباله ومعهم المغنيات والراقصون بالسيوف ، والضاربات على الطبول من النساء . وصاح من سخطه على ذلك « أوقفوهم أوقفوهم ! » على ما يقول الرواة لكن

ابا عبيدة سرعان ما بيّن له ان هذا كان من عادة أهم البلاد في مناسبات مثل هذه ، وأنهم اذا منعوا من القيام به سوف يعتقدون ان عمر ما زال على موقفه المعادي منهم . وبمثل هذه الحجج أقنع الخليفة بصعوبة على التغاضي عن هذا العبث التافه[1] . لكن غضبه على القادة العرب كان أشد من هذا . فقد ركب ابو عبيدة ويزيد بن ابي سفيان وخالد الى الجنوب لاستقباله وهم يلبسون ملابس مقصبة ثمينة ، ويمتطون خيولاً مرختّة بالعدد الغالية . فقال لهم وهو مغضب ، على ما يروى ، أتأتون الي وأنتم ترفلون بمثل هذه الملابس ، هل تغيرتم الى هذا الحد خلال سنتين ؟ إنكم جميعاً تستحقون العزل بالخزي والعار . فأجاب القادة وهم مرتبكون ، على ما يذكر الرواة : ان التبدل الذي تراه يا أمير المؤمنين هو تبدل في الظاهر فقط وكشفوا عما تحت الملابس الخارجية ليروه دروعهم المزرده من تحتها . لكن الخليفة الذي كان يلبس رداءً مرقعاً لم يهدأ غضبه الا بصعوبة . وقد برهن المستقبل على ان مخاوفه كانت في محلها .

وكان ينتظر عمر بن الخطاب في القاعدة العسكرية في الجابية وفدٌ مرسل من البطريرك صفرونيوس ، فوضعت شروط الاستسلام في الحال . ثم ركب الخليفة الى الجنوب عبر وادي الأردن ، في الطريق العام القديم الذي يمر ببيسان ويقطع جبال السامريين الباسمة ، المغطاة بحقول القمح والكروم وبساتين الزيتون . الى ان وصل الى المدينة المقدسة حيث استقبله فيها البطريرك حاميُ الكنيسة ذي اللسان المعسول . لكن صفرونيوس اذا كان لسانه قد نطق بكلمات مجاملة رقيقة ، فقد كان قلبه أبعد ما يكون عن الاخلاص . وحينما كان الخليفة البدوي الحافي يمشي بملابسه الرثة حول كنيسة القيامة همس البطريرك باليونانية في أذن أحد أتباعه يقول « هذه هي بالتأكيد فظاعة الدمار الذي تكلم عنه النبي دانيال وهو يقف في البقعة المقدسة[2] » .

(١) جاء في فتوح البلدان في رواية عن عبد الله بن قيس ، قال كنت في من تلقى عمر مع ابي عبيدة مقدمة الشام ، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان . فقال عمر : مه ؛ امنعوهم . فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين هذه سنتهم ، أو كلمة نحوها ، وانلك ان منعتهم منها يروا ان في نفسك نقضاً لعهدهم ، فقال عمر دعوهم .

(٢) يذكر الطبري ان اللد والرملة استسلمتا في نفس الوقت الذي استسلمت فيه القدس .

وقد حدث بالصدفة ان حلّ وقت صلاة الظهر حينما كان عمر بن الخطاب منشغلاً في تفقد كنيسة القيامة . وبينما كان أحد مرافقيه يهم بفرش حصيرة الصلاة على أرض الكنيسة ليقوم الخليفة بادائها منعه عن ذلك وهو يقول انه لا يحبذ ان يصلي في هذا المكان . ثم أردف يقول « لو فعلت هذا فان المسلمين سيطالبون بجعل الكنيسة مسجداً . » ولذلك خرج من الكنيسة وصلى في خارجها

وما يزال يوجد مسجد صغير حتى اليوم . وقد بني الى جانب جدار كنيسة القيامة . وهو على ما يقال يضم البقعة التي صلى فيها الخليفة صلاته تلك . وقد كانت القدس وما تزال يقدسها المسلمون تمام التقديس . لأن محمداً علم أتباعه بالتوجه اليها عند الصلاة . كما أنه عرج الى السماء من موقع هيكلها يوم أسري به . ويبدو ان عمر بن الخطاب قد سلك مع سكان المدينة المقدسة هذه سلوكاً فيه الكثير من التواضع والمجاملة .

واتخذ الخليفة في أثناء هذه الزيارة الترتيبات اللازمة لادارة الأقاليم المفتوحة حديثاً . ثم قسمها الى مناطق عسكرية . وفي ربيع ٦٣٨ ركب العاهل العربي البسيط حصانه من جديد الى البادية في طريق عودته الى المدينة .

اما المؤرخ الألماني بروكلمان فيوجز في كتابه المعروف (تاريخ الشعوب الاسلامية)[1] فتح بيت المقدس ويقول : ومن هناك وجّه عمر خالد بن ثابت لفتح بيت المقدس التي لم تلبث ان طلبت الصلح . فتولى عمر نفسه عقد الصلح مع أهلها ؛ وكانت شروطه رفيقة غير ثقيلة . فقد أعطاهم عمر الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ؛ كما منحهم الحرية الدينية على ان يعطوا الجزية للمسلمين وعلى ان لا يسكن بيت المقدس معهم أحد من اليهود . والواقع ان عمر سار بنفسه الى بيت المقدس ؛ فدخل ساحة الهيكل المهجورة فأزال الردم بيده عن الصخرة المقدسة التي يعدها اليهود والنصارى والمسلمون جميعاً منتصف الأرض ؛ وأمر ببناء المسجد هناك .

---

(١) الص ٩٨ من الترجمة العربية ، ط ٤ ؛ بيروت ١٩٦٥ .

المسجد الاقصى

جاء في دائرة المعارف الاسلامية[١] قول كاتب البحث فيه ، (وينسنك) إنه المسجد الذي بُني في منطقة الهيكل في القدس . ويعني الاسم « الحرم الأبعد » . وقد ورد ذكره في السورة السابعة عشرة ، الآية الأولى ، من القرآن الكريم « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » .

وقد بينا في بحثنا عن « المعراج » ان التأويل القديم يجعل هذه الآية تشير الى عروج النبي الى السماء ، ويرى ان المسجد الأقصى يقصد به أحد الأماكن السماوية . على ان هذا التفسير كان لا بد من ان يفسح المجال بمرور الزمن الى تفسير آخر يشار فيه الى بيت المقدس . ولهذا التفسير علاقة باسراء النبي ، وهكذا فان الجمع بين قصتي الاسراء والمعراج تتكون منه قصة رحلة النبي الليلية الى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ورحلته بعد ذلك من بيت المقدس الى السماوات العلى .

ولكن كيف أصبحت القدس متميزة في هذا الشأن في نظر مفسري القرآن الكريم وشارحيه ؟ لقد كان هذا على ما يقول الاستاذ شريك نتيجة من نتائج ميل الأسرة الأموية المالكة الى تقديس بيت المقدس على حساب أرض الاسلام المقدسة . لكن الدكتور هورو فيتز يتحدى هذا التفسير ويشكك فيه . وعلى كلٍ فان القدس كانت تعتبر مكاناً مقدساً في الاسلام من أقدم الأزمنة ، حيث كانت القبلة الأصلية التي ، وان تركت لتحل مكة في محلها فقد بقيت محافظةً على قدسيتها كما يمكن ان يلاحظ مثلاً من إقدام عمر على بناء المسجد في موقع الهيكل .

---

(١) Shorter Encyclopaedia of Islam, Edited by Gibb & Kramers.

واسم المسجد الأقصى الآن يطلق على الأخص على المسجد الكائن في جنوب منطقة الهيكل الذي كان في الأصل على ما يقول البعض كنيسةً من انشاء الامبراطور جستينيان . ويذكر الكتّاب العرب المتأخرون ان هذا المسجد بناه الخليفة عبد الملك (٦٥ — ٨٥ . ٦٨٥ — ٧٠٥) . وقد يعني هذا ان كنيسة جستنيان قد أُعيد بناؤها بهذا الشكل .

اما المستشرق الانكليزي لسترانج فيذكر المسجد الأقصى في كتابه (فلسطين في عهد المسلمين) (١) بتفصيل أوفى . فهو يبدأ البحث بشرح قدسية المسجد والأسباب التي أدت اليها . ويذكر المعراج وإيراد آية الاسراء . ويقول كذلك ان الخليفة عمر بن الخطاب أمر بعد أن تسلم بيت المقدس في سنة ٦٣٥ م (١٤ هـ) ببناء مسجد على ما كان يعتبر موقعاً لهيكل النبي داود . وقد عين الموقع في المكان الذي كان النبي عليـــه السلام قد صلى فيه قبل ان يعرج الى السماء . بناءً على الوصف الذي سمعه منه . ويقع هـــذا المكان بقرب الصخرة التي أُعيد اكتشاف موقعها بعد ان كـــانت مختفية تحت أكوام الزبل والروث .

وكان المسجد الذي بناه الخليفة هناك بسيطاً بشكله وهيأته . لأنه بني باللبن غير المشوي والخشب . ولذلك لم يستقم طويلاً . وربما لم يبق له أثر بعد نصف قرن من الزمن حين أمر عبد الملك بن مروان بتشييده من جديد . وكان البناء الذي شيده في ٦٩٠ (٧٢ هـ) من الحجر بناءً ضخماً بديع المنظر . ثم يذكر لسترانج هنا انه يبدو من المحتمل ان البناء الجديد هذا قد استُعملت فيه المواد الانشائية التي كانت موجودة هناك . وهي من أنقاض كنيسة « سنت ميري » العظيمة التي كان قد شيدها من قبل الامبراطور جستنيان الروماني في الموقع نفسه تقريباً سنة ٥٦٠ فأحرقها خسرو الثاني ملك الفرس سنة ٦١٤ . حينما

(١) Le Strange, Guy — Palestine under the Moslems, London 1890

شن حماته الكبيرة على سورية فأدت الى تدمير معظم المباني المسيحية المهمة في البلاد المقدسة .

ويورد لسترانج كذلك في حاشية من حواشي بحثه رواية أخرى في هذا الشأن ، نقلها عن المؤرخ البيزنطي المعروف ثيوفانس ، الموسوم باسم «كرونو غرافيا[1]» . وهو إذ يوردها يقول إنها أقدم ذكر لخبر بناء المسجد الذي أمر عمر . لأن أقدم من يذكر الخبر من العرب هو المقدسي في سنة ٩٨٥ م . فيقول ثيوفانس عن أخبار سنة ٥٢٤ م ان عمر بدأ باعادة بناء الهيكل المقدس (كذا) ، لأن بناءه في الحقيقة لم يبق له وجود بعد ان أصبح انقاضاً وخرائب . وحينما سأل عمر أهالي بيت المقدس عن السبب أجابه اليهود بقولهم « انك اذا لم تهدم الصليب القائم على جبل الزيتون فان بناء الهيكل لن يمكن بقاوه ثابت الأسس والأركان . وعند ذاك هدم عمر الصليب في مكانه لأجل ان يمكن بناء الهيكل على أسس متينة . وللسبب نفسه هدمت صلبان كثيرة في أماكن أخرى ..

ولا شك ان قول اليهود هذا إن صح ففيه دس وخبث ، كما ان روايـــة ثيوفانس (التي نرجح زيفها) ولهجتها الأصلية ظاهرة التحيز والتعصب الى آخر حد ، لا سيما ما يختص منها بتهديم الصلبان لأن التساهل الذي أبداه المسلمون والخليفة عمر بالذات مع النصارى عند فتح بيت المقدس يدحض ذلك . وهذا ما يعترف به المؤرخون الغربيون أجمع . يضاف الى ذلك أن الخليفة عمر أمر ببناء المسجد الأقصى لا الهيكل اليهودي المزعوم .

ويذكر لسترانج أيضاً ان زلزالاً يقال انه وقع في سنة ٧٤٦ (١٣٠ هـ) فهدم قسماً كبيراً من المسجد الأقصى الذي بُني في عهد الملك . ثم يورد في هذا المقام رواية استقاها من مخطوطة « مثير الغرام في وصف البلد الحرام » العربية ، وخلاصة ما في الرواية المسندة الى عبد الرحمن بن محمد بن ثابت ،

---

(١) Theophanes - Chronographia (Boun 1839)
الص ٥٢٤ من المجلد الاول باللغة الأغريقية .

عن أبيه الذي رواها عن أبيه وجدّه ، أن أبواب المسجد في أيام عبد الملك كانت مغطاة كلها بصفائح ذهب وفضة ولكن الجناحان الشرقي والغربي من المسجد تهدما في أيام المنصور الخليفة العباسي . وحينما فوتح المنصور باعادة بناء القسم المتهدم وتوسيع المسجد أجابهم بأنه نظراً لعدم وجود المال في الخزانة العامة يومذاك ، فعليهم أن يقلعوا صفائح الذهب والفضة ويستعملوها في سك العملة المطلوبة للبناء ، ففعلوا ذلك وأكملوا البناء وكان ذلك في سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) على الأرجح .

ثم حدث زلزال آخر فقوّض هذا البناء من جديد ، وحينما تولى الخليفة المهدي بعده كان المسجد في حالة خراب فأمر ببنائه . لكنه أمر كذلك بتوسيعه لأنه كان طويلاً ضيقاً في السابق ، فأجريت التوسيعات المطلوبة فيه ، وكان ذلك ما يعتقد في سنة ٧٦٠ م (١٦٣ هـ) التي توجه فيها المهدي الى بيت المقدس وصلى فيه . وقبيل ان يصف المقدسي المؤرخ المسجد الأقصى في سنة ٩٨٥ م أنشأ فيه عبد الله بن طاهر رواقاً ذي أعمدة . وكان وصف المقدسي له في أيام الخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر . ثم يقول لسترانج ان وصف الرحالة ناصر خسرو لبيت المقدس في سنة ١٠٤٧ (أي بعد ٦٢ سنة) هو مطابق لوصف المقدسي . وهذان الوصفان معاً يعطياننا فكرة واضحة من المسجد الأقصى قبل ان يستولي الصليبيون على بيت المقدس .

ومما يذكره لسترانج كذلك نقلاً عن المقدسي ان عدداً من الزلازل وقع في سورية ومصر بين سنتي ٤٠٧ و ٤٢٥ للهجرة ، فوقعت في ٤٠٧ قبة الصخرة فوق الصخرة نفسها ، وتهدمت مدينة الرملة في سنة ٤٢٥ (حوالي ثلثها) ، ثم تهدم الجدار الخارجي من منطقة الحرم القدسي فأعيد بناؤه وبناء الصخرة بأمر من الظاهر الخليفة الفاطمي في مصر .

وفي ١٤ تموز سنة ١٠٩٩ استولى الصليبيون بقيادة غودفري دوبويون على بيت المقدس ، فأعطيت منطقة الحرم الشريف الى الداوية أو فرسان الهيكل ، فأحدثوا تغييرات غير يسيرة في المسجد الأقصى وأقسام الحرم المجاورة ،

لكنهم تركوا قبة الصخرة من دون أن يعبثوا بها . فقد شيدوا في غرب المسجد الاقصى بامتداد السور الجنوبي لمنطقة الحرم مستودع أسلحتهم . أي في موقع الرواق الذي أشرنا اليه . ووصفه ناصر خسرو . وفي أسس زاوية الحرم الجنوبية الشرقية الى غرب مهد السيد المسيح بنوا اصطبلات خيولهم .

وحينما استرد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الأفرنج في سنة ١١٨٧ أعيد إصلاح وترميم منطقة الحرم بأجمعها (يراجع من أجل هذا الجزء التاسع من ابن الأثير) . ويقول لسترانج كذلك ان المؤرخين العرب لا يذكرون تفصيلات ما جرى من تعمير في المسجد الأقصى بعد ان استرد صلاح الدين بيت المقدس حتى جاء مجير الدين في ١٤٩٦ فذكر في — أنس الجليل — ان السور الجنوبي لمنطقة الحرم بالقرب من محراب داود أعاد بناءه سلطان مصر المملوك محمد بن قلاوون الذي حكم من ١٣١٠ الى ١٣٤١ م . وأمر كذلك بتبليط الطرف الجنوبي من المسجد بالمرمر وفتح شباكين في الجدار الجنوبي الى يمين المحراب الكبير وشماله . ويظهر ان المسجد الأقصى لم يكن يختلف في أيامه كثيراً عما هو عليه اليوم (كتب لسترانج هذا في ١٨٩٠) .

هذا وقد كتب المستشرق الأنكليزي كريسويل [١] خبير فن العمارة الأسلامية في كتابه المعروف فصلاً موجزاً ايضاً عن المسجد الأقصى نورد فيما يأتي ترجمة : يبدأ كريسويل بالتساؤل عن المدة التي استقام فيها بناء المسجد الذي شيده الوليد . والظاهر انه يعتقد ان الذي شيّد المسجد الأقصى . بعد البناء البسيط الذي أمر ببنائه عمر بن الخطاب . هو الوليد بن عبد الملك وليس اباه عبد الملك بن مروان كما يذكر معظم المؤرخين . ثم يقول انه يبدو ان ذلك البناء قد دُمّر تدميراً غير يسير في الزلزال الكبير الذي وقع سنة ٧٤٧ أو ٧٤٨ لكن أول ذكر لأعادة بنائه ورد في كتابٍ متأخر يعرف بالمثير — ولعله يقصد

---

(١) Kreaswell, K.A.C. — A Short Account of Early Muslim Architecture (London 1958) P. 204-213

كتاب مثير الغرام المشار اليه قبل هذا — وقد كتب سنة ١٣٥١ . ويعزو هذا إعادة التعمير الى المنصور . ويذكر الكتاب نفسه ان زلزالاً آخر وقع بعد بضع سنوات وأعاد بناء القسم المتهدم من المسجد الأقصى فيه الخليفة المهدي ولا يسعني أن أشعر بأن هذين الزلزالين هما عبارة عن زلزال واحد ، وهو المذكور أولاً . ثم يتابع كريسويل قوله بأن المسجد أعيد بناؤه بشكلٍ أضخم وأمتن مما كان عليه من قبل ، ولكن القسم القديم غير المتهدم منه أبقي في وسط المبنى الجديد كأنه شامة فيه . وهذا يمتد الى حــد أعمدة الرخام . ومن بعدها يبدأ القسم الجديد . ولم يذكر أي الخلفاء أمر بالتعمير ولكن صاحب كتاب المثير يقول ان الخليفة المهدي هو الذي فعل ذلك . اما السنة التي تم فيها فيعتقد لسترانج أنها سنة ١٦٣ هـ (٧٨٠) لأن الطبري يذكر أن المهدي هو ذهب في تلك السنة الى بيت المقدس فصلى في المسجد الأقصى .

ونورد هنا الوصف الوحيد الذي يتيسر لدينا عن المسجد بشكله ذاك ، وهو وصف المقدسي نفسه الذي يقول :

ان الحرم له ستة وعشرون بابا ، ويسمى الباب المقابل للمحراب باب النحاس الكبير . . والى يمينه توجد سبعة أبواب كبرى أيضاً ، وسبعة ابواب مثلها في الجهة الشمالية . وهناك في الجهة الشرقية احد عشر باباً غير مزخرف . . ويغطي القسم الأوسط من الحرم سقف ذو جملون كبير تعلو فوقه قبة جميلة . وتغلف السطوح في كل مكان بطبقة من الرصاص .

فكيف كان شكل هذا المسجد يا ترى ؟ لنترك هذا السؤال موقتاً ونتابع تاريخ المبنى في سيره . فقد حصل زلزال في سنة ١٠٣٣ فهدم المسجد تهديماً استدعى ان يقوم الظاهر الخليفة الفاطمي بأعادة بنائه سنة ١٠٣٥ م . وكثيراً ما كان المسجد الأقصى بشكله الحالي يعتبر من إنشاء الصليبيين وصلاح الدين ، لكن هذا رأي مغلوط لأن القسم الأعظم من بناء الخليفة الظاهر ما زال موجوداً فان المعمار التركي المقتدر المرحوم كمال الدين الذي أجرى ترميمات في المسجد

بين سنتي ١٩٢٤ ، ١٩٢٧ قد أماط اللثام عن تفصيلات كثيرة في البناء تبرهن على ما نقول :

١ ـ لقد أزال الجص عن سطح العقد الشمالي الذي يحمل القبة فكشف بذلك عن زخرف بديع بالفسيفساء المزجج يتألف من لفائف كبيرة من نبات شوكة اليهود (أكانتوس) تعلوها كتابة طويلة بالكوفي ، تحت عوارض السقف مباشرة ، يرد فيها اسم الخليفة الظاهر الفاطمي . وهذا يبرهن على ان العقد الكبير الذي يحمل القبة لايمكن ان يتأخر بناوءه عن ١٠٣٥ م .

٢ ـ لقد أزال جزئياً غطاء الرصاص من حافة القبة الخشبية السفلى . وتميل هذه الحافة السفلى قليلاً الى الخارج لتدفع عن البناء ماء المطر أو الوفر . وتبقى محافظة على شكلها هـذا بسلسلة من العارضات البـارزة الى الخارج كما هو الحال تماماً في قبة الصخرة حيث تخرج العارضات بمقدار ٨٥ سنتمتراً في مقابل ٧٥ فقط في الأقصى (٣٣,٥ مقابل ٢٠,٥ بوصة) . وكان من حسن حظي ، على ما يقول كريسويل ، ان أرى هذه العارضات مكشوفة للعيان . فكان معظمها قد نخره الدود ، لكن القليل منها الذي بقي سالماً تقريباً كما كان محفوراً بزخرفة فاطميـة . ويبرهن هذا على ان اسطوانة القبة لايمكن ان تتأخر عن زمن الظاهر ، وكذلك العقود الأربعة التي تحمل القبة لاالعقد الموجود تحت القبة فقط .

٣ ـ إن جميع عقود المسجد تسند بعارضات ذات شدتين ، وقد دقت بالمسامير في الجـانب الأسفل من كل زوج لوحـة سميكة عليها زخرف منقوش بالدهان . وكان هـذا يختفي وراء غـلاف خشبي ازيـل عنه في عشر أو اثنتي عشرة حالة . فكانت إحدى الشدات تحمل نطاقاً من كتابة القرن الحادي عشر الكوفية . ولذلك فان الأقواس القريبة من القبة لايمكن ان يتأخر زمنها عن زمن الظاهر كذلك . وتنطبق نفس الملاحظة هذه على شدّة العارضة الأولى التي تلي القبة في كل جهة من جهتي الرواق الوسطي .

٤ ــ كان سقف المصلى يتألف (الى زمن متأخر) . من عوارض سقفية متقاربة تقارباً غير يسير تستند الى أفاريز مسطحة بحجمين ، يبلغ عرض بعضها ٣٥ سم وطولها تسعين (١٣,٧٥ في٤٣,٢٥) . وهي مزخرفة بزخارف محفورة من النادر ان يتأخر عصرها عن القرن الثامن . والمفروض أنها أخذت من المسجد الذي بناه المهدي واستخدمت في البناء مجدداً .

والآن دعنا نعود الى المخطط (التصميم) فنفحصه . اننا نجد ان هناك خطاً من أعمدة جسيمة مدورة ما تزال سالمة شرقي رواق المصلى على مسافة ٧,١٠م منه . وهناك عمود آخر من مثل هذه في الرواق التالي الممتد الى الشرق . اما القسم المحمول على أعمدة من الرخام فقد بقي فيه رواقان مقنطران يمتدان في شرق القبة وغربها مع جزء ثالث في الجهة الشرقية . ونلاحظ كذلك ان العقود الشمالية والجنوبية التي تحمل القبة تستمر في امتدادها شرقاً وغرباً ، لأجل أن تحمل قوتها الدافعة الى الجدران الجانبية ، وهكذا تكوّن مخططاً بشكــل T على الورق ، ليس في الحقيقة والواقع ، لأن جميع الأروقة المقنطرة تستمر الى حد جدار القبلة .

وعلى هذا يتضح ان قسماً كبيراً من المسجد الحالي هو من تشييد الخليفة الظاهر الفاطمي ، أي عقود الرواق الأوسط وأربعة عقود تحت القبة والأسطوانة الى حافتها العليا ، وعقد آخر شرقي عقد المصلى ، والأروقة الكائنة في يسار العقد الشرقي الذي يحمل القبة ، مع رواقين يقابلانها في الجهة المقابلة .

شكل مسجد الظاهر ــ ان الحد الشمالي لبناء المسجد الذي شيده الظاهر لابد من أنه كان على نفس ما هو عليه اليوم ، لأن مدخلين من المداخل الثلاثة الموجودة في الوسط يجب ان يكون تاريخها ، بالنسبة للزخرف الموجود فيها . غير متأخر عن القرن الثامن . وفيما يأتي أدوّن استنتاجاتي العامة (القول لكريسويل) في هذا الشأن :

١ ــ إن قسماً كبيراً من المسجد الأقصى الحالي هو من تشييد الظاهر الفاطمي

٢ ـ ان مسجده كان يتألف من سبعة أروقة متكونة من عقود تتعامد مع جدران القبلة ، وتتألف كلها الا العقدين الوسطيين من أحد عشر قوساً .

٣ ـ لقد كان الرواق الأوسط يبلغ ضعف الأروقة الأخرى في عرضه تقريباً (١١,٨٠ مقابل ٦,٥٠ متر و ٧٥ ٣ مقابل ٢١,٢٥ قدم) . وكان له في أعلاه منور ، وكانت الفسح السبع الأولى بين الأعمدة مغطاة بسقف جملوني الشكل توجد فوقه قبة خشبية كبيرة .

٤ ـ كانت العقود المستعرضة التي تحمل القبة تمتد الى الجدران الجانبية نظراً لما تقتضيه قوة الحمل الدافعة فيها .

٥ ـ كانت الأروقة الجانبية تغطيها سقوف جملونية الشكل في مستوى أخفض من مستوى الجملون الكبير وموازية له .

٦ ـ واني ميّال (يقول كريسويل) الى الاعتقاد بان هذا المسجد لم يكن أعرض من بناية المسجد الحالية .

تكوين جامع المهدي ـ ولنعد الآن الى وصف المقدسي . فليس هناك احد لا يستطيع الالتفات الى الشبه الموجود في الخصائص الرئيسة التي لاحظها في المسجد والخصائص البارزة في مسجد الظاهر ، اي المدخل الكبير الأوسط مع المداخل السبعة الأصغر عن اليمين وعن الشمال ، والسقف الجملوني الكبير فوق القسم الأوسط من المصلى مع القبة الجميلة المرتفعة فوقه ، والسطح المغلف بالرصاص .

ولكن هناك أشياء اكثر من هذه . فقد لاحظنا ان الأعمدة هي بحجمين ، إذ يبلغ قطر الأعمدة في المصلى وشرقيه حوالي تسعين سنتمتراً (٣ اقدام) بالمعدل . غير ان هذه لا تعد أعمدةً قط ، لأنها حينما أزيل عنها الجص وُجد أنها مبنية بسوفٍ من الحجارة . وهذا ما يذكرنا في الحال بكلمات المقدسي حينما وصف مسجد المهدي وقال « ان الأقسام القديمة منه قد بقيت ، حتى أصبحت كأنها شامة في وسط العمران الجديد » . ويمتد هذا القسم الى حد أعمدة

الرخام ؛ ولا يبدأ القسم المتأخر الا حيث تنتهي « الأعمدة المبنية » .

وهكذا فان جامع المهدي كان قسمٌ منه مشيداً على أعمدة وقسم آخر على أساطين مدورة ، كما في المسجد الحالي تماماً . وكان القسم الأوسط منه مغطى بسقف جملوني جسيم ترتفع فوقه قبـة جميلة . يضاف الى ذلك ان الرواق الاوسط الكبير والرواقين الى يمينه وشماله لا بد من أن عرضها قد كان بمقدار عرضها الحالي لأن محاورها تتعين بالمداخل الوسطى الثلاثة . التي لا يمكن ان يتأخر زمن اثنين منها عن القرن الثامن . وليس من العجيب أن يكون عدد الأبواب في الجهة الشرقية من مسجد المهدي . وهي احد عشر . مساوياً بالتمام لعدد الأقواس في العقود الحالية . أفلا يدل هذا اذن على ان عقود مسجد المهدي كانت تتألف من أحد عشر قوساً ؟ واذا ما أُخذت جميع هذه النقاط بنظر الاعتبار فان الاستنتاج الواضح لكل ذلك يكون منطوياً في ان الظاهر الفاطمي احترم مخطط المهدي وأخذه في الاعتبار . فترك الأساطين المدورة بالحالة التي كانت عليها وأعاد تشييد كل شيء عـلى النمط نفسه . كما ان عرض مسجد المهدي لا بد من أنه كان يبلغ ١١.٨٠ (من مركز إلى مركز) بالنسبة للرواق الأوسط . زائداً ٦.٥٠ — ١٤ م للأروقة الأربعة عشر المقابلة للأبواب الأربعة عشر الأصغر في حجمها . فيساوي المجموع ١٠٢.٨٠ م . ولما كان الطول من الشمال إلى الجنوب . بالنسبة للقياس الداخلي . ٦٩.٢٠ م (٢٣٠ قدم) تكون النسبة بالضبط تقريباً ٣ : ٢ . وهي نسبة ملائمة في فن العمارة العباسي . مثل أبنية المنصور في بغداد والأخيضر وفي سامرا في القرن التالي . ولا شك ان وجود خمسة عشر رواقاً يعني إضافة أربعة أروقة في كل جهـة من جهتي المسجد الحالي . وليس من الصدفة الغريبة ان توجد في الملحق الصغير من ناحية الشرقية . المسمى جامع عمر ، أربع فسحات ويكون معدل عرضها ٦.٧٥ م (٢٢ قدماً) على وجه التقريب . ولذلك فان الجهة الشرقية من الملحق هذا تقابل الجهة الشرقية في مسجد الهادي اذا ما أعيد تكوينه كما يقترح . وتكون الأساطين الجدارية الكائنة في الجهة الجنوبية من هذا الملحق على محور الأساطين

الجدارية التي يتطلبها تطبيق نظريتي هذه تقريباً .

حوامل الأفاريز الخشبية – تكون حوامل الأفاريز هذه ، التي تتصل بالعارضات السقفية من الطرفين بحجمين كما ذكر من قبل . وهما يعودان الى زمن أقدم بكثير من زمن الظاهر الفاطمي ، واعتقد انهما من حوامل الأفاريز التي كانت في مسجد المهدي . وحينما نشرت انا صورتيهما في مجلة « أخبار لندن المصورة »(١) الصادرة في ١٦ كانون الثاني ١٩٣٧ اعتقد عدد من النقاد انهما كانا من طراز حوامل الأفاريز الأموية . اما أنا فقد عزوتهما الى أيـام المهدي بالنظر لحيوية الفن الهيلينستي وبقائه في سورية الى ما بعد انقراضه في البلاد الأخرى بكثير .. ونحن نرى الآن من الملاحظات والتنقيبات التي أجريت تحت الأرضية الحالية خلال عملية تجديد ما يقرب من ثلث بناء المسجد الأقصى في سنة ١٩٣٨ – ١٩٤٢(٢) ان المسجد لم يكن له رواق أوسط عريض قبل أيام المهدي ، ولذلك لم تكن هناك حاجة لحوامل الأفاريز العريضة التي تبلغ ستين الى مائة وعشرة سنتمترات في حجمها (٢٣,٦ في ٤٣,٧ بوصة) .

المسجد الاقصى الاموي – ويصح بالضرورة من الوصف الذي أورده المقدسي بأن مسجداً أقدم ، بعقود تستند الى أعمدة من الرخام وتمتد من الشمال إلى الجنوب ، كان قد أدخل في المسجد الأقصى الذي شيده المهدي . ولا تزال هذه العقود موجودة في شرق وغرب القسم الذي تغطيه القبة .

وحينما أدخلت القبة في البناء كان من الضروري تهيئة دعامات من الشرق والغرب بجعل عقود مستعرضة تمتد الى الجدران الجانبية ، وتتألف من سلسلة من الاقواس التي تستند الى مساند مستقلة توضع في كلا جانبي العمود المقابل للعقود الطويلة ، فتنحشك العقود القديمة ما بين الأقواس المستعرضة الجديدة .

---

(١) Illustrated London News. January 1937

(٢) Hamilton, R. W. — The structural History of the Aqsa Mosque, 1949, P. 10-15

ففي أثناء العمل الذي تم في ١٩٣٨ – ١٩٤٢ استطاع هاملتون حينما أزاح الجص ان يلاحظ بأن بناء سبندلات الأقواس المستعرضة غير مرتبط ببنـــاء سبندلات العقد الطولي الأول الموجود في شرقي القبة[1]. ولا ينطبق هذا على العقد الثاني لأن الأقواس المستعرضة تنشأ هنا من نفس الدعامة التي تنشأ منها الأقواس في الشمال والجنوب. ولذلك فقد استنتجت بأن هذا القسم قد تأثر بالزلزال أكثر من غيره وأعيد بناؤه من قبل المهدي العباسي. ولا يزال هناك في الجهة الشرقية الأبعد عقد ثالث داخل جزئياً في الجدار.

.. وقد تم التوصل الى اكتشاف آخر تحت التبليط حينما أزيل قسم منه. فقد وجد قسم من جدار شمالي أقدم يبلغ ارتفاعه سافاً واحداً في بعض الأماكن ولوحظ امتداده الى ما يزيد على ١٨ متراً (٥٩ قدماً). وكان يبلغ سمكه متراً واحداً (٣,٢٥ قدماً) وكانت جبهته الجنوبية على بعد ١٨,٤٠ متراً (٦٠ قدماً) من الجهة الداخلية للجدار الشمالي الحالي. وعلى هذا فان المسجد الأقدم، وهو الأموي على ما يفترض، كان يبلغ طوله من الشمال الى الجنوب ٥٠,٨٠ متراً (١٦٧ قدماً) فقط بدلاً من ٦٩,٢٠ (٢٢٧ قدماً)، لكن عرضه لا يمكن تعيينه.

قبة الصخرة

جاء في دائرة المعارف الاسلامية[2] ان قبة الصخرة هي القبة المعروفة في القدس، التي تسمى خطـــأ في بعض الأحيان بجامع عمر. فهي في الدرجة الأولى ليست جامعاً وانما هي مزار أو مصلى مشيد فوق الصخرة المقدسة وحولها شبيه بالأبنية المقببة المنتشرة في منطقة الحرم. ولم تكن في الدرجة الثانية مما شيده

---

(١) المرجع الأخير نفسه.
(٢) المشار اليه قبلا.

عمر من الأبنية بل كانت من تشييد الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان ويقدس الصخرة هذه المسلمون والنصارى واليهود على سواء فيعتبرونها محور ارتفاع العام . حتى ليقال انها أقرب الى السماء من أية بقعة أخرى بمقدار ثمانية عشر ميلاً . ويجعلها المسلمون تلي الكعبة في قدسيتها .

ومع ان الصخرة لم يرد لها ذكر في العهد القديم فقد ورد ذكرها في التلمود والترجومة . لكن الأحاديث الاسلامية قد كبّرت هذه المادة الاسطورية وضخمتها جميعها . ومما تقوله ان الملائكة زاروا الصخرة قبل خلق آدم بألفي سنة ، واستوى فلك نوح عليها بعد الطوفان . ويقـــال انها صخرة من صخور الجنة بالفعل ، وسينفخ هنا في يوم الحشر اسرافيل الملك صوره الأخير . وقبل ان يحصل ذلك ستأتي الكعبة من مكة عروساً تتهادى مزفوفة إلى الصخرة . ويجزمون بأنها ترتكز على نخلة سوف تقوم عاصية امرأة فرعون ، ومريم أخت موسى ، بتزويد المؤمنين في ظلها بنشقة باردة من أنهر الجنة ، والمعتقد ان جميع مياه الأرض الحلوة قد نشأت من مكان ما تحتها . ويقول آخرون ان الصخرة معلقة بين السماء والأرض بمعجزة ، ولما كانت هذه العجيبة أغرب من أن تصدقها العيون البشرية فقد أُخفيت عن قصد بالمبنى الذي يحيط بها . وفي أسفل الصخرة مغارة يسمع من قاعها عندما تقع قدم الماشي عليها صوت أجوف يشير إلى وجود كهف تحتها ، أو ربما بئر ، وهي ما يسمى ببئر الأرواح حيث تجتمع — على ما يعتقد — الأرواح الراحلة عن هذا العالم مرتين في الاسبوع . ولا شك ان تجويف الجدران والمساحة هذا هو الذي نشأت عنه اسطورة تعلق الصخرة في وسط الهواء . ويقول الحديث ان جميع أنبياء الله سبحانه وتعالى الى حد النبي محمد (ع) كانوا قد صلوا على هذه الصخرة التي يحيط بها كل يوم حرس ملائكي مؤلف من سبعين ألف ملك . ويقال ان الله عز وجل أمر موسى بأن يضع الصخرة في موضع القبلة ، وكان في نية محمد ان يفعل الشيء نفسه لكن الله أوحى له أن يجعل القبلة نحو الكعبة في مكة المكرمة ، وقد حصل هذا التغيير في رجب من السنة الثانية للهجرة .

وحينما فتح عمر بيت المقدس وجد الصخرة مغطاة بالقذارة بحالة مزرية . فأمر بأن يقوم الأنباط بازالة هذه الأقذار ، وبعد أن طهّرت الصخرة ثلاث زخات قوية من المطر ، صلى فوقها . وفي سنة ٦٩ – ٧٢ (٦٨٨ – ٦٩١) بنى عبد الملك بن مروان قبـــة الصخرة ، وكان السبب المباشر لذلك الحالة السياسية في تلك الأيام.فقد آثرسكان الحرمين ،مكة والمدينة،الانحياز إلى منافس عبد الملك في الخلافة عبد الله بن الزبير . ولما كان عبد الملك يخشى من أن يعود رعاياه الفلسطينيون من حجهم إلى مكة في تلك الأيام وهم ملقحون بروح الثورة عزم على انتهاج خطة يحوّل فيها حجاج مكة من الذهاب الى المنطقة الثائرة ويوجههم بدلاً عنها الى بيت المقدس . وبعد أن جس نبض الناس بنشر مناشير تنص على عزمه هذا ، وبعد ان قوبل ذلك بالتأييد الحار (كذا) مضى في تنفيذ فكرته ووضع مشروعه في حيز التنفيذ ، وهو تزيين القدس بالأبنية الدينية المفخمة[1] . وبعد هذا أعلن لرعاياه قوله « ستكون هذه الصخرة لكم بمثابة الكعبة » ، ويستند في هذه الجملة على المؤرخ العربي اليعقوبي . ولتلافي مصروفات هذه البناية يقال انه خصص لها خراجمصر لمدة سبع سنوات ، وأمر بأن تكون الخزانة التي يصرف منها تشييد قبة الصخرة في مبنى صغير خاص خططه في جوار موقع القبة ؛ ويعرف اليوم بقبة السلسلة . وقد راق نظره هذا المبنى بحيث أمر بأن يكون مبنى قبة الصخرة على غراره . وكانت الصخرة يومذاك محاطة بمشبك من العاج وستائر مقصبة . وفي هذا الوقت علقت أيضاً درة ثمينـــة ، مع قرون كبش ابراهيم ، وتاج خسرو ، في السلسلة المعلقة في أواسط القبة . وحينما استولى العباسيون على الحكم انتقلت هذه المعلقات إلى الكعبة[2] . وقد كانت البناية في تلك الأيام مضخمة بالروائح والعطور بحيث

---

(١) استند كاتب البحث هذا في دائرة المعارف الاسلامية المترجم . ووكر الى الكاتب الفرنسي دي فوكيه : De Vogué — Le Temple de Jérusalem, P. 75

(٢) Besant, W. & Palmer, E.H. — Jerusalem the City of Herod & Saladin, 1871.

ان المرء الذي كان يزورها ويخرج منها يبقى العطر عالقاً فيه فيعرف بأنه كان فيهـــا .

والسبب الآخر الذي جعل عبد الملك يقدم على تشييد قبة الصخرة يذكره المقدسي . ويقول ان الخليفة لاحظ قبة كنيسة القيامة وبهاءها ، خوفاً من أن يؤثر ذلك في نفوس المسلمين وأنظارهم شيد القبة فوق الصخرة لتضاهيها وقد كان هناك اختلاف خلال مدة من الزمن حول المؤسس الحقيقي والباني لقبة الصخرة . حيث كان يبدو أنها أبدع مما يمكن أن يحققه العرب (كذا) فكان فيرغوسن يقول انها من صنع المعماريين البيزنطيين في أيام الامبراطور قسطنطين وانها كانت تدل على موقع الضريح المقدس. لكن كوندركان أبرز المعارضين لهذا الرأي . ولا شك ان عبد الملك استعان بالمعماريين اليونان في البناء . وكان يتيسر عدد غير قليل من الأعمدة اليونانية والتيجان بين أنقاض الكنائس التي هدمها الايرانيون . مما يمكن إدخالها في ضمن البناء بسهولة . ولذلك فان حجة فيرغوسن تناقض أدلة المؤرخين العرب عدا كونها على جانب من الخطأ .

ويدل على ان قبة الصخرة شيدها عبد الملك هو وجود الكتابة الكوفية المشهورة بالخط الأصفر في خلفية من الموزاييك الأزرق فوق الكورنيش المحيط بقاعدة القبة . وتنص على ان: « بنى هذه القبة عبد الله عبد االملك أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين » وحينما رمم البناء في عهد المأمون العباسي سنة ٨٣١ م . . وبني الجدار المثمن أزيلت بعض البلاطات واستبدلت بغيرها وهي تحمل اسم المأمون . لكن التزوير اكتشف بسهولة لأن موزاييك البلاطات الجديدة أعمق في لونه الأزرق والحروف المكتوبة فوق أكثر تحاشكاً وتقارباً .

وتاريخ قبة الصخرة معروف معرفة غير يسيرة في الأدبيات التاريخية . فقد تطلب الأمر ان يعاد ترميمهـــا وتجديدها عدة مرات في القرون التالية . ففي ١٠٩٩ دخـــل الصليبيون الى القدس فوهب بالدوين الثـــاني مبنى القبة إلى فرسان الهيكل لتصبح كنيسة لهم . فأعيد تزيينها من الداخل والخارج برسوم

نصرانية وصور لقديسين . ونصب مذبح من الرخام على الصخرة وصليب ذهب كبير في أعلى القبة ، كما نصبت شبكة حديد كبيرة ذات أربع بوابات من صنع الفرنسيين ما بين أعمدة الدائرة الداخلية . وقلبت المغارة في أسفل إلى مصلى . إذ كانوا يعتقدون بأنها قدس الأقداس فسموها « الكونفسيو » . وهكذا أصبح المبنى نموذجاً للكنائس التي ظل يبنيها فرسان الهيكل في أوربا ، وصارت القبة رمزاً لهذه الطريقة الرهبانية فأخذت تظهر في ختم « السيـــد الأعظم » . وفي الصورة التي رسمها الرسام الشهير رافائيل بعنوان « زواج العذراء » يبدو مبنى مضلعاً يذكر بقبة الصخرة ليرمز الى معبد يهودي .

وفي ١١٨٧ استعاد صلاح الدين الأيوبي المدينة المقدسة وأزال جميـــع الاضافات المسيحية من مبنى القبة . وتوجد في داخلها كتابة كتبها صلاح الدين لتسجل تجديده لها. وقد حصلت عدة تجديدات وترميمات منذ ذلك التاريخ أيضاً .

أما البناية فهي على شكل مثمن منتظم يبلغ طول ضلعها ستة وستين قدماً . كما يبلغ طول القطر من الداخل مائة واثنتين وخمسين قدماً ، وقطر القبة من قاعدتها ستة وستين قدماً . وترتفع القبة الى تسعة وتسعين قدماً ، وهي مـــن الخشب المغطى من الخارج بالرصاص ومن الداخل بالزخرف الجصي المذهب والمزين بالزينة الغنية . وتكوّن الآيات القرآنية المكتوبة كتابة متداخلة جميلة أفريزاً حول المبنى . وتحيط بالصخرة من الداخل أربع اسطوانات جسيمة واثنا عشر عموداً من الوسط . وعلى هذه كلها ترتكز القبة .

هذا ويبلغ طول الصخرة نفسها ستة وخمسين قدماً وعرضها أربعة وأربعين وهي تكاد تكوّن نصف دائرة في شكلها ، ويقع الجانب المقوس من الجهة الشرقية والجانب الأعلى المستقيم من الغرب . وتكوّن من الناحية الجيولوجية جزءاً من الطبقات الصلبة الرمادية التي تتكون منها هضبة القدس ، وقد أُبقيت خلال العصور كلها بحالتها الخشنة الطبيعية تقريباً . وعندما يزور الزائر الورع هذه البقعة عليه ان يجعل الصخرة الى يمينه حتى يكون طوافه حولها بعكس

الطواف حول الكعبة . ويقول ابن عبد ربه في العقد الفريد ان الزائر عندما يدخل الصخرة عليه ان يصلي في الأركان الثلاثة ، وعلى الرخامة التي تماثلها في القدسية لأنها تجثو فوق بابٍ من أبواب الجنة . والرخامة هي قطعة من التبليط بالقرب من « باب الجنة » ، والمفروض عند البعض أنها تدل على المكان الذي صلى فيه الخضر (الياس) بينما يعتقد آخرون أنها تغطي قبر سليمان . على ان الجميع يجزمون بأنها كانت في الأصل قطعة من أحجار الجنة ، وأنها تسمى « بلاطة الجنة » . وهناك حديث ينص على ان النبي محمداً دق في هذه الرخامة تسعة عشر مسماراً (ذهباً) لا بد من ان تقع منها بصورة دورية واحداً بعد آخر . وحينما تنقلع كلها تكون نهاية العالم قد أزفت . وقد كاد الشيطان ان يتمكن من قلعها كلها لولا ان يتدخل الملك جبرائيل في أحرج الأوقات ويحول دون ذلك . وقد بقيت فيها الآن ثلاثة مسامير بينما غار أحدها إلى الأسفل قليلاً ولذلك يمر الزوار الأتقياء من فوقها بهدوء وبطء لئلا يكونوا سبباً في قلع أحدها فيعجلوا بدنو يوم القيامة .

وبعد ان يسرد المستر ووكر ، كاتب البحث ، الأساطير هذه ويعتني بايرادها يأخذ بايراد غيرها ويقول : وعلى قطعةٍ منفصلة من عمود رخام تقع في جنوب غربي الصخرة ، وتغطي بقية غير متقنة الصنع تضم في داخلها أيضاً شعرات من لحية النبي عليه السلام ، يوجد « قدم محمد » ، وهو الذي خلفه وراءه في ليلة صعوده الى السماء على براقه الخاص . وقد كان هذا يعرف في أيام الصليبيين ، عندما احتل النصارى قبة الصخرة (بقدم عيسى) اما الثقب المدور في وسط الصخرة فهو البقعة التي حفر فيها جسد النبي فمرق منها الى أعلى . ويشاهد على مقربةٍ من ذلك سراج البراق نفسه بشكل عدة كِسَرٍ من الرخام . ويبدو واضحاً ايضاً في غرب الصخرة بصمة يد جبريل « كف سيدنا جبرائيل » ، وهو المكان الذي مسك الصخرة منه حينما كادت ان ترتفع مع محمد (ص) عند صعوده . وفيما يقابل هذا مباشرةً يُحتفظ برايات محمد ، وعمر ، ودرع الحمزة . وتُغطى الصناديق التي يُحتفظ في داخلها بهـذه

المخلفات طبقة من الغبار ، فيجمع هذا بعناية مرة واحدة في السنة ويباع بكميات قليلة جداً للاستعمال كدواء شافٍ من جميع الأمراض . وهناك انخفاض بسيط في التبليط القريب من جهة الصخرة الغربية يقال إنه أثر قدم النبي ادريس وفي الزاوية الشمالية الشرقية « راوزونة » تسمى « قبلة الأنبياء » . وهناك كذلك عدة نسخ قديمة من القرآن الكريم وحاجز قصير يطلق عليه « تقليد سيف علي».

ويتم الدخول إلى المغارة في الأسفل عن طريق « باب المغارة » الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية للصخرة . وينزل الزوار بتواضع الاحدى عشرة درجة فيها وهم يقرأون ما يعرف بصلاة سليمان : « ربي اغفر للمذنبين الذين يأتون إلى هنا وأغث المظلومين » . ويبلغ معدل ارتفاع المغارة ست أقدام، ويمكن ان يلاحظ في سقفها أثر رأس النبي محمد . وقد بُلطت أرضيتها بالرخام وصبغت جدرانها بالأبيض . والمقول إنها يمكن ان تسع اثنين وستين شخصاً (المرجع هو ابن الفقيه) . وهناك نتوء في الصخرة بارز للعيان يسمى « لسان الصخرة » لأنه سلّم على عمر في احدى المناسبات . ويشاهدهناك كذلك عمود نحيف يعتقد بأنه هو الذي ترتكز عليه الصخرة . ويلفت الدليل نظر الزائرين كذلك الى « محراب سليمان » في الجهة اليمنى ، ومقام الخليل في الجهة اليسرى ، وفي الزاوية الشمالية الى مقام الخضر والى محراب داود في الجهة المقابلة .

وهناك في جنوب شرقي الصخرة سلّم يؤدي الى شرفة الصخرة ، ومنها يمكن الوصول إلى الهلال المنتصب فوق القمة . اما الثناء الذي يطري به المقدسي القبة فلا يزال يصح في يومنا هذا كذلك : وعند الفجر حينما تبدأ أشعة الشمس بمداعبة القبة ويستقبل سطحها خيوطها الذهبية يتكون منظر عجيب خلاب ، لم أرَ مثيلاً له في بلاد الاسلام جميعها قط .

هذا ويورد المستشرق الانكليزي لسترانج[1] تفصيلات كثيرة عن قبة الصخرة وتاريخ كل شيء عنها . وقد رأينا من المناسب ان نقتبس نتفاً مما كتب

(١) في كتابه المشار اليه قبلا .

في هذا المجال . فهو يقول انه يفهم من التفصيلات التي دونها المؤرخون العرب ان بناء القبة الذي شيده عبد الملك بن مروان في سنة ٦٩١ (٧٢ هـ) هو من حيث المخطط نفس البناء الذي نشاهده في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً فقد رممت القبة او البناء الخارجي وأُعيد بناؤها في عدة مناسبات ، لا سيما بعد الزلزال ، لكن المخطط المثمن بقي على حاله .

ثم يبحث لسترانج في قدسية المكان عند المسلمين فيقول ان قدسية الصخرة تبنى على شيئين : ١- انها تمثل قبلة النبي موسى القديمة ٢- لأنها كانت قبلة الاسلام الاولى إذ لم ينزل الوحي على النبي عليه السلام بجعل القبة تتجه الى مكة إلا في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة . يضاف إلى ذلك ان المسلمين يعتقدون ان النبي صعد الى الجنة من فوق هذه الصخرة ، وعاد إلى الأرض فنزل في هذه البقعة أيضاً . وقد اتخذ عبد الملك هذه القدسية ذريعةً له ، حينما حاربه منافسه عبد الله بن الزبير واستولى على الحجاز ، يوجه بها أنظار المسلمين إليها . وينقل عن المؤلف بالمر (المشار اليه قبلاً) مايأتي في وصف أحوال الخلافة الأموية في الفترة التي بنيت فيها قبة الصخرة .

.. لقد حدثت على عهد الملك بن مروان سنة ٦٨٤ م حوادث لفتتت الأنظار الى مدينة داود مرةً أخرى . فقد ظلت الامبراطورية الاسلامي تعاني الانقسامات الخطيرة والنزاعات الحزبية مدة ثماني سنوات . إذ ثار سكان المدينتين المقدستين مكة والمدينة ضد السلطات الحاكمة ونادوا بعبد الله بن الزبير رئيساً روحياً ودنيوياً لهم .. واستطاع الثائر المغتصب ان يحصل على اعتراف جزيرة العرب و الأمصار الأفريقية به ، وجعل مقر حكومته في مكة نفسها . فارتجف عبد الملك هلعاً من ذلك وخاف على ملكه من الزوال .. ولأجل أن يتحاشى النتائج الوخيمة ، ويضعف خصمه في الوقت نفسه ، فكّر في إبعاد الناس عن الحج الى مكة واقناعهم بأن يحجوا إلى بيت المقدس .

ويذكر لسترانج بعد هذا ان اليعقوبي يورد وصفاً واضحـاً لكيفية تشبث عبد الملك ، للأسباب السياسية المذكورة ، في جعل المسلمين يطوفون حول

صخرة بيت المقدس ويحلونها في محـــل الحجر الأسود الموجود في مكة في نفوسهم . ولو نجحت المحاولة لعمد الخليفة الى وضع شعائر سنوية خاصة للحج الى بيت المقدس ، على غرار الشعائر التي ظلت تقام في الحرم المكّي المقدس منذ أيام النبي عليه السلام ، ولتحوّل تدفـــق سيل الذهاب المستمد مما يقدمه الحجاج من قرابين وأضاحي ورسوم إلى خزانة عبد الملك نفسه بدلاً من ان يذهب الى جيوب سكان مكة الذين كانوا يومذاك يؤيدون خصمه ابن الزبير في مطالبته بالخلافة . ولو نجح عبد الملك في هذا لكان من الممكن أيضاً أن تصبح القدس عاصمةً للأمويين بدلاً من دمشق . غير ان الحوادث أثبتت بعد ذلك ان الخليفة الأموي فشل في حمل الحجاج المسلمين على التوجه الى المدينة المقدسة في فلسطين ، ولم تخسر مكة تميزها في كونها مركز الاسلام المقدس ، حتى عندما اندحر ابن الزبير وقتل ، وبقيت دمشق عاصمةً للخلافة الأموية .

ثم يورد لسترانج نص رواية اليعقوبي التي يقول فيها ان المسلمين حينما احتجوا لدى عبد الملك مستنكرين إقدامه على هذه البدعة في الاسلام أجابهم يقول : ألم يروِ ابن شهاب الزهري حديثاً عـــن الرسول يقول فيه..ان الناس سيشدون الرحال الى مساجد ثلاثة : المسجد الحرام ومسجدي، والمسجد الأقصى وبعد ذلك بنى عبد الملك قبة فوق الصخرة وعلق الأستار حولها ، ثم عين لها سدنة وبوابين . وتعوّد الناس على الطواف حول الصخرة كما كانوا يفعلون حول الكعبة في مكة المكرمة ، واستمرت هذه العادة في أيام الخلفاء الأمويين جميعها من بعده .

ونورد تعليقاً على ما يذكره لسترانج في هذا الشأن ما يذكره المستشرق الألماني فلهاوزن (الص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ الترجمة العربية) ، الذي مرت الأشارة إليه ، ان خلفاء بني أمية لكي يزيدوا في رجحان كفة الشام من الناحية السياسية حاولوا فيما حاولوا نقل مركز الشعائر الدينية الى الشام .. وهنا يذكر قصة النزاع بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير المبينة قبل هذا ، ويضيف الى ذلك قوله ولكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من احلال القدس في محل مكة ،

بمجرد ان امتد سلطانه الى ماوراء بلاد الشام . وقد بدا ان فكرة إحلال بيت المقدس محل مكة الاسلامية كلها فكرة لا يمكن تنفيذها . ولكن عبد الملك حاول فيما بعد ان يجعل للشام شأناً دينياً على حساب ما كان للمدينة من شأن ، ومن قبله كان معاوية قد أمر سنة ٥٠ هـ بأن يحمل المنبر النبوي الى الشام .. فرجع عما أراد .. وقد همّ عبد الملك بما كان معاوية قد همّ به ، ولكن صاحب خاتمه صرفه عن ذلك . ويقال ان ابنه الوليد همّ مرةً أخرى بما همّ به أبوه ، ولكنه كف عن ذلك لما طلب سعيد بن المسيب من عمر بن عبد العزيز ان يكلّم الوليد في ان لا يتعرض الى سخط الله عزّ وجل .. ويروى ان خالد بن عبد الله القسري قال : لو أمرني أمير المؤمنين لنقضت الكعبة حجراً حجراً ونقلتها الى الشام .

ويقول فلهاوزن في مناسبة أخرى (الص ٢١٧) ان الوليد قد نفذ ما يقال ان أباه عبد الملك كان قد عزم عليه وتركه ، وهو انه أخذ من النصارى في دمشق كنيسة القديس يوحنا فوسّع بها المسجد الملاصق لها وجدده تجديداً رائعاً في سنة ٨٤ هـ . وأخذ من كنيسة نصرانية في بعلبك قبتها النحاسية المطلية بالذهب ووضعها في بيت المقدس فوق الصخرة المقدسة . ويذكر (الص ٣٦٨) عند حديثه عن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أنه هدم أسوار حمص وبعلبك ودمشق وبيت المقدس لأنه لاقى مقاومةً منها حينما أخذ الخلافة بالقوة .

ويروي لسترانج كذلك عن المقدسي ان اهتمام عبد الملك بتعمير قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وبناء أبنية شامخة باذخة فيهما هو مضاهاة الكنائس الكبيرة التي كان النصارى قد شيدوها بفخامة في بيت المقدس من قبل ، واقناع المسلمين بعدم التأثر بها والتوجه نحو مساجدهم لا غير .

ومما ورد في دائرة المعارف اليهودية[1] عن بناء قبة الصخرة قولها نقلاً عن مجير الدين ان عبد الملك حينما بناها استخدم فيمن استخدم عشر أسر يهودية

---

(١) Jewish Encyclopedia المشار اليه من قبل .

وأعفاها من الجزية . فتكاثرت هذه الأسر بمرور الزمن بحيث اضطر عمر بن عبد العزيز الى تنحيتهم عن خدمتها .. وكانت كذلك بين خدم الحرم القدسي نفسه جماعة أخرى من اليهود تقوم بصنع زجاج الفوانيس والمصابيح ، والأوعية الزجاجية . ولم تكن تجبى الجزية منها ، ولا من اليهود الذين كانوا يصنعون فتائل المصابيح أيضاً .

وصف كريسويل لقبة الصخرة

اما كريسويل المختص بفن العمارة الاسلامية فيسهب في وصف قبة الصخرة ويأتي على كل جزء من أجزائها بالتفصيل في كتابه[1] المشار اليه قبل هذه (الص ١٧ — ٤٠) . فهو بعد أن يذكر سبب انشاء القبة يقول ان الصخرة قطعة غير منتظمة من الحجر الطبيعي تجثم في وسط منطقة الهيكل في القدس ، التي تسمى منطقة الحرم الشريف. وهي تكوّن بالفعل قمة جبل موريا . وهناك كل الأسباب التي تدعونا الى الاعتقاد بأن هذه الصخرة هي ما اطلق عليها الحاج الفرنسي القادم من بوردو (٣٣٣ م) Lapis pertusus ، والتي يقــول ان اليهود كانوا يأتون اليها مرة في السنة فيمسحون بالزيت على سبيل التكريس ويبكون ثم يمزقون ثيابهم ويرحلون عنها[2] . وهي الأساس الحقيقي لهيكل « القرابين المحترقة » ، حيث تكوّن المغارة تحتها « الحفرة التي كانت في اسفل الهيكل ، التي يتجمع فيها دم الضحايا المختلط بالماء المستعمل للتطهير » .

ولما كانت هذه القبة أقدم أثر موجود للعمارة الإسلامية فإن المعرفة الدقيقة عن منشئها الأصلي تعد على جانب كبير من الأهمية ، ويقول : «ساحاول الآن أن أصفها بالشكل الذي كانت عليه في ايام عبد الملك » فهي حلقية الشكل تتألف من قبة جوفاء عالية يتخللها ستة عشر شباكاً ، وترتكز على أربع ركائز مبنية

---

(١) A Short Account of Early Muslim Architecture

(٢) Geyer — Itinera Heirosolymitana, P. 21

(دنلك) واثني عشر عموداً تقف كلها في دائرة تتسع اتساعاً يكفي للاحاطة بالصخرة ، وتترتب بحيث تتناوب كل اسطوانة ثلاثة أعمدة منها مع ركيزة بنائية واحدة . وبذلك تتكون اسطوانة وسطية يتساوى قطرها مع ارتفاعها. تقريباً . وتقع دائرة الركائز في وسط مثمّن كبير يبلغ معدل طول كل ضلع منه ٢٠,٦٠ متراً (٦٧,٥ قدماً) ، وتكون هذا المثمن ثمانية جدران يبلغ ارتفاعها ٩,٥٠ متراً (٢٩,٥ قدمـاً) . وهنـاك من الخارج سبع فسحات بين الأعمدة في كل ضلع ، لكن الفسحات الواقعة في الزوايا هي حشوات غير مفتوحة . وتتخلل سائر الفسحات من الأعلى خمسة شبابيك . وهناك باب عرضه ٢,٦٠ متراً (٨ اقدام) وارتفاعه ٤,٣٠ متراً (١٤ قدماً) في كل ضلع من أضلاع المثمن التي تقابل الجهـات الأصلية ، ولذلك يكون الشـباك الوسطي الكائن فوق الباب في هذه الأضلاع أصغر بكثير من الشبابيك الأخرى . ولما كان الفضاء الحاصل ما بين الدائرة والمثمن واسعاً بحيث يصعب تسقيفه بعارضات (جسور) منفردة ، فقد أقيم مثمن أوسط يتألف من أربعة وعشرين عقداً تحملها ثمان ركائز بنائية وستة عشر عموداً مرتبة بحيث يتناوب كل عمودين مع ركيزة واحدة لتهيئة الدعم المطلوب للسقف . ولذلك فقد قصد بالرواقين اللذين يدور أحدهما حول الآخر ما بين الدائرة والمثمن ان يطوف الناس عن طريقهما طوافهم المقدس حول الصخرة . ويغطي هذين الرواقين الانحدار من الخشب المغلف بالرصاص . وتضاء داخلية القبة بستة وخمسين شباكاً يترتب وضعها كالآتي : خمسة في كل ضلع من أضلاع المثمن فيكون مجموعها أربعين ، وستة عشر شباكاً في الأسطوانة الكبيرة . وبهذا يكون العدد المجموع ستة وخمسين ، وهو العدد المطابق لما جاء في رواية ابن الفقيه سنة ٩٠٣م .

وحينما يدخل المرء الى الداخل يجابه بداخلية تسيطر عليها الروعة والسناء ، وتتلألأ بحشوات الرخام وأعمدتها التي تعلوها تيجان مذهبة ، وبالموزاييك الملون بالأخضر والأزرق والذهبي واللؤلؤي . وتقوم امام الداخل مباشرةً العقود

الثلاثة التي تعود لضلعٍ من أضلاع المثمن الأوسط . وهي ترتكز على عمودين رخام يقومان ما بين الركيزتين المغلفتين بالرخام ايضاً . وتمتد مـــن فوق تاجيهما المذهبين عارضات رابطة جسيمة يغطي جانبها الأسفل بصفائح معدنية مزخرفة بزخرفٍ نافر . وتنقش وتذهب على شاكلة العارضات التي تمتد من فوق المداخل الأربعة . وتزخرف سطوح العقود بموزايك متلألئ يلاحظ الرائي من ورائه دائرة الركائز الداخلية التي يتبين من بين عقودها الزخرف الضخم المعمول في القبة الخشبية بكتاباتٍ ونقوش مكحلة بالذهب . وليس بوسع المرء ان ينسى ذلك المنظر مطلقاً . وإذا ما نقّلَ طرفه في كل مكان يلاحظ ان الجدران تغلف من أعلاها الى أسفلها بحشوات من ارباع الرخام وتتخللها ستة وثلاثون شباكا من الشبابيك الجميلة .

ويتطرق كريسويل كذلك (الص ٣١) الى زخرفة مبنى قبة الصخرة بالتفصيل . فيقول ان القسم الأعلى من الجدران الخارجية والاسطوانة أيضاً كانت في الأصل مع أنها مغلفة في الوقت الحاضر بحشوات من الخزف المزخرف مغطاة بالذهب والموزاييك الملون . وهذا ما ذكره أبوت دانيل (١١٠٦م) وجون ورزبورغ (١١٦٥م) وثيودريك (١١٧٢م) ووبليام الصوري (١١٨٤) وغيرهم . ولم يستبدل السلطان سليمان الغلاف القديم بغلاف الخزف الحالي الا في سنة ١٥٥٢م . وقد جدد هذا الغلاف عدة مرات منذ ذلك الوقت ويرى البعض ان أفخر قسم فيه هو على درجةٍ من الجودة بحيث يمكن ارجاعه الى عهد يسبقه عهد السلطان سليمان . ولذلك يجب ان يؤكد عـــلى ان هـــذا الرأي لا ينطبق على الواقع . لأن چودي الألماني يقول (في ١٥١٩) :

. والجدران مغلفة من الخارج بشغل الموزاييك الغالي الثمن . ومع ان كنيسة سان مارك في البندقية ، وكنيسة القيامة في القدس ، وكنيسة بيت لحم قد

شغلت بنفس الشغل في الداخل فلا توجد هناك صور في قبة الصخرة سوى صور ملائكة (١) .

ويقول انطونيو دي أراندا (في ١٥٣٠) ان هذا المبنى مكسو من الخارج كله من حد وسط الى أسفل برخامٍ ثمين جداً ، ومكسو من الوسط الى أعلى بالموزاييك الفاخر والزخرف المورق وسائر الزخارف الجصية البديعة (٢) .

ويصفه في الأخير بانيتليو دافيرو في ١٥٥٢ فيقول انه مغلف من الأرض الى الوسط بالواح كبيرة لماعة من أفخر الرخام ، ومن الوسط الى حد الصبّة الاولى في الأعلى باغلى الموزاييك وأبدعه مع نقوش كثيرة فيها أغصان وأوراد وسائر أنواع الأزهار الجميلة (٣) .

وفي هذه السنة غلفت الجدران الخارجية بالخزف المزخرف على ما يفهم من كتابة منقوشة فوق الباب الشمالية . وكانت الأسطوانة قد غلفت من قبل في سنة ١٥٤٥ — ٤٦ . ويذكر زوالارت عن التغليف الجديد الذي تم في ١٥٨٦ قوله ان المبنى تمت زخرفته من الخارج بألواحٍ من الرخام وبلاطات ملونة في القسم الأعلى منه على طريقة دمشق ، وبالرخام الأبيض من أسفل (٤) .

وقد ذكرنا من قبل ان عقود أروقة المداخل الأربعة جميعها كانت مزينة من دون شك بالموزاييك . اما الوجه الداخلي للجدار الخارجي فهو مغلف اعلاه الى اسفله بحشوات من أرباع الرخام مع نطاق زخرفي بالأسود والذهبي يبلغ عرضه خمسين سنتمتراً (١٩,٥ بوصة) ويمتد حول الداخل كله الى ارتفاع ٣,٨٥ متراً (١٢,٥ قدماً) .

---

(١) Reiss und Bilgerfahrt zum Hyligen Grable, p. 226-7.

(٢) Verdadera informacio di la Tierra Santa.

(٣) Itinerario di Terra Santa fl. 115 a.

(٤) Il devotissimo Viggio di Gerusalemme, P. 161.

وتملأ الفتحات المروحية الأربع فوق عتبات الأبواب العليا امتلاءً مختلفاً . إذ تملأ الموجودة فوق المدخلين الشرقي والغربي بمصبّعات حجرية تتألف من أنصاف دوائر متراكبة مثل الكثير من المصعبات الرومانية ، وقـد تكون مبتكرة . اما الاثنتان الأخريان فتعودان الى وقت متأخر . وتحاط الكوتـان الجنوبية والغربية بأطارين يشبه زخرفهما زخرفاً الغطاء المعدني الذي يغطي العتبات في أسفل .

وتغلف الركائز البنائية الثمان العائدة للمثمن بالرخام ، كما يدور الكورنيش الكورينثي الذي يزين الجهات الداخلية للعارضات الرابطة حول الوجه الداخلي للركائز . فيكون كورنيشاً خاصاً يكون كل شيء فوقه مغطى بالموزاييك . ولما كان سطح العقود يتألف من سلسلة فتحات مثلثة تقريباً ، فقد رسم الفنان الذي رسمها أشكاله على محور كل عمود من الأعمدة . وتنشأ من فوق كل تاج من تيجان الأعمدة شجرة غريبة الشكل فتنتشر يميناً وشمالاً باتساع المجال لها ، وبذلك ينشأ عنها ما يسميه ستريزكوفسكي بالتعبير الزخرفي الشمعداني . وتكون هذه ملبسة بالجواهر والأقراط والقلائد ، وحتى بعناقيد من العنب.

ولكن الزخرفة في نهاية كل عقد من العقود المجاورة للركيزة البنائية حيث يكون الفضاء الباقي بقدر نصف الفضاء الموجود فوق الأعمدة فقط ، تكون من نوعٍ آخر. فبدلاً من ان تبدأ مجموعة الزخارف من أسفل تبدأ من قمة العقد وتنزل الى جانب الركيزة البنائية . وتتألف بصورة عامة من نبات قرن الرخا (كودنوكوبيا)يمتد أحد سيقانه الى الخارج فيتلوى على شاكلة اللولب الى الداخل . وينتهي في إحدى الحالات الى تعبير زخرفي يشيع وجوده في أبنية عربية أخرى . ويتوج جميع هذا الزخرف نطاق من الكتابة الكوفية يبلغ طوله حوالي مئتين وأربعين متراً ، فينتهي في الوجه الخارجي للعقد الجنوبي بالتاريخ ٧٢ للهجرة (٦٩١ م) .

وتُزين سطوح الركائز البنائية العريضة بأزواج من سيقان نبات شوكـة اليهود (أكانثوس) تنشأ من جذر النبات نفسه فتتلبس بالقلائد والأقراط وما

اشبه ، لكن الأجنحة الضيقة تتألف زينتها على الدوام من شجرة تحاكي الطبيعة في شكلها ، أو من مجموعة خيالية تحتوي على أشكال مختلفة تتراكب بعضها فوق بعض . وهنا يوجد شيء يلفت النظر : فهناك ثمان ركائز بنائية ، ولذلك هناك أيضاً ستة عشر جناحاً لكن الملحوظ ان ثمانية أجنحة متتالية تزخرف كل منها بشجرة ، بينما تزخرف الثمانية الأخرى بخليط عجيب من الأشكال يجعلني استنتج بأن اناساً من مدرستين فنيتين مختلفتين تعتنق كل منهما قواعد فنية مختلفة عن الأخرى وقد تقاسموا العمل فيما بينهم . ولا استطيع الاحجام هنا عن لفت النظر بصورة خاصة الى التركيب الجميل الموجود في الزخرف المحتوي على نخلة من النخيل يهب عليها الهواء وما فيها من تفوق غير قابل للقياس على نماذج موزاييك الا « رافينا » الموجود في قطع الزخرف . ويجب ان تلاحظ كذلك الشجرة الصغيرة الموجودة في كل جهة من جهتي الجذع ، لأننا هنا نلاحظ القاعدة الأساسية المعروفة في الفن الاسلامي — وهي قاعدة تغطية الفراغ تغطية متساوية متناسقة . وتغلف ركائز القبة البنائية الأربع أيضاً بالرخام من جهاتها الأربع كلها ، لكن أجنحتها تُزين علاوةً على ذلك بحشوات أو سرر من الزينة المذهبة . فهي مزينة بكورنيشات فيها شيء بسيط من الانحدار ومزخرفة بلفائف من نبات شوكة اليهود (أكانثوس) يعلوها (على ارتفاع ٦,٩٠ متراً من الأرضية تقريباً) زخرف بالموزاييك كما هي الحال في خصور العقود. على أن العقود تزينها ألواح متناوبة من الرخام الأبيض والأسود ، يحتمل انها وضعت لتخفي التلف الذي أصاب حواشي الموزاييك لأن الأشكال تبدو مقتطعة بها وقد كانت هذه موجودة في سنة ١٣٤٤ م كما يفهم مما يذكره العمري ، ولذلك فمن المحتمل ان يكون السلطان الناصر محمد هو الذي وضعها في ١٣١٨ — ١٩ .

اما الوجه الداخلي للأسطوانة فهو مزخرف كالآتي : فهناك أولاً واجهة

رخام تغطي العقود وخصورها ، ويتوج هذه نطاق من زينة تضاهي الزينة التي تكوّن كورنيش ركائز القبة البنائية . ويعلو هذا النطاق ربع دورة كبيرة من الحلية المعمارية المقولبة مغطاة بالموزاييك . وتأتي فوق هذا الأسطوانة الأصلية نفسها التي يزينها نطاقان كبيران من الموزاييك تحجز بينهما حاية مقبولة كبيرة . ويبلغ قياس هذين النطاقين معاً ٩.٤٠ متراً . وتوجد في النطاق الأعلى منهما الشبابيك الستة عشر التي تجلس أساكفها (عتباتها) على الحلية المقولبة الكبيرة نفسها . ويتوّج النطاق الأعلى كذلك كورنيش خشبي تستقر فوقه . على ارتفاع ٢٠.٤٠ متراً من الأرض العقود العمياء (المغلقة) الكائنة في قاعدة القبة .

القدس والحروب الصليبية

لا يخفى ان القدس وسائر الأماكن المقدسة في فلسطين كانت هي السبب المباشر الذي اتخذه الصليبيون ذريعةً لشن حروبهم على الشرق الاسلامي في تلك الايام . وقد مرت القدس . وما جاورها من البلاد . خلال الحقبة الطويلة التي استدامت فيها الحروب الصليبية في فترات عصيبة من تاريخها لا تختلف كثيراً عن فترات التاريخ الأخرى التي تميزت بالمآسي والنكبات وظلم الانسان لأخيه الانسان . وقد كتبت كتب كثيرة في الشرق والغرب عن الحروب الصليبية هذه . ويذهب كثير منها الى ان الغزو الصليبي الوحشي للأراضي المقدسة وما يحيط بها من البلاد لم يكن الدافع اليه دافعاً دينياً حقاً كما تفيد التسمية أو كمـــا يريد البعض ان يفكر فيه . وانما كان دافعاً استعمارياً أُسبغت عليه الصبغة الدينية التي كانت تروج في ذلك العصر والأوان . وسوف يلاحظ القارىء مما نورده من المقتبسات الغربية المنصفة عظم الجرائم الانسانية . والأعمال الوحشية التي اقترفوها باسم الدين . ومع ذلك فقد استطاعت البلاد العربية يومذاك . وهي حامية العتبات المقدسة للأديان السماوية جميعها . ان تصمد صموداً كان فيه خير حل للمشكلة الانسانية وكافحت كفاحاً لا بد لها من ان تعيده في يوم محنتها هذا لتحق الحق برغم ما يبيته لها الأعداء .

وقد وجدنا ان خير من يكتب عن هذه الفترة من المؤرخين . ويأتي بحقائق ناصعة تستند الى أحسن المصادر الغربية هو السيد أمير علي المؤرخ الهندي المسلم الذي تثقف بالثقافة الغربية وتشبع بها الى جانب ثقافته الاسلامية حتى وصل الى ان صار عضواً في مجلس شورى الملك في انكلتره . وألف كتباً كثيرة عن الاسلام باللغة الانكليزية أهمها « روح الاسلام » و « القانون الاسلامي » وكتاب « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي » (١) الذي سنقتبس منه لهذا

Ali, Ameer — A Short History of the Saracens (١)

البحث بعض ما كتبه عن القدس وعن الحملات الصليبية وأحوالها .

فهو يبدأ بحثه هذا بالتمهيد لما يكتبه[١] عن الصليبيين وحروبهم بوصف عام لحالة المسيحيين المرفهة في البلاد الاسلامية يومذاك والتسامح الذي يبديه المسلمون تجاههم ، ثم يقول : غير ان هذا التسامح الرائع لم يكن ليخفف من غلواء هؤلاء المتهوسين الذين كانوا ينظرون إلى بقاء المسلمين في القدس بعين البغض والاستنكار .

ويتابع بحثه فيقول : وكان الحجاج يزورون الأرض المقدسة ، ويلاقون فيها من العرب ضروب الرعاية والكرم .. ولكنهم كانوا بالرغم من كل ذلك يعودون الى بلادهم وقد امتلأت قلوبهم حسداً وحقداً . فما كاد ينتهي القرن العاشر حتى اعتقد المسيحيون اعتقاداً جازماً ان ساعة الخلاص قد أزفت ، وان العصر الألفي السعيد قد حل أو كاد . وبهذا الاعتقاد طفقت جموع المهاجرين تتدفق من العالم اللاتيني على الأرض المقدسة . وفي القرن الحادي عشر ازداد عددهم زيادةً هائلة .

وفي ذلك الحين كان حكم فلسطين قد انتقل الى أسرة أرتق التركمانية .. وكان هؤلاء يجهلون الحماسة التي كانت تتأجج في قلوب الأجانب ، فلم يعاملوهم بالتسامح الذي كان يعاملهم به الحكام الأولون . لذلك كان هؤلاء الحجاج المتعصبون اذا ما عادوا الى أوطانهم شوهوا الحقيقة وشنعوا بالمسلمين .. حتى عقد البابا أربان الثاني أخيراً مجلساً في بلاسنشيا في آذار ١٠٩٥ ومجلساً آخر في كليرمونت في تشرين الثاني وخطب معلناً ضرورة انقاذ ضريح المسيح في القدس من أيدي الكفار (كذا) كما أعلن غفران ذنوب الخاطئين الذين يلتحقون بالجهاد الديني . ووعد الذين يموتون في سبيل هذه الحرب بجنات الخلد . غير ان الباعث الحقيقي لتلك الحروب الصليبية الدامية كان في الواقع

---

(٢) الص ٢٧٦ - ٣٣٤ من الترجمة العربية التي اضطلع بها السيد رياض رأفت ، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨) .

الهوس الديني الممزوج بأغراض أخرى كالميل الى تأسيس ممالك جديدة . والحصول على ثروات طائلة . والرغبة الملحة التي سرت في أعماق النفوس الوضيعة في احتساء الأنبذة الشرقية . والتمتع بفتنة الكرجيات .. ويقول المؤرخ هالام (١) انهم تذرعوا بكل وسيلة لنشر هذا الجنون الوبائي . وكان الجندي في خلال الحملات الصليبية معفى من العقبات ويضمن له النعيم الأبدي .

وبعد ان يصف الحروب الصليبية الأولى والثانية والثالثة وأهوالها وفظاعاتها . ولا سيما ما حدث منها في الاستيلاء على انطاكية يورد السيد أمير علي وصف المؤرخ الفرنسي المسيو ميشو لما جرى خلال استيلاء الصليبيين على القدس في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ م . على الوجه الآتي :

.. وكان المسلمون يذبحون ذبح الأنعام في الشوارع والمنازل . ولم يجد أهل المدينة محلاً أميناً يعتصمون به فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار . وازدحم البعض الآخر في القصور والحصون والمساجد ولكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك إخفاء أنفسهم من متعقبيهم . فحاصر الصليبيون جامع عمر الذي اعتصم فيه المسلمون وجددوا تلك المناظر الوحشية التي تعد وصمة في جبين فرسان التوتون . إذ هجم الجنود على الهاربين وأعملوا السيف في رقابهم في غير ما شفقة ولا رحمة . ولم يكن يسمع في تلك الساعة الرهيبة غير أنين الجرحى وحشرجة الموتى . وطئوا كذلك بخيولهم الجثث المكدسة في أثناء مطاردة الهاربين . ويقول ريموند دي آغيل الذي شهد تلك الموقعة : "كانت الدماء قد وصلت في رواق المسجد الى الركب (٢) . ولم يكف الصليبيون عن السفك الا عندما تقدموا الى الله بالابتهال والشكر على نجاحهم . ولكنهم ما كادوا ينتهون من صلاتهم حتى واصلوا الفتك والقتل مرة أخرى وذبحوا في

---

(١) Hallam — The Middle Ages

(٢) لقد كتب الصليبيون الى البابا يهنئونه بفتح بيت المقدس بقولهم : اذا أردت ان تعلم بما جرى لأعدائنا فثق انه في هيكل سليمان وأيوانه كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء الشرقيين الى ركبها ! !

هذه المرة جميع من أبقوا على حياتهم رجاء ان ينالوا منهم الفدية . وقد اضطر بعض سكان القدس إلى إلقاء نفسه من أعلى الحصون والمنازل . كما أحرق الصليبيون البعض حياً . ثم جاءوا بالذين كانوا قد لاذوا بالفرار ووضعوهم على جثث الموتى المكدسة . وأخذوا يمثلون بهم أشنع تمثيل . ولم تكن تجدي في ذلك الموقف الدامي دموع النساء ولا صراخ الأطفال . ولا منظر البلد الذي صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه . فكل هذه المناظر المثيرة للرحمة والعطف لم تكن لتلين قلوبهم القاسية .

ويقول مؤرخ آخر (ميلز ج ١ . الص ٢٧٨) ان الصليبيين كانوا قد صمموا فيما بينهم على ان لا يظهروا عطفاً أو رحمة نحو المسلمين . ولهذا كانوا يسوقونهم الى الميادين العامة وينكلون بهم شر تنكيل دون ان يبقوا على أحد . فكانوا يذبحون النساء والأطفال والبنات والاولاد على حد سواء . حتى أصبحت ميادين القدس وشوارعها ملأى بالجثث وأشلاء الأطفال من غير ما شفقة ولا رحمة . وعلى هذا النحو هلك في القدس وحدها زهاء سبعين الفاً ! !

وبعد ان فتح الصليبيون بيت المقدس على هذه الشاكلة انتخبوا غودفري ملكاً عليها . ولكن أخاه بولدوين خلفه بعد سنة وشرع يحاصر قيصرية .. وعندما دخلوها لم يراعوا حرمة العهود وذبحوا السكان الآمنين في غير ما شفقة ولا رحمة .. وعلى هذا النحو انتقلت فلسطين وجزء من بلاد الشام الى أيدي الافرنج الذين أسسوا فيها النظام الاقطاعي الذي كان شائعاً في أوربة يومذاك ..

ويقول الكاتب الأمريكي انطوني ويست(١) في (الحروب الصليبية) ، الص ٧٢ (: وشرع الصليبيون في مسير طويل شاق عند نزولهم مع الساحل الفلسطيني ، فقد مروا بقمم جبل لبنان وبمدينتي صور وصيدا ثم عكا ويافا . ومن هذه المدينة استداروا الى الداخل . وبعد مضي ستة أشهر على مغادرتهم

---

(١) West, Anthony — The Crusades (N.Y. 1954)
وهو كتاب ترجمه شكري محمود نديم لمؤسسة فرانكلن ، بغداد ١٩٦٧ .

انطاكية وصلوا قمة المضيق الجبلي الذي يفصل بيت المقدس عن البحر وعسكروا فيه لقضاء ليلتهم .. وفي صبيحة اليوم التالي تسلقوا جبل المشارف في بردٍ قارس قبيل الفجر . وعند بزوغ الشمس بدى أمام أعينهم بيت المقدس .

وملأهم المنظر بمزيج من الفرح والرعب . فقد كانوا يتوقعون رؤية أرض الميعاد وهي تفيض لبناً وعسلاً وتختلف عن الجبل الأجرد الذي تسلّقوه الآن ، الا أن المنظر الممتد أمامهم لم يكن سوى وادٍ مغبر أكسبته شمس الصيف لوناً بنياً . وكانت بيت المقدس أمنع قلاع العالم القديم ، وهي قائمة على جبل تتوج أسوارها قطوع جانبية عميقة لثلاثة وديان صخرية . ومنذ ألفي عام بذل حكامها جهدهم واحداً بعد آخر لجعل القلعة لا تقتحم . وعندما اقترب النصارى من المدينة طغى عليهم عزم جنوني بأن لا شيء يحول بينهم وبين الاستيلاء عليها . ووجدوا ان المسلمين قد ردموا الآبار ضمن أميال متعددة في كل اتجاه . فمكث الصليبيون حيث هم متمونين بالمياه التي كانت تجلب لهم مع الحمور على ظهور البغال من نهر الأردن البعيد وتصل متعفنة فاسدة الطعم . ومع هذا كانت تسد حاجتهم . وتحمل الصليبيون ذلك مدة ثلاثين يوماً . وفي نهاية الشهر شقوا طريقهم عنوةً الى داخل المدينة . وعند حلول الظلام في يوم ظفرهم انقلبت حالتهم الروحية من حماس جارف الى جنون إجرامي فاندفعوا طوال الليل يبحثون في المدينة ذابحين كل رجل وامرأة أو طفل تقع أعينهم عليه . وقد لجأ كثير من يهود المدينة الى كنيسهم الكبير فلم ينجهم ذلك . فقد أحرقه الصليبيون بمن فيه . اما من حاول منهم النجاة من اللهب فقد قتلوه . وقبيل الصبح توجه الصليبيّون نحو المسجد الأقصى حيث تقوم الصخرة . وكانوا قد سجنوا المسلمين هناك بعد استسلامهم وإلقــاء اسلحتهم . فقتلهم الصليبيون عن بكرة أبيهم في داخل المسجد . وعند طلوع الضياء كانت مدينة بيت المقدس تغرق بالدماء . وفي شوارعها ومساجدها أكثر من اثني عشر ألف قتيل . وقد خلفت هذه المجزرة مرارة استمرت قرناً ونصف قرن .

لقد حصل الصليبيون على بيت المقدس وبرّوا بقسمهم فأنقذوا الضريح المقدس ممن حسبوهم كفاراً وأصبحوا أحراراً في العودة . الا أنه كان عليهم قبل ذلك اختيار قيّم على المدينة المقدسة يتولى أمر الدفاع عنها . وكان ريموند كونت طولوز يتوقع منهم ان يبلغوه مطمحه بمنحه تاج المملكة النصرانية الجديدة . ولكن مجلس الفرسان نظر في أمر ريموند .. فوقع اختيارهم على غودفري دي بويون وكان من الأوائل الذين اقتحموا أسوار القدس ..

مملكة القدس الصليبية

يقول السيد أمير علي ان مملكة القدس الصليبية كانت تعتمد في الحصول على الرجال والمواد الحربية والطعام على جميع انحاء العالم الأوربي وامرائه الذين يتوقون الى « إعلاء كلمة الله » ، والمغامرة في الحصول على الكنوز الطائلة والثروات العريضة ، ومناصرة المتهوسين المتفانين في مقاتلة الكفار ، كما كانت تعتمد أيضاً على طريدي العدالة الذين كانوا يتدفقون بكثرة على سواحل الشام . وكان أموري قد توفي وخلفه ابنه على العرش . غير انه كان مصاباً بمرض معد هو (الجذام) جعله أجدر بالرثاء منه الى ادارة شؤون الدولة . فتزوجت أخته ايزابيلا من أمير مونتفرات . وولدت له طفلاً سماه بالدوين . ولما توفي زوجها تزوجت ثانية من لوسنيان الذي عينه بالدوين نائباً عنه ، ولكنه سرعان ما عزله ونصب مكانه ريموند أمير طرابلس الذي لم يلبث ان تنازل عن العرش لابن اخته بالدوين الخامس ولم يكن قد ناهز بعد الخامسة من عمره . والمظنون ان الملك الطفل قتل بايعاز من أمه . وسواء أكانت الرواية هذه صحيحة أم مختلقة فالمعروف ان إيزابيلا على أثر وفاة ابنها نادت بنفسها ملكة على القدس ووضعت بيدها تاج الملك على مفرق زوجها .وهكذا انتقل عرش فلسطين في سنة ١١٨٧ الى ايزابيلا وزوجها لوسينيان . وفي عهد بالدوين المجذوم عقدت معاهدة صلح بين السلطان والفرنج . ويقول ميشو ان هذه الهدنة جديرة بالملاحظة ، إذ أن المسلمين كانوا جد حريصين على تنفيذ

أحكامها في حين لم يتقيد المسيحيون بشروطها قط . كما ظهر عليهم ميل شديد الى إشهار الحرب من جديد ..

كيف استرد صلاح الدين القدس

وفي سنة ١١٨٦ نقض ريجنالد ـ يسميه العرب أرنات ـ شروط المعاهدة ، وانقض بجيشه على إحدى القوافل المارة بالقرب من حصنه (الكرك) وذبح عدداً غير قليل منهم بعد ان سلب أموالهم . فغضب السلطان صلاح الدين غضباً شديداً وطلب من حاكم القدس ان يعاقب المعتدي ، ولما رفض الملك إجابة طلبه أخذ صلاح الدين على عاتقه تأديب ريجنالد ، على ما يقول أمير علي . وحاصر بنفسه الحصن الذي وقعت بقربه تلك المأساة الدامية . كما أرسل الى الجليل قوة صغيرة بقيادة اكبر أبنائه علي الملقب بالملك الأفضل لمراقبة حركات الفرنج . فلم يكد الصليبيون يعلمون بوجوده حتى وحدوا صفوفهم وزحفوا عليه فأسرع السلطان الى نجدة ابنه .. فعسكر جيش الفرنج في سهول صفورية ، ولكن صلاح الدين استطاع بمهارته الحربية ان يستدرجهم من مكمنهم المنيع الى وادٍ مكشوف بين الجبال الواقعة بمقربةٍ من بحيرة طبرية في تل حطّين . فسار الفرنج كأنهم جبال تتحرك شطر البحيرة ، ولكن جنود السلطان أخذوا أهبتهم وقطعوا عليهم الماء فتقابل الفريقان يوم الخميس ٢ تموز ، بعد ان قضى السلطان طوال الليل يهيء الصفوف ، ودارت معركة رائعة بينهما يوم الجمعة وصباح السبت المصادف ٢٥ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ . فأسفرت عن تقويض دعائم دولة لوسينيان بعد أن أثخن فيهم المسلمون ، وقتلوا عشرة آلاف بينهم جماعة من أشهر القواد . وكان من جملة الذين وقعوا أسرى في أيدي المسلمين لوسينيان نفسه وأخوه جوفري ورينو صاحب الكرك (مثير الحرب) وابن هانفري ، وكونت هوغ وابن لورد طبرية . ولم ينج من الأسر غير ريمون أمير طرابلس وابن أمير انطاكية ويليان . إذ أفلتا من القوة التي تعقبتهما ووصلوا الى الساحل . اما لوسينيان فقد عومل معاملة حسنة ، غير ان السلطان أمر بقتل

رينو وبعض القواد الآخرين الذين كانوا قد أخلّوا بشروط المعاهدة وذبحوا المسلمين خلال الهدنة . كذلك لم يمهل الأعداء حتى يلموا شعثهم بل واصل مطاردتهم بعد موقعة حطّين . وما هو الا ان استولى على حصن طبرية . ووقعت في قبضة يده زوجة ريمون أمير طرابلس فردها الى زوجها معززة مكرّمة . ويقول المؤرخون ان المسلمين لم يسيء أحد منهم قط الى النساء والأطفال ..

ومن ثم توجه السلطان صوب القدس التي كانت تضم داخل أسوارها زهاء ستين ألف جندي علاوةً على سكانها الأصليين . وحالما أشرف على المدينة بعث في طلب أشرافها وخاطبهم بقوله انه يحترم مدينة القدس ، ولا يرغب في انتهاك حرمتها باراقة الدماء . ولهذا ينصحهم بترك استحكاماتهم اما هو فيتعهد من جهته بان يعوضهم عن أملاكهم بالأموال والأراضي . غير ان الصليبيين لتعصبهم رفضوا تلبية هذا الطلب المنطوي على شيء كثير من السخاء . فسخط صلاح الدين عليهم وحاصر المدينة الى حين . ولكنهم عادوا وطلبوا الصلح « باسم اله البشر جميعهم » . فتغلب عطف السلطان على رغبته في الانتقام ، وسمح للروم ونصارى القدس بالسكنى في بلاده بعد أن ضمن لهم التمتع بالحرية التامة . كذلك أمر جميع الجنود الصليبيين داخل المدينة بأن يرحلوا مع أسرهم وأطفالهم عن القدس . وضرب لهم موعداً أربعين يوماً . كما ضمن لهم سلامة الرحيل إلى صور أو طرابلس . وحدد فدية الرجل بعشرة دنانير شامية وخمسة دنانير للمرأة ودينار واحد للطفل.

وكان من شروط الصلح أن من يعجز عن أداء الفدية يؤخذ أسيراً . غير أن ذلك الشرط أُهمل إهمالاً تاماً . إذ يقال ان السلطان وحده افتدى عشرة آلاف شخص ، كما أطلق أخوه سيف الدين (الملك العادل) سراح سبعة آلاف آخرين ، وقد كان رجال الدين عندما غادروا المدينة يحملون معهم الامتعة ، كذلك كثير من النصارى يحملون والديهم واصدقاءهم الذين أقعدهم المرض عن السير . فتأثر السلطان بهذا المنظر وأمر حالاً ان توزع عليهم

الصدقات وان يزودوا بالدواب. ولما استأذنته الملكة ايزابيلا وكان يصحبها بعض الأمراء اذن لها بالسفر وحباها بكرمه الغياض. وكان معها رهط من النساء اللواتي كن يعولن بالصياح والنحيب وهن حاملات اطفالهن. فلما اقتربن منه ناشدنه ان يفك سراح أزواجهن وأولادهن واخوانهن.. فتأثر صلاح الدين أي تأثير بتوسلاتهن. وفي الحال أمر برد الأسرى الى أقاربهم ووعد فوق ذلك بمعاملة الباقين منهم بالعطف والرأفة. كما وزع الصدقات على اليتامى والأرامل.. ويمكننا بعد هذه الإلمامة القصيرة ان ندرك البون الشاسع والفرق المدهش بين صفات صلاح الدين السمحة وبين قسوة الأمراء المسيحيين ووحشيتهم. ويقول المؤرخ ميلز في هذا الصدد: ان كثيراً من المسيحيين الذين غادروا بيت المقدس رحلوا الى انطاكية. غير ان بوهيمند أميرها لم يحرمهم الضيافة حسب بل سلبهم أيضاً أموالهم. في حين كان أولئك البائسون يلاقون اينما ساروا في بلاد المسلمين ضروب العطف والكرم.. ويضيف السيد أمير علي الى ذلك قوله ان ما يثير الاعجاب ان صلاح الدين احترم شعور المغاوبين. فلم يدخل القدس بجيشه الجرار الا بعد ان غادرها جميع الصليبيين. وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب (يوم المعراج) سنة ٥٨٣ دخل بيت المقدس يحف به الأمراء واشراف الامبراطورية الذين جاءوا لتهنئته على هذا النصر المبين. فأمر بترميم ما دمرته الحرب. وتشييد الجوامع والمدارس الدينية التي هدمها الفرنج. ووضع أساساً حكيماً لادارة دولاب الدولة يختلف كل الاختلاف عن حكومة الصليبيين المستبدة..

وقد أحدث سقوط مدينة القدس دوياً هائلاً في العالم المسيحي. على ما يذكر السيد أمير علي. وأفرغ رجال الكهنوت جهودهم بالاستنجاد بالشعوب المسيحية والاستجارة بالملوك والأمراء واقناعهم باشهار حرب صليبية أخرى. فتكللت جهودهم بالنجاح التام وانهالت النجدات على صور والمعسكر الضارب قرب عكا. واشترك ثلاثة ملوك من أعظم ملوك المسيحيين شأناً في تلك الحرب الشعواء وهم: فردريك بار باروسا امبراطور المانية، وفيليب أوغسطوس

ملك فرنسة ، وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترة .. ويقول الرواة ان رؤساء النصارى تذرعوا بكل وسيلة لاثارة روح التعصب في شعوب أوربة كافة . اما بطريرك القدس الذي كان صلاح الدين قد أحسن معاملته فقد أخذ يطوف المدن الأوربية حاملاً صورة المسيح ، وقد جرحها أحد الأعراب ليحثهم بذلك على أخذ الثأر ..

وبعد حروب عنيفة خاضها الصليبيون .. طلب قلب الأسد المصالحة ففشلت المفاوضات بينه وبين الملك العادل أخي صلاح الدين ، ثم بذلت محاولة أخرى للصلح اشترط فيها الصليبيون الاحتفاظ بالمدن التي كانت بأيديهم ، ورد بيت المقدس لهم وصليب الصلبوت (خشبة الصليب الاصلية) . ويقول السيد أمير علي ان السلطان صلاح رفض تسليم القدس رفضاً باتاً إلا أنه أعرب عن استعداده لاعادة خشبة الصليب . ولما كان ريكاردوس قلب الأسد تواقاً الى العودة الى بلاده التي بدأت تعصف بهاريج الفوضى استأنف مفاوضاته مرة أخرى مع الملك العادل وتوصل الى مسودة اتفاق لم يوافق عليه الكهنة المسيحيون . وكانت الشروط أن يزوج قلب الأسد أخته أرملة ملك صقلية من الملك العادل ، وان تعطى عكا وما في أيدي الافرنج اليها ، وان يعطى ما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل الى الملك العادل ، وان يحكم الزوجان مدينة القدس بصفة كونها مدينة محايدة حرة لاتباع الديانتين ، وان يجري تبادل في الأسرى ويعاد الصليب للمسيحيين ، ويحتفظ الرهبان بامتيازاتهم . ثم جرت مفاوضات أخرى كانت نتيجتها أن أعلن ملك الأنكليز تنازله عن مدينة القدس والمطالبة بها .. وكان يوم اعلان الصلح يوماً مشهوداً ، ولم يلبث ريكاردوس ان عاد الى بلاده .. وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التي هلك فيها عدد لا يحصى من الناس ، وخسرت ألمانية أحد براطرتها العظام ، كما فقدت فرنسة وانكلترة زهرة فرسانها ، ولم تكتسب المسيحية غير عكا.

وبعد سفر ريكاردوس استراح صلاح الدين قليلاً في القدس . ثم سار تحرسه كوكبة من الفرسان نحو الساحل ليتعهد الثغور ، وأمر باصلاح ما خرب

منها . كما شيّد في القدس مستشفى ومدرسة . وولى على المدينة سكرتيره ومترجم حياته حوريك من المماليك النورية . ثم عاد الى دمشق وبقي فيها مع أسرته حتى وافته المنية يوم الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ ..

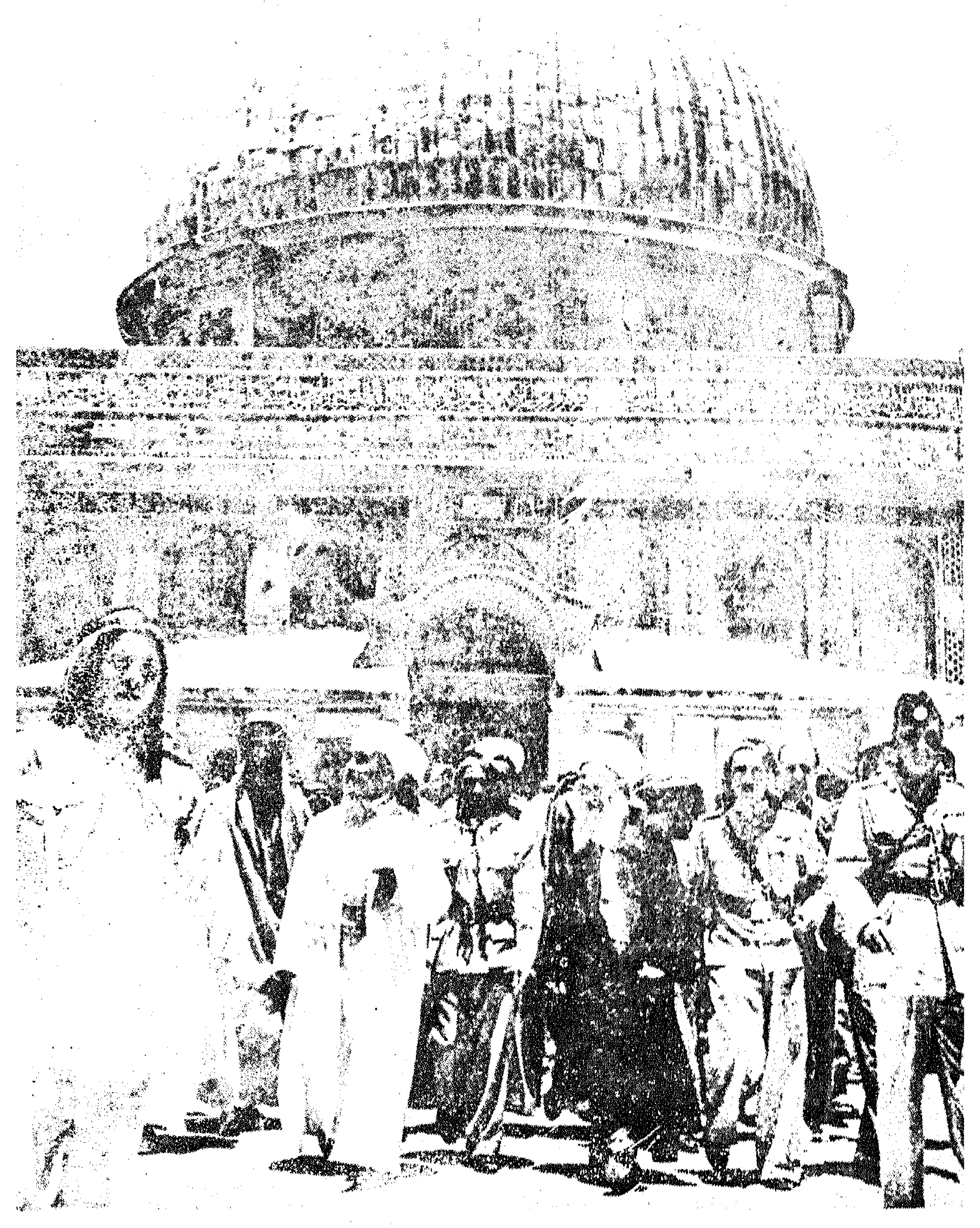
الحروب الصليبية في مراجع أخرى

ويأتي كارل بروكلمان[1] المستشرق الألماني على ذكر الحروب الصليبية بشيء غير يسير من التفصيل الذي يشير فيه الى معظم ما أوردناه هنا . ولكنه لا يذكر مطلقاً الفظاعات التي ارتكبها الصليبيون والمجازر التي سبّبوها . ومما يذكره عن فردريك الثاني (الص ٣٦٢) وخلافه مع البابا ان فردريك هذا تزوّج في ١٨ آذار ١٢٢٩ بوصفه زوجاً لايزابيل ملكة الأرض المقدسة في كنيسة القيامة . وكان ذلك بعد عقد الصلح مع الملك الكامل الذي تقرر تسليم القدس فيه الى الصليبيين (اي للمرة الثانية بعد وفاة صلاح الدين) . لكن هذا الصلح لم يتم ، وأمر البابا بتحريم شامل يفرض على المدينة المقدسة ما أقام فردريك فيها .

ويصف بروكلمان كذلك موقعة حطّين وفتح القدس على يد صلاح الدين كما يأتي : والواقع ان الصلح الذي عقد مع صلاح الدين . والذي كان غي دي لوسينيان خليفة بغدوين الخامس على عرش القدس . حريصاً على أدامته كثيراً ما نقضت أحكامه بسبب من تمرد الأمراء التابعين له وعدم تقيدهم بأمره . فكان ريجنالد دي شاتيون أمير الكرك لاينى يوقع بقوافل الحجاج وقوافل التجارة من حصنه القائم على البلقاء (مؤآب القديمة) شرقي البحر الميت . فوق الجرف المسيطر على طريق القوافل من دمشق الى الحجاز . ومن دمشق الى مصر أيضاً . ولم يعد في استطاعة صلاح الدين ان يغض الطرف عن هذا كله ، فعزم في أوائل ١١٨٧ على ان يبطش بالمعتدين بطشةً كبرى . ثم

---

(١) كارل بروكلمان – تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ط ٤ ، ١٩٦٥ بيروت .



قبة الصخرة

انه أمر قواته السورية بالاحتشاد في حارم ليسير هو نفسه الى منطقة الكرك فيلتقي بهذه القوات عند بحيرة طبرية . عندئذٍ حشد ملك القدس جيشاً عظيماً من الفرسان في صفورية . وبدلاً من ان ينتظر هجوم صلاح الدين في هذا الموقع الستراتيجي الصالح نازعته نفسه ان يهاجم المسلمين في اتجاه طبرية . وكانوا قد احتلوها . فالتقى الفريقان في سهـــل مرتفع الى الغرب من البحيرة صعب . كثير الحجارة . عديم المياه هو سهل حطين . وهناك أنزل صلاح الدين بالجيوش الصليبية هزيمة قاضية . وأسر ملك القدس نفسه . حتى اذا كان أيلول سنة ١١٨٧ انتهى صلاح الدين وجنوده الى أبواب بيت المقدس ، التي اضطرت الى الاستسلام في ذلك الشهر نفسه[١] . وعلى مشهدٍ من جميع أفراد أسرة صلاح الدين تقريباً دخلت المدينة المقدسة مرةً ثانية في حوزة المسلمين وهدم صلاح الدين جميع أماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة (كذا) وفي غير مـــا إبطاء سعى الى ان يقضي عـــلى آخر آثـــار الحـــكم الصليبي في المشرق ..

وتعليقاً على قول بروكلمان بان صلاح الدين « هدم جميع اماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة » نقول ان هذا غير صحيح . فان صلاح الدين لم يهدم سوى التعديلات والتشويهات التي أدخلها الصليبيون في قبة الصخرة والمسجد الأقصى وهما من أماكن العبادة الاسلامية التي حولها الصليبيون الى كنائس كما لا يخفى . ولم يشر بروكلمان كذلك الى المرجع الذي استند اليه في تجنيه هذا (راجع قول انطوني ويست بعد صفحات قليلة) . يضاف الى ذلك ان بروكلمان نفسه يذكر في موقع آخر من كتابه هذا (الص ٣٥٥ من الترجمة) ان صلاح الدين سمح للنصارى بزيارة القدس حجاجاً عزلاً من السلاح .

---

(١) يستشهد بروكلمان بالمرجع الآتي : Baldwin, M.W. — Raymond III : of Tripoli & the Fall of Jerusalem 1140-1187 London 1938

ويعدد صلاح الدين كذلك (الص ٣٦٠) آثار صلاح الدين العمرانية فيقول انه خدم فن العمارة خدمات جلى في القدس والقاهرة . فأما في القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى ، الذي اتخذه الصليبيون قصراً لهم ، وتزيينه بالفسيفساء والرخام . ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبراً نفيساً أتى به من حلب . وما زال باقياً الى اليوم .

ويذهب الدكتور فيليب حتي في كتابه[١] الذي ألفه بالانكليزية عن تاريخ العرب الى تأييد الكثير من أقوال السيد أمير علي التي أوردناها عن الصليبيين . فهو يقول (الص ٦٣٩) عن ما حدث عند استيلائهم على القدس انهم في ١٥ تموز هاجموا المدينة المقدسة واستولوا عليها بعد حصار دام شهراً واحداً . وارتكبوا مجزرةً لم يفرقوا فيها بين الرجال والنساء ولم يراعوا حرمة السن . وأورد جملة من مرجع غربي تقول ان أكداساً من الرؤوس والأيدي والأقدام كانت تشاهد هنا وهناك في شوارع القدس وساحاتها .

اما عن موقعة حطّين فيقول الدكتور حتي ان صلاح الدين استولى على طبرية بعد حصار دام ستة أيام . وأعقب ذلك موقعة حطين المجاورة (٣ — ٤ تموز) . وقد بدأت في يوم الجمعة يوم الصلاة الذي يتفاءل فيه صلاح الدين في الحرب . ويعتبره الافرنج يوماً سيئاً . وكان عدد جيوش الصليبيين الذي يبلغ عشرين ألفاً . لكنهم كانوا يشكون الحر والعطش فوقعوا كلهم تقريباً فريسةً في أيدي أعدائهم . وكانت قائمة الأسرى المعروفين يتصدرها غي دي لوسينيان ملك القدس . فقابل السلطان المتصف بروح الفروسية الملك المنكوب بحفاوة صادقة . لكن صاحبه ريجنالد دي شايتون ، معكّر صفو السلام ، كان يستحق معاملة مختلفة . وربما كان ريجنالد أكثر قادة اللاتين مجازفةً وأقلهم تعقلاً وأقدرهم على التكلم بالعربية . وكان وهو في إمارة الكرك قد هاجم

---

(١) Hitti K. — History of the Arabo. Macmillan, London 1937.

القوافل الآمنة أكثر من مرة ونهبها حينما كانت تمر مما يقرب من أسوار حصنه المنيع . برغم مخالفة ذلك للاتفاقية المعقودة مع العرب . حتى انه أحضر اسطولا خاصاً في أيلة وأخذ يضايق فيه سواحل البلاد المقدسة في الحجاز . وينهب الحجاج القادمين اليها . وكان صلاح الدين قد أقسم ان يذبحه بيده متى عند سنوح الفرصة . فسنحت له في هذه المرة . لكن ريجنالد استغل قواعد الضيافة العربية ليتخلص من الموت بواسطتها فطلب شربة من الماء الموجود في خيمة آسره . غير ان صلاح الدين لم يقدمها له لئلا تترتب عليها علاقة الضيف التي تستدعي العفو عنه . وبذلك دفع ريجنالد ثمن خيانته بحياته . وقد قرر انتصار العرب في حطين مصير القضية الصليبية . فبعد حصار دام أسبوعاً واحداً استسلمت القدس التي كانت قد خسرت حاميتها في حطين (٢ تشرين الاول ١١٨٧) . فحل الأذان في المسجد الأقصى في محل صوت الناقوس المسيحي وأنزل الصليب الذهب الذي كان يعلو قبة الصخرة من قبل رجال صلاح الدين . وهكذا مهد احتلال عاصمة المملكة اللاتينيـة لصلاح الدين الاستيلاء على معظم مدن سورية .

أما انطوني ويست[1] فيذكر عن استرداد صلاح الدين لبيت المقدس ما يلي : ان موقف النصارى في مملكة بيت المقدس أخذ بالتردي عاماً بعد عام . بعد ان خابت الحملة الصليبية الثانية . ومات نور الدين فاعتقد الصليبيون مدة من الزمن ان موته سيؤدي الى تشتيت المسلمين وضعفهم . الا أن صلاح الدين الذي حل محله كان زعيماً أعظم منه . ومرض بالدوين الرابع ملك بيت المقدس فتوفي في وقت كانت فيه المملكة بأمس الحاجة اليه .. وانتقل عرش بيت المقدس اثر ذلك الى غي دي لوسينيان . وكان يوم تتويجه يوم نحس لبيت المقدس .. لأنه كان متهوراً عصبي المزاج وقد نفي من فرنسة لقتله رجلاً في شجار ، وكان حديث عهد بالبلاد المقدسة وقليل المعرفة بأساليب قتال المسلمين

---

(١) الحروب الصليبية ، الص ٩٣ من الترجمه العربية ، وقد مرت الاشارة اليه .

وقد أشار كل الموجودين في بيت المقدس ان سبيله الوحيد للثبات في وجه صلاح الدين هو اللجوء الى التريث..فقد كان الفرسان خبراء بأساليب المسلمين عارفين صعوبة الحفاظ على الجيوش الاسلامية مجتمعةً عندما لا يكون هنا سوى قتال يسير . فلم يصغ (غي)لهم سمعاً وقال انه لا شيء يرغمه على التصرف بجبن ، وانه يعتقد ان الطريق لدحر صلاح الدين هو البحث عنه وارغامه على خوض المعركة . وقاد غي قواته صاعداً مع وادي الأردن الى طبرية . عارضاً قواته في ديار المسلمين . وتراجع صلاح الدين أمامه مفسحاً له المجال للابتعاد عن معاقله . وحينما تم له في الأخير سحب النصارى الى مسافة كافية استدار بقواته داخلاً بينهم وبين ديارهم قاطعاً خط انسحابهم وحاصراً اياهم في وادٍ قاحل . وكان غي قد ورط نفسه في مأزقٍ حرج وبصحبته كل محاربي مملكته تقريباً ، وقد حمل معه صليب الصلبوت الذي أخذه من كنيسة القيامة في بيت المقدس مستعملاً اياه راية حرب . والواقع ان غي كان قد ألقى بكل ما عنده في لعبة مقامرة لم يكن لديه أي أمل في كسبها . وكانت هذه معركة حطّين . وقد نظر رجاله من التل المكسو بالأشواك الذي حصر فيه جيشهم الى وادٍ أخضر في أسفلهم حيث تشع وتسطع بحيرة طبرية ، ولم تكن هناك قطرة ماءً على التل . وكان اليوم حاراً ركدت فيه الريح في مطلع شهر تموز . وكانت الشمس تحرق النصارى بلا رحمة . وأشعل المسلمون النار في مطلع النهـار بالأشواك المحيطة بجيش غي وتوجه الدخان الحار الخانق الى قمة التل فجفف حناجرهم . الا أن غي ورجاله على الرغم من موقفهم اليائس قاتلوا طوال النهار وعندما استسلم آخر رجل منهم كان الاعياء الناتج عن الحر والظمأ قد بلغ بهم مبلغاً جعلهم يقفون على أقدامهم بصعوبة ، وقد بلغ الضعف ببعضهم حداً جعلهم يعجزون عن تسليم سيوفهم للمنتصرين . وعندما انهارت مقاومتهم بكى صلاح الدين فرحاً ، فقد عرف ان قوة مملكة بيت المقدس قد دمرت وأنه قد استرجع المدينة المقدسة .

وقضى صلاح الدين بقية الصيف يحتل قلاع النصارى واحدة بعد أخرى وفي تشرين الأول صلى صلاة الشكر في جامع عمر في بيت المقدس. وكان صلاح الدين عادلاً رحوماً فأبقى على حياة(غي دي لوسينيان) وسمح لأسر الفرسان النصارى الذين قتلهم بالذهاب أحراراً. ولم يحرق أية بناية نصرانية في بيت المقدس. وبعد دخوله المدينة بثلاثة أيام أعاد الكنائس ثانية الى القسس. وأغلقت كنيسة القيامة ثلاثة أيام فتحت بعدها ثانية للزوار النصارى. الا أن حقيقةً واحدة بقيت وهي أن صليب الصلبوت والمدينة المقدسة أصبحا بأيدي المسلمين. وعادت الأنباء الى أوربا تحمل خبر ضياع ما أنجزته الحملة الصليبية الأولى.

ومما يذكر(١) عن صلاح الدين حينما استرد بيت المقدس من الصليبيين انه كان عطوفاً على اليهود الذين كان عددهم يومذاك قليلاً جداً. ومن غريب ما حدث في عهده هذا ان ثلاثمائة من أحبار اليهود وحاخاميهم جاءوا اليه الى القدس من فرنسة وانكلترة وفاتحوه في السماح ليهود أوربة بالهجرة الى القدس فلم يحصلوا على نتيجة ملموسة في هذا الشأن. إذ يبدو من أخبار القدس بعد خمسين سنة (١٢٧٦ م) ان القدس لم يكن فيها سوى يهوديين اثنين فقط. وكانا أخوين. وفي سنة ١٣٢٧ كانت في القدس جالية صغيرة من اليهود يتعاطى أفرادها مهنة الصباغة في الغالب: اما في بداية القرن الخامس عشر فقد كان في المدينة المقدسة كنيس واحد لليهود لكن الجالية كانت مضايقة ومضطهدة بحيث هاجر أفرادها الذين لم يكونوا يزيدون على مئة أسرة الى الخارج. وكان عدد اليهود في القدس خلال القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر يتراوح على ما يظهر بين (٢٥٠) و (١٥٠٠) نسمة.

---

(١) Jeffries, JMN — Palestine: The Reality (London 1939) P. 31

رحلة بنيامين ١١٦٥ الى ١١٧٣ م

وبنيامين هذا هو الرحالة الغربي بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي ، وكان تاجراً من تجار اليهود في الأندلس خلال القرن الثاني عشر الميلادي فأحب أن يسير في بلاد العالم ويطلع على أحوال أخوانه اليهود في كل بلد من البلاد التي يزورها علاوةً على الأحوال الأخرى . وقد استغرقت رحلته من سنة ١١٦٥ الى سنة ١١٧٣ م ، بعد أن بدأ بها من برشلونة ، وقد زار العراق في أيام الخليفة العباسي المستنجد بالله . وكان قد كتب هذه الرحلة عند عودته الى الأندلس باللغة العبرية ، فعثر على نسخة قديمة منها الاستاذ عزرا حداد فنقلها الى العربية في بغداد ونشرها سنة ١٩٤٥[١] .

ولقد زار بنيامين في رحلته هذه البلاد الفلسطينية معظمها يومذاك فكتبَ ملاحظاته عنها ، وكتب أشياء كثيرة عن بيت المقدس على الأخص . وكانت زيارته لها قبيل توفق صلاح الدين الأيوبي في استردادها من الصليبيين . والذلك وجدنا من المناسب ان نورد هنا ما يذكره هذا الرحالة اليهودي الغربي عنها ويبدو من الرحلة انه جاء الى القدس من لبنان فزار في طريقه اليها عكا وحيفا وقيسارية واللد ونابلس ووادي ايلون ، وجبل المورية الذي يسميه « جرن داود » كذلك ويقول عنه انه مدينة جبعون القديمة ، ولم يجد فيها أحداً من اليهود ، وقد سميت باسم جرن داود كنايةً عن البيدر الذي كان يملكه رجل يبوسي من سكان أورشليم يدعى أرنه أو أرنان . وقد ظهر الملاك لداود وأوحى له بأن يشتريه فاشتراه وشيد فيه هيكلاً ومذبحاً لله (حاشية المترجم) .

وكانت بيت المقدس يومذاك تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ من جبل مورية ، ويقول عنها بنيامين انها : بلدة صغيرة عظيمة التحصين تحيط بها ثلاثة أسوار ، وفيها عدد كبير من اليعاقبة والسريان والأرمن واليونان والكرج والافرنج ،

---

(١) رحلة بنيامين (٥٦١ – ٥٦٩ هـ) و (١١٦٥ – ١١٧٣ م) ترجمها عن الاصل العبري وعلق حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد (المطبعة الشرقية بغداد ١٩٤٥) .

خليط من كل أمة وإنسان . وفيها معمل للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس سنوياً فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم . ويبلغ عددهم في هذه المدينة حوالي المئتين .. ويقول الاستاذ عزرا حداد في التعليق ان الصليبيين حينما فتحوا القدس ذبحوا يهودها الا النزر اليسير منهم . وبعد عشر سنوات من زيارة بنيامين هذه لم يجد فيها الرحالة فتاحية (اليهودي) غير يهودي واحد .. ويتابع بنيامين قوله عن القدس بان هذه الزمرة القليلة من اليهود يقيمون في حي مجاور لبرج داود . والبرج واغل في القدم وترتفع أساساته الى عشرة أذرع ، وهو من بناء أسلافنا الأقدمين . والباقي شيده المسلمون . وليس في المدن بناء آخر يضارع برج داود متانةً وسمواً . وفي القدس مستشفيان يتسعان لايواء اربعمائة من فرسان الاسبتارية عدا المرضى الذين يجهزون بكل ما يلزمهم في الحياة وبعد الممات .. وفي الحاشية يقول المترجم ان يوحنه ورتزبورغ احد الحجاج المسيحيين زار بيت المقدس بين سنتي ١١٦٠ و ١١٧٠ م ، فوصف المستشفى بقوله : وبالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان يقوم مستشفى فيه عدد كبير من النساء والرجال والمرضى . وينالون العناية التي تكلف نفقات باهظة . وقد بلغني لما كنت هناك ان عدد اولئك المرضى بلغ الألفين . وقد يبلغ عدد الموتى منهم الخمسين في اليوم الواحد . وقد يعالج بالعيادة الخارجية بقدر عدد المرضى المقيمين في المستشفى : هذا فضلاً عن أعمال الإحسان التي لا تقدر . إذ يتصدق يومياً على السائلين وأبناء السبيل بالخبز . ويقول بنيامين كذلك ان في القدس البناية المسماة « معبد سليمان » ويزعم البعض أنها من أنقاض مقدس الملك سليمان . ويقيم في هذه البناية نحو ثلاثمائة من فرسان المعبد يمارسون فنون الحرب والقتال . ويوجد عدا هؤلاء فرسان يتوافدون من بلاد الافرنج وسائر ديار النصارى . من الذين ينذرون الخدمة في هذا المقام سنة أو سنتين .

وبالقدس كنيسة كبرى تدعى كنيسة الضريح المقدس منسوبة الى مسيح النصارى . يحج اليها عدد غفير منهم . وللقدس أربعة أبواب : باب ابراهيم .

وباب داود ، وباب صهيون ، وباب يوشفاط . وهذا الأخير يحاذي الموضع الذي كان بيت المقدس مستوياً عليه في قديم الزمن . وعليه اليوم البناء الذي يسميه الافرنج « المعبد المقدس » ، وقد عقد عليه عمر بن الخطاب (كذا) قبة عظيمة أنيقة . وليس يسمح لأحد ان يدخل فيها تمثالاً أو أيقونة لأنها محل خاص بالعبادة .

وقبالة هذا البناء يوجد الحائط الغربي ، وهو من حيطان قدس الأقداس في الهيكل القديم ، ويسميه اليهود « باب الرحمة » ويحجونه لاقامة الصلاة في باحته .

وتشاهد بالقدس أطلال الاصطبلات التي عمرها الملك سليمان بجوار قصره . وقد استعمل في بنائها الصخر الجسيم المنحوت ، مما لا نظير له في بناء آخر . وهناك ايضاً أطلال المذابح التي كانت الأضاحي تقدم عليها في سالف الأزمان . ومن عادة حجاج اليهود ان يكتبوا اسماءهم على الحيطان الملاصقة لهم .

وبظاهر المدينة من باب يوشفاط يشاهد النصب الذي أقامه أبشالوم ، ومرقد الملك عزية ونبع سلوان الذي يمر بوادي قدرون ، وفوق هذا النبع بناء من آثار الأسلاف وليس فيه من الماء الا اليسير . وغالب أهل القدس يشربون ماء المطر يجمعونه من صهاريج معدة لهذا الغرض في البيوت . ومن عدوة وادي يوشفاط يصعد الى جبل الزيتون ، ومنه يمكن مشاهدة سدوم . وبين بحر سدوم ونصب الملح الممسوخ عن امرأة لوط فرسخان ، ويقال ان السائمة تلحس هذا النصب يومياً ثم يعود الى سابق هيئته . ويحاذي القدس جبل صهيون (وهو تل عريض مرتفع في القدس ، وجهه الغربي يعلو ٤٠٠ قدم فوق وادي جهنم يبلغ طوله ٢٤٠٠ قدم وينتهي عند باب الخليج .. من الحاشية) وعلى هذا الجبل بيعة للنصارى وثلاث مقابر قديمة لليهود ، فوق كل قبر حجارة محفور عليها تاريخه — لكن الأفرنج يهدمون هذه القبور ويستعملون حجارتها لبناء بيوتهم .

وتحيط بالقدس الجبال الشاهقة ، منها جبل صهيون ، عليه قبر الملك داود

وسائر الملوك من آل ه . وهي عافية الآثار لا تكاد تعرف في الوقت الحاضر . وقد حدث قبل خمس عشرة سنة ان تداعى جدار البيعة التي على جبل صهيون، فامر البطريرك بعض أتباعه من الرهبان باعادة رمّه . وأوصاهم بأن يأخذوا الحجارة من أسوار صهيون الشرقية . فعكف عشرون عاملاً على اقتلاع الحجارة من أسوار صهيون .

وحدث ان عاملين تربط بينهما صداقة وثيقة كانا قد تأخرا عن موعد العمل لانشغالهما بمأدبة . فأنحى عليهما رئيس العمل بالتقريع ، ووعدا بأن يكملا العمل خلال أوقات الراحة عندمـا ينصرف رفاقهما للغداء . وبينما هما يشتغلان منفردين اقتلعا حجارة وجدا تحتها فجوة تؤدي الى غار عميق . فقال أحدهما للآخر : هلم نرَ ما في هذا الكهف عسانا نعثر على كنز ، ولما ولجا الغار وجدا نفسيهما وسط قاعة كبرى محكمة ، معقود سقفها على أساطين من رخام موشاة بفضة وذهب . وفي القاعة خوان عليه صوبلجان وتاج من خالص الذهب . ويتوسط القاعة قبر داود ملك اسرائيل ، والى يساره قبر ولده سليمان وقبور سائر الملوك من آل داود . ووجدا كذلك صناديق مقفلة لم يعرفا مضمونها . وبعد مضي برهة وجيزة هبت عليهما ريح صرصر عاتية طوحت بهما الى الأرض ، فبقيا بلا حراك حتى وقت الغروب . وعندها هتف بهما صوت آدمي يقول : انهضا وبارحا المكان .

هرول الرجلان نحو ظاهر الكهف فاسرعا الى البطريرك يقصان عليه ما شاهداه وسمعاه . فاستدعى البطريرك اليه الربن ابراهيم القسطنطيني الناسك من بكائي أورشليم وقص عليه الحادث . فأيد الربن كون هذا الكهف مرقد الملوك من آل داود . أما العاملان فانهما لازما فراش المرض لهول ما شاهداه ورفضا دخول المغارة مرةً أخرى . وعندئذٍ أمر البطريرك بردم بابه حتى طمست معالمه عن الناس . هذا ما قصه ابراهيم الناسك نفسه . ويعلق المترجم على ذكر ابراهيم القسطنطيني هذا بقوله ان الرحالة اليهودي فتاحية الذي زار القدس بعد عشر سنوات وجد فيها يهودياً واحداً فقط يدعى « ابراهيم الصباغ » ،

ربما كان ابراهيم القسطنطيني الذي يشير اليه بنيامين . ويضيف فتاحية قوله ان ابراهيم هذا يؤدي للملك ضريبة فادحة لكي يسمح له بالبقاء هناك . اما فيلكس فابري الحاج المسيحي الذي زار القدس أيام استعادتها من قبل صلاح الدين الأيوبي (١١٨٧ م) فيذكر انه وجد فيها نحو خمسمائة يهودي ونحو ألف نصراني (رحلة فابري ٩ — ٢٢٦) .

هذا ما يقوله الرحالة بنيامين الأندلسي عن بيت المقدس ، وهو يذكر بالاضافة الى ذلك أشياء كثيرة أخرى عن سائر بلدان فلسطين معظمها . ومن جملة ما يعتني بذكره عدد اليهود الموجودين في كل منها ، وقد وجدنا من المناسب ان نورد فيما يأتي جدولاً بالأعداد المذكورة علها تفيد ، هي والأرقام التي أوردناها قبيل هذا ، في دحض الحجج التي تقدمها الصهيونية اليوم لامتلاك فلسطين ، اذا كانت قد بقيت أية فائدة للحجج والبراهين :

البلدة	عدد اليهود فيها	البلدة	عدد اليهود فيها
القدس	١	بيت لحم	١١
عكا	٢٠٠	الخليل	لم يذكر شيء
حيفا	لم يذكر شيء	بيت جبرين	٣
قيسارية	٢٠٠	قلعة الحصن	٣٠٠
قاقون	ليس فيها	سنت صموئيل	لم يذكر شيء
اللـد	١	بيسان	ليس فيها
سبسطية	ليس فيها	بيت النبي	٢
نابلس	ليس فيها	بيت النوبي	٢
جبل جلبوع	ليس فيها	الرملة	٣٠٠
وادي أيلون	ليس فيها	يافا	١
أبلين	ليس فيها	تبنين	—
اشدود	ليس فيها	حوش	٢٠
عسقلان	٢٠٠	ميزون	لم يذكر شيء
زرين	١	علمة	٥٠
صفورية	لم يذكر شيء	قادس	ليس فيها
طبرية	١٠٠	المجموع	١٣٩٠

هذا مع العلم ان عدد اليهود في مدن أخرى يومذاك . على ما يذكر بنيامين نفسه . كان فيها عدد كبير جداً من اليهود . فقد كان في دمشق ٣٠٠٠ يهودي . والكوفة ٧٠٠٠ . والحلة ١٠،٠٠٠ . والبصرة ١٠،٠٠٠ . وبغداد ٤٠،٠٠٠ . وعكبرة ١٠،٠٠٠ . وحرني ١٥،٠٠٠ . والعزير (نهر سمره) ١٥٠٠ .

رحلة الى القدس في ١٦٩٧ م

ومما عثرنا عليه من الرحلات القديمة الى القدس رحلة[1] قام بها قسيس انكليزي كان ملحقاً بالمحطة التجارية الانكليزية في حلب يومذاك . وقد رغب هو وأربعة عشر بريطانياً كانوا في تلك المؤسسة في ان يحجوا الى بيت المقدس في عيد الفصح . فتركوا حلب يوم الجمعة المصادف ٢٦ شباط ١٦٩٦ في قافلة خاصة بهم . وقد طبعت هذه الرحلة أولاً في نيسان ١٧٠٣ ، ثم طبعت طبعات أخرى راجعنا منها الطبعة الرابعة التي طبعت في أوكسفورد سنة ١٧٢١ . وهي عبارة عن رحلة دينية في الغالب ، برغم ما فيها من معلومات عن أشياء أخرى طريفة لا سيما في الطريق الى القدس .

وقد سارت القافلة في طريق محاذية للبحر فخرجت من حدود باشوية حلب ، ثم دخلت الى باشوية طرابلس التي كانت تعود لها جبال النصيرية . وتمر القافلة بعد ذلك بميناء بانياس المعروف . ثم بما يقابل جزيرة أرواد من الساحل . وبعد ذلك يمرون بأنهر عدة قبل الوصول الى طرابلس الشام . وفي الرحلة وصف لطرابلس والزيارة التي زاروا الوالي فيها . ومن هناك وصلوا في طريقهم الى المدينة اللبنانية المعروفة منذ القدم وهي جبيل ، اي بيبلوس التي

(١) A Journey from Aleppo To Jerusalem at Easter, AD 1697 by Henry Maundrell, Lata Fellow of Exeter Col. & Chaplain to the Factory at Aleppo

كان فيها معبد أدونيس على ما يقول صاحب الرحلة . ويذكر هنا ان حيرام الملك الفينيقي جعل أهالي جبيل يعدون المواد التي طلبها منه سليمان الحكيم حينما بنى هيكله في بيت المقدس ، على ما يذكر في التوراة . ومن ثم تمر القافلة بنهر ابراهيم حتى تصل الى خليج جونية . وبقربه تلتقي حدود باشويتي طرابلس وصيدا في جبال كسروان على ما يقول موندرل . وقد توجهوا بعد ذلك الى نهر الكلب الذي دفعوا قبل الوصول اليه الخاوة الى المارونيين الذين يقول عنهم القس الرحالة أنهم أكثر تعسفاً وعجرفةً من الأتراك أنفسهم . وقد وجدوا على نهر الكلب جسراً جيداً بأربعة عقود كتبت على قطعة مرمر بيضاء في جانبه كتابة عربية تشير الى اسم مشيده الأمير فخر الدين . ثم وصلوا الى نهر بيروت فوجدوا مشيداً فوقه جسراً حجرياً بستة عقود ، ومن هناك وصلوا الى بيروت التي وجدوها مدينة مسورة . ومن طريف ما يذكر موندرل عنها نبذة عن الأمير فخر الدين المعني الذي يقول ان مسكنه الرئيسي كان فيها . وكان يحكمها في أيام السلطان مراد الرابع ، بينما كان هو الأمير الرابع للدروز.

ثم يذكر ان الأمير فخر الدين تمكن بقوته ودهائه من توسيع ممتلكاته فاستولى على الساحل الممتد من بيروت الى عكا في فلسطين ، حتى اضطر السلطان الى إجباره على الرجوع إلى منطقته الجبلية فقط ، وعند ذاك تمرد عليه . ويظهر ان الرحالة هو وجماعته تمكنوا من زيارة قصر الامير فخر الدين الواقع في القسم الشمالي الشرقي من بيروت . وحينما يأتي على ذكر القصر يقول إنه في حالة خربة ، لكنه يثني على بستان البرتقال المحيطة به . ويعجب كيف ان أميراً شرقياً مثل الامير فخر الدين يستطيع انشاء مثل هذا القصر وهذه البستان الرائعة ، ثم يستدرك قوله ويذكر السبب . وهو ان الأمير سبق له ان زار ايطالية واطلع فيها على اشياء كثيرة استطاع تقليد قسم منها . وقد وجد تماثيل كثيرة منتشرة في انحاء البستان فاستنتج منها ان الأمير لم يكن من المسلمين المتحمسين لديانتهم .

وحينما غادر موندرل وقافلته بيروت يوم ١٩ مارت صادف بعد مسيرة

ثلث ساعة فقط حرش الصنوبر الذي يقول انه يعود الى الأمير فخر الدين كذلك . وقدر اتساعه بان طوله يزيد على نصف الميل . وهو يثني على جمال هذا الحرش ومنظره الخلاب . ثم يقول انهم وجدوا على مسافـــة من السهل الذي سارت فيه القافلة من اليسار قرية تعود للدروز تسمى « سوق فوات » **Suekfoat** ولعله يقصد الشويفات الحالية . فأمير هذه القرية هو أحمد حفيد الأمير فخر الدين . وكان أحمد متقدماً في السن محتفظاً بتقاليد أسرته .

وفي طريق القافلة الى فلسطين وصلت الى صيدا فاستقبل القافلة جمعٌ من الفرنسيين الموجودين في صيدا واستضافوا من فيها . وكان القنصل الفرنسي فيها يحمل رتبة قنصل في بيت المقدس كذلك . وهو مجبر على ما يقول موندرل على زيارة المدينة المقدسة في عيد الفصح من كل سنة بحجة تفقد الأماكن المقدسة فيها والاطمئنان على سلامتها وسلامة الرهبان القيّمين عليها من جور الأتراك . لكنه يقول ايضاً ان الرهبان المذكورين يشعرون في الحقيقة بشيء أكثر من الاطمئنان والأمان من دون مراقبة القنصل .

وقد كان المستر موندرل وجماعته راغبين في مرافقة القنصل هذا في حجه إلى بيت المقدس هذه السنة . فبعثوا يكتبون اليه بالأمر من حلب . ليستطيعوا حمايته تجنب ما قد يصيبهم من عبث العرب والأتراك الذي يزداد في فلسطين وحوالي القدس خاصة . على حد قوله . وقد سرهم كثيراً حينما وصلوا الى عكا بعد ذلك فوجدوا القنصل الفرنسي بانتظارهم . وفي صباح اليوم التالي توجهوا الى القدس . وبعد مسيرة قصيرة في محاذاة الساحل تركوه متوجهين الى بغيتهم عن طريق الناصرة . فمروا بمنطقة نابلس وبير يعقوب . وبعد ساعتين وصلوا الى قمة شاهدوا من فوقها عن بعد القدس لأول مرة . وبمسيرة ساعة أخرى وصلت القافلة الى أسوار المدينة المقدسة .

غير انهم كان عليهم ان ينتظروا حتى يعلموا الحاكم بوصولهم ويستأذنوا منه بالدخول ، لأن الافرنجي كان لا يستطيع الدخول الى المدينة المقدسة من دون هذه المراسيم ؛ ولذلك قصدوا الجانب الغربي من السور حتى وصلوا الى

الزاوية الكائنة فوق باب بيت لحم ، وهناك وقفت القافلة بانتظار اذن الدخول . وكان المطلوب من الفرنج ما لم يكونوا بصحبة شخصية مهمة ان يترجلوا عند الباب ويلقوا سلاحهم فيدخلوا راجلين . ولما كانت قافلة المستر موندرل في معية القنصل الفرنسي لم يطلب اليها ان تفعل ذلك عند الدخول ، وبعد هذا أخذهم القنصل الى بيته الخاص في القدس ونزلوا في ضيافته طوال مدة بقائهم فيها . وبعد استراحة قليـــلة ذهبوا الى دير اللاتين حيث كان يُحتفى بجميع الحجـــاج الفرنج ، فاستقبلهم رئيس الدير بكـــل حفاوة ثم تناولوا العشاء في الدير .

الأماكن المسيحية المقدسة

ولا شك ان جميع ما في الرحلة هذه عن القدس يدور حول زيارة الأماكن المسيحية المقدسة ووضعها يومذاك . ولما كان يوم الجمعة ٢٦ مارت هو يوم الجمعة الحزينة عند اللاتين يقول موندرل ان القنصل الفرنسي ذهب الى كنيسة الضريح المقدس (كنيسة القيامة) لاداء الزيارة فذهبوا معه برغم ان الجمعة الحزينة عند الانكليز تأتي بعد أسبوع من هذا التاريخ . فوجدوا باب الكنيسة يحرسها عدد من الانكشارية والضباط الأتراك ، الذين يقول عنهم أنهم وضعوا هنا ليلاحظوا أن جميع الداخلين قد دفعوا الرسوم المطلوبة وتختلف الرسوم باختلاف الاشخاص والبلاد التي يأتون منها الى الحج ، اما الافرنج فقد كانت العادة ان يدفع كل منهم اربعة عشر ريالاً الا اذا كانو من رجال الدين فيؤخذ منهـــم نصف المبلغ . وبعد ان يدفع الشخص هذا الرسم يكون حراً في الدخـــول والخروج متى شاء خلال موسم العيد كله .

ويذكر موندرل ان الحجاج بعد ان دخلوا الكنيسة كلهم سدت أبوابها في المساء وبقيت كذلك الى يوم الفصح ، فبقوا محجوزين فيها ثلاثة أيام . وقد قضوا وقتهم في مشاهدة المراسيم التي يقيمها اللاتين في هذه المناسبة ، وزيارة الأماكن المقدسة واحدة بعد أخرى في الداخل بكل حرية . ومما يقوله عن

الكنيسة انها مقامة على جبل الجمجمة[١] الذي هو عبارة عن قمة فوق جبل موريا[٢] . وكان هذا الموقع مخصصاً في قديم الزمان لاعدام المجرمين . ولذلك كان في معزل عن المدينة خارج السور . ولكنه حينما جعل المذبح الذي صلب فيه السيد المسيح صار هذا الموقع يتمتع بسمعة مشرفة وقدسية ما بعدها من قدسية ، وصار المسيحيون يحجون اليه وهم في أشد حالات الخشوع من جميع أنحاء العالم ، تقدمت المدينة اليه وصارت تحيط به من جميع الجهات حتى أصبح في وسط بيت المقدس . وقد ترك قسم كبير من جبل صهيون خارج السور ليفسح المجال للناس بالمرور الى المذبح . وحينما شُيدت الكنيسة فوق التل سُويت الأرض في بعض جهاته خوفاً من ان تمس الأماكن المقدسة التي لها علاقة بمأساة السيد المسيح . فبقي المكان الذي يقال انه كان مشدوداً فيه . والمكان الذي رفع فيه على الصليب . من دون ان يمس بشيء . وتقدر مساحة هذه البقعة بحوالي عشر الى اثنتي عشرة ياردة مربعة . وهي أعلى من ساحة الكنيسة المحيطة بها بحيث صار الناس يصعدون اليها بدرجات يبلغ عددها احدى وعشرين درجة . اما الضريح المقدس نفسه . الذي كان بادىء ذي بدء مغارة محفورة في الصخر تحت الأرض ، فقد قطعت الصخور من حوله وأزيل الكثير منها حتى أصبح وكأنه كهف فوق سطح الأرض .

ويبلغ طول الكنيسة أقل من مائة خطوة . وعرضها يزيد على الستين خطوة . ومع ذلك فهي تشتمل بين جدرانها على اثنتي عشرة بقعة مقدسة او ثلاث عشرة ، وليست قدسية هذه البقع بالقدسية الاعتيادية وانما هي قدسية بالغة الأهمية تختص بالسيد المسيح . فهناك أولاً المكان الذي أقدم فيه الجنود الرومان على الهزء به ، وثانياً الموقع الذي مزقوا فيه ثيابه . ثم المكان الذي حبس فيه بينما كان الجنود يحفرون الأرض لتثبيت الصليب فيها ويعدون العدة لصلبه ، ثم المكان الذي ثبّت فيه جسمه المقدس في الصليب بالمسامير . وبعد ذلك الموقع

---

(١) Moriah

(٢) Calvary

الذي أقيم فيه الصليب . وحيث وقف الجنود الذين ثقبوا جنبه . وحيث مسح مسح جسمه بالزيت ، على سبيل التكريس قبل دفنه ، وحيث أودع الجسم في الضريح ، ثم الموقع الذي ظهرت فيه الملائكة للنساء بعد بعثه . وحيث ظهر هو فيه لمريم المجدلانية . وغير ذلك .

وفي أروقة تمتد حول الكنيسة . وكذلك في أبنية صغيرة ملحقة بها من الخارج ، توجد شقق لاستقبال الرهبان والحجاج . وتحتفظ كل أمة من الأمم المسيحية القديمة في هذه الأماكن بجماعة صغيرة من رهبانها . وقد خصص الأتراك لكل جماعة من هؤلاء مكاناً معيناً لها . فهناك اللاتين . واليونان ، والسوريون . والأرمن ، والأحباش ، والكرج ، والنساطرة ، والأقباط . والمارونيون الخ .

ويشير المستر موندرل بتأثر بالغ الى الخصومة الموجودة بين الفرق المسيحية في بيت المقدس ، والمنازعات الدامية التي تحدث بين رجال الدين المسيحي حتى قرب الضريح المقدس حول إقامة القداس وأقدمية كل فرقة من الفرق في هذا الشأن . ثم يقول بحسرة بعد ذلك : كيف يمكن بهذه الحالة انقاذ الأماكن المقدسة من أيدي الكفار ؟! ! واذا ما تم ذلك ما الذي سيحدث من أنواع الخصومة والنزاع يا ترى ؟ ويذكر بعد هذا ان ملك فرنسة لأجل ان يضع حداً لهذه الخصومات وتلك الحالة المزرية كتب الى الصدر الأعظم في استانبول قبل اثنتي عشرة سنة كتاباً يطلب فيه وضع الضريح المقدس في أيدي اللاتين تنفيذاً لشروط الامتيازات المعقودة في سنة ١٦٧٣ . ولم يتم ذلك الا في سنة ١٦٩٠ على ما يقول موندرل ، فأصبح من حق اللاتين وحدهم إقامة القداس هناك . ومع ان المسيحيين بأجمعهم يسمح لهم بالزيارة والصلاة في الداخل ، فليس بوسع أحد منهم إجراء أي شعيرة مقدسة رسمياً سوى اللاتين .

ثم يأخذ موندرل بوصف ما يقوم به رجال الدين من واجبات في هذه الكنيسة ، ويبدأ بعد ذلك بوصف المراسيم الدينية التي أجراها اللاتين بمناسبة الموسم . فهو يقول ان المراسيم تبدأ في مساء الجمعة الحزينة . ويسميها اللاتين « نوكس نينيبروزا » وهي تقام بشيء كثير من الوقار والجلال يجعله يأتي على

وصفها بالضرورة . فيقول : ما ان خيّم ظلام ذلك اليوم على البلد حتى أخذ الرهبان والحجاج جميعهم بالاجتماع في « مصلى الشيح » الكائن في الجهة الشمالية من الضريح المقدس بالقرب من مساكن اللاتين ، لأجل أن يخرجوا بموكب يدور في الكنيسة . ولكنهم قبل ان يفعلوا ذلك ألقى احد الرهبان خطبة وعظ بالايطالية في ذلك المصلى ، وحينما بدأ بها أطفئت الشموع جميعها فبقي المجتمعون نصف ساعة في الظلام وهم يستمعون الوعظ . وبعد الانتهاء من ذلك أخذ كلٌ من الحاضرين شمعةً بيده ، ورفعت الصلبان ليبدأ الموكب . وكان بين الصلبان صليب كبير جداً يحمل صورة السيد المسيح بالحجم الطبيعي ، وقد ثُبتت فيه بمسامير كبيرة كُسيت رؤوسها بأشواك ملطخة بالدم . وقد حمل هذا الصليب في مقدمة الموكب وتبعه الجميع لزيارة جميع البقع المقدسة وهم يرتلون التراتيل المناسبة في كل منها .

وكانت أول بقعة زارها الموكب « عمود الضرب » الذي يحتفظ بقسم كبير منه في غرفة من غرف المصلى المذكور ، وهنا رُتّل الترتيل المناسب والقى أحد الرهبان آخر خطبة وعظية بالاسبانية . وتوجهوا من هناك بخشوع الى « سجن المسيح » حيث أودع السيد المسيح ، على ما يزعمون (هذا ما يقوله موندرل) ، حينما كان الجنود الرومان يعدون ما يلزم لصلبه . وهنا رتّلوا على الشاكلة نفسها ترتيلة أخرى وانبرى راهب ثالث فخطب بالفرنسية . ومن هناك توجهوا الى البقعة التي مزقت فيها ملابس السيد المسيح فرتلوا ترتيلة دينية فيها فقط من دون خطبة . ثم قصد الموكب « مصلى السخرية » فألقى بعد الترتيلة راهب رابع خطبة وعظ بالفرنسية كذلك .

وذهبوا بعد هذا الى الموقع الذي صُلب فيه ، فتركوا أحذيتهم في أسفل السلالم . ويوجد هنا مذبحان للزيارة ، أحدهما البقعة التي يُعتقد ان السيد المسيح سُمّر جسمه فيها بالصليب ، والأخرى البقعة التي أُقيم فيها الصليب نفسه . فوضعوا الصليب الكبير في الأولى على الأرض ، وبعد الترتيل القى خطبة الوعظ بالاسبانية راهب من الرهبان . ثم انتقلوا الى المذبح المجاور حيث يُعتقد

ان الصليب قد أُقيم فيه وهو يحمل السيد المسيح . وفي هذا المذبح توجد حفرة صغيرة في الصخرة الطبيعية التي يُعتقد انها نفس الحفرة التي ثُبّت فيها الصليب يومذاك . وهنا نصبوا الصليب الذي كان يحمل الصورة الدامية ، وقرأوا بعض التراتيل ، وفي كرسي وضع بين يدي الصليب جلس الأب الحارس وألقى خطبة وعظ مؤثرة باللغة الايطالية ، وعلى بعد ياردة ونصف من حفرة الصليب كان يلاحظ الشق المشهور في الصخرة ، الذي يقال انه حدث على اثر الزلزال الذي وقع حينما كان يصلب المسيح . وهنا يناقش موندرل صحة وقوع هذا الحادث وماهية الشق المذكور .

وبعد انتهاءهذه المراسيم تقدم راهبان يمثل أحدهما يوسف الأرثيمي والآخر يمثل نيكوديم فعمدا الى خلع المسامير من الجسد المصلوب وانزلاه فوضعاه في قطعة كبيرة من القماش وسار الموكب به الى حيث توجد « صخرة المسح بالزيت » ، وهو المكان الذي يعتقد انه نفس المكان الذي جهزت فيه جثة السيد المسيح وأُعدت للدفن . وهنا وضعوا الجثة المزعومة وألقوا عليها عدداً من المساحيق الطيبة والأفاويه ، ثم لفوها بالقماش . وبينما كان يتم ذلك كان الجميع يرتلون التراتيل المناسبة ، وقام أحد الرهبان بعد ذلك وألقى خطبة دينية باللغة العربية . وبعد الانتهاء من هذه المراسيم الطويلة كلها حملوا الجثمان الملفوف ووضعوه في الضريح المقـــدس ثم أغلقوا الباب عليـــه الى يوم الفصح .

ويقول موندرل ان كثيراً من الحجاج ذهبوا في صباح اليوم الثاني ليدمغوا أذرعهم بعلامة بيت المقدس المعروفة ، بطريقة الوشم . وهنا يصف كيفية ذلك . اما في صباح يوم الفصح فقد فتح الضريح المقدس منذ الصباح الباكر . وقد أُقيم القداس بقربه لأنه أبرز مكان في الكنيسة ، حيث جلس الأب الحارس على عرش أُقيم له ، وهو يرتدي الألبسة الأسقفية والتاج فوق راسه ، بحضور الأتراك . وأخذ يوزع خبز القربان المقدس الى جميع من كان مستعداً لقبوله ، ولم يرفض ذلك حتى الأطفال في السابعة أو الثامنة من العمر .

زيارة أماكن أخرى

يقول موندرل ان مراسيم الحج بعد ان انتهت صار بوسعهم الخروج لزيارة بعض الأمكنة المشهورة خارج سور البلدة . فبدأوا بالموجود منها في الجهة الشمالية ، وكان أول ما زاروه هناك كهف كبير على مقربة من باب دمشق (من الخارج) ، يقال إنه كان مسكناً في يوم من الأيام لجرميا . وأهم ما لاحظوا فيه المكان الذي كان يكتب فيه جرميا مناحاته وتفجعاته . ومما يورده موندرل هنا قوله ان هذا المكان كان ملجأ للدراويش حينما زاروه ، وهو من الأمكنة التي يقدسها المسلمون — الذين يسميهم الأتراك — واليهود والمسيحيون .

ثم زاروا ما يسمى بأضرحة الأنبياء ، لكن موندرل يشكك في التسمية لان الانبياء لم يدفنوا هنا على ما ترويه المراجع الدينية . وبعد عودتهم من أضرحة الأنبياء مروا بكهف ممتلىء بالماء القذر بالقرب من باب هيرود . ويظن انه المكان الذي حبس فيه الملك صدقيا جرميا .

وفي اثنين الفصح كانت العادة ان يأخذ حاكم بيت المقدس المسلم الحجاج المسيحيين بقيادته الى نهر الأردن لزيارة بعض الأماكن التاريخية . ويقول موندرل ان هذه السفرة شبه إجبارية لأن الباشا يتقاضى عن كل افرنجي يشترك فيها اثني عشر ريالاً . فتجمعوا كلهم في باب القديس اسطيفان(١) على ما يقول ، وكان عددهم حوالي ألف حاج من الجنسين ومن كل الأمم تقريباً .

وقد ذهب موندرل من هناك مع جماعته الى سواحل البحر الميت . ومن جملة ما يذكره عن سفرته الثانوية هذه انه وجد بين منتجات هذا المكان

(١) كان القديس اسطيفان أول مسيحي قتله اليهود ، وفي ١٩٤٨ هدموا قسماً من كنيسته في القدس ، وقطعوا رأس تمثاله .

النباتية ثمرة غريبة يسميها العرب « الزقون » ، ولعله يقصد الزقوم . ويقول ان نبات هذه الثمرة ينمو بشكل شجيرة ذات أوراق صغيرة ، والثمرة أشبه بجوزة صغيرة غير ناضجة من حيث الشكل واللون . ويعمد العرب الى سحن حبوب هذه الثمرة سحناً ناعماً بالهاون ، ثم يضعون اللب في ماء شديد الحرارة فيخرج منها نوع من الزيت طافٍ فوق الماء ، وعندئذ يجمعونه للاستفادة منه عند الحاجة لمداواة القروح والجروح . ويقول موندرل كذلك انه أخذ قنينة من هذا الزيت فوجده دواءً كثير الشفاء . ثم يذكر بعد ذلك أن أوراد أريحا لم يستطع العثور عليها في ذلك الموسم .

القدس في العهد العثماني

وحينما عظمت شوكة العثمانيين وامتد نفوذهم حتى شمل البلاد العربية معظمها كانت فلسطين من جملة البلاد التي خضعت للدولة العثمانية في عهد السلطان سليم . وقد وجدنا خلاصة موجزة عن فلسطين . التي لا يخرج تاريخها عن نطاق تاريخ القدس نفسها في الغالب . في كتاب الاستاذ أكرم زعيتر (١) عن هذا العهد آثرنا ايرادها هنا إكمالاً للبحث :

.. وبعدما فتح السلطان سليم سورية أقبل على فلسطين والتقى قرب اللجون بجيش سلطان المماليك طومان باي . فهزمه وكرّ على القدس وسائر المدن الفلسطينية فاستولى عليها . ثم زحف على مصر ففتحها وعاد الى الاستانة . وهكذا دخلت فلسطين في حوزة الدولة العثمانية . ومن أهم مآثرها ذلك السور الذي بناه سليمان القانوني حول القدس (١٥٤٢) . ومن أهم الأحداث السياسية في هذا العهد العثماني ظهور شخصين في فلسطين مثّلا على مسرحها دوراً مهماً. أولهما : (ظاهر العمر) شيخ صفد الذي ضم اليه طبرية وخضعت له نابلس والناصرة وعكا (١٧٥٠ م) فحصّنها وجعلها مقرّه على استمرار إدائه التزاماته المالية الى الدولة العثمانية ..

وثانيهما : (أحمد الجزار) الذي كان مملوكاً لعلي بك وجلاداً استحق لقب الجزار . فقد هرب من مصر الى سورية والتحق بالجيش السوري الذي استرد صيدا من ظاهر العمر . ثم خلفه على عكا فأجاد تحصينها وانشأ اسطولاً صغيراً وبنى جامعه المشهور باسمه فيها . ثم عينه السلطان والياً على دمشق (١٧٧٠) فشمل نفوذه سورية كلها ولمع اسمه في ردّ نابليون عن عكا (١٧٩٩) .

---

(١) القضية الفلسطينية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ، الص ٣٢ – ٣٥

وبعد ان احتل نابليون مصر صار لا بد له في طريقه الى الهند من احتلال القدس وفلسطين. فاحتل العريش، فغزة، فالرملة. ثم حاصر يافا التي كانت تدافع عنها حامية من جنود الجزار .. وراح يحاصر عكا التي كان الجزار يدافع عنها براً ويساعده في الدفاع عنها بحراً الأسطول البريطاني ..

وبعدما أباد محمد علي المماليك في مصر طمع في توسيع ملكه. فجهز الى سورية جيشاً بقيادة ابنه ابراهيم باشا ففتح العريش والرملة وغزة، ونزل ابراهيم باشا الى يافا بحراً. ثم فتحت القدس ونابلس وحوصرت عكا (١٨٣١) .. وقد حكم ابراهيم باشا في فلسطين عشر سنوات مملوءة بالشدة والبطش وفرض الضرائب والتجنيد الالزامي مما أدى الى ثورات في نابلس والخليل امتدت الى لبنان وشرق الأردن فاشتغل في قمعها حتى استعادت الدولة العثمانية القدس وسائر اجزاء فلسطين .. انتهى.

ومما لا بد من ذكره هنا علاوةً على ذلك أن استيلاء العثمانيين على القدس جعل الدولة العثمانية عرضةً لدس اليهود وتحريكاتهم في مختلف الاوقات والمناسبات. وقد سهل هذا الدسّ والتغلغل في شؤون الدولة العثمانية حينما فتحت صدرها لليهود المطرودين من اسبانية سنة ١٤٩٢. ورحبت بهم فآوتهم في بلادها وأنزلتهم في سلانيك التي استقروا فيها حتى يومنا هذا. وكان قسم غير يسير من حركاتهم المريبة يستهدف العودة الى القدس. وأول ما يذكر من هذا القبيل قصة يرويها المستر جفريز في كتابه[١] (حقيقة فلسطين)، نقلاً عن كتاب الصهيوني المعروف نورمان بنتويش (فلسطين اليهود[٢]). فهو يقول ان رجلاً من أسرة يهودية هاجرت من البرتغال يدعى دوم جوزيف ناسي ترقى به الحال في الدولة العثمانية حتى أصبح من أكثر الديبلوماسيين العثمانيين حظوةً لدى الدوائر العاليا فيها. وقد حاول خلال مدة نفوذه هذه

(١) Palestine : The Reality المشار اليه قبلا.

(٢) Bentwich, Norman — Palestine of the Jews

أن يؤسس مستعمرةً يهودية في إحدى الجزر اليونانية التابعة للدولة العثمانية ، لكنه عدل عن فكرته وأقنع السلطان سليم الثاني فحصل منه على مقاطعة كبيرة من الأرض في منطقة الجليل بفلسطين ، واذناً باعادة بناء بلدة طبرية من جديد وجعلها كلها خاصة بالسكان اليهود . لكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح على ما يظهر . ومثل هذا النفوذ الذي حصل عليه هذا اليهودي عند السلطان سليم يؤيده ما جاء في كتاب القائد التركي المتقاعد الجنرال جواد رفعت ايتلخان (الخطر المحيط بالاسلام) حيث يقول (الص ٦٥ من الترجمة العربية) ان السلطان سليم دبرّ قتل أخوته ابناء سليمان . ليجلس في مكانه على عرش آل عثمان ليجلس في مكانه على عرش آل سليمان . وكان ذلك بتدبير من عشيقته اليهودية نوربانو التي كانت من نساء البلاط العثماني يومذاك . وقد تزوجها بعد ذلك فانجبت له ابنه السلطان مراد الثالث . فبقيت خلال مدة هذين السلطانين صاحبة النفوذ والتسلط من وراء ستار .

ثم يقول جفريز (الص ٣٢) : وفي النصف الأول من القرن السابع عشر كان عدد اليهود في القدس نفسها لا يزيد على ألفي نسمة . ثم هبط هذا العدد الى ألف فقط سنة ١٧٣٠ . اما في خارج القدس فقد كانت هناك جماعات قليلة منهم فقط ولا سيما في صفد وطبرية . وبحلول القرن التاسع عشر يحل العهد الذي أخذ يزداد فيه هذا العدد . فقد أجري نوع من الاحصاء في ١٨٥٦ فكان عدد يهود القدس فيه ٥٠٠٠ نسمة فقط . بينما ازداد عدد اليهود في سائر انحاء فلسطين حتى قُدر في الثمانينات بعشرين ألفاً . وحينما قويت حركة الاستيطان اليهودي في فلسطين بعد ذلك بلغ عددهم ٨٥,٠٠٠ نسمة قبيل الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ .

وحينما ظهرت الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر وأخذت أفكار العودة الى أرض الميعاد تتبلور في أفكار اليهود كتب ثيودور هرزل اليهودي

النمساوي كتابه (الدولة اليهودية[١]) بالألمانية في ١٨٩٦ . ويقول جفريز (الص ٣٦ و ٣٧) ان ذلك حصل على أثر حادثين وقعا في تلك السنين : أولهما الاضطهاد الذي أصاب اليهود في روسية القيصرية بعد مقتل القيصر اسكندر الثاني سنة ١٨٨١ ، والثاني قضية دريفوس الضابط اليهودي الفرنسي الذي نقل الى غينية على اثر خيانة اتهم بها فضج اليهود بسببها وأرسل هرزل كصحفي من فينة لحضور المحاكمة التي أجريت له في باريس سنة ١٨٩١ . وعلى اثر ذلك أقر المؤتمر الصهيوني الأول المعقود في بازل بسويسرة سنة ١٨٩٧ ، رسم الخطة المطلوبة لزيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين . والمطالبة بوطن قومي لليهود فيها . وكان السلطان العثماني يومذاك عبد الحميد الثاني . فتم الاتصال به واستبان بادىء ذي بدء نجاح التشبث بمنح السلطان للمنظمة الصهيونية امتيازاً بتملك الأراضي في فلسطين واستثمارها بواسطة شركة صهيونية خاصة تتألف لهذا الغرض . غير ان المساعي المذكورة سرعان ما فشلت لأن السلطان عبد الحميد رفض الطلب . لا سيما وقد لاحظ خلال المراجعات ان الرأي العام الاسلامي ضد المشروع كان أقوى مما يمكن ان يتجاهله . حتى انه وعد الفلسطينيين باصدار الأوامر اللازمة بمنع الهجرة اليهودية بتاتاً الى فلسطين . ويضيف جفريز الى ذلك قوله ان فشل المشروع كان يعزى لحد كبير الى ان السلطان طلب من اليهود مقابل ذلك عشرة ملايين باون ، فلم يستطع اليهود تدبيرها له . غير اننا نرى ان هذا الاتهام لفقه اليهود للحط من شأن السلطان والدس عليه ، لأن المبلغ المطلوب لم يكن عزيزاً على متمولي اليهود وموسريهم ان يجمعوه . ويؤيد رأينا هذا المساعي الحثيثة التي بذلوها بعد ذلك لخلعه على يد الاتحاديين الذين كان عدد غير يسير من أقطاب جمعيتهم (الاتحاد والترقي) من يهود الدونمة المعروفين في سلانيك . إذ يذكر جفريز (الص ٣٨) ، علاوة على ما يذكره بعض الكتاب الأتراك

---

(١) Der Judenstaat

وغيرهم . ان خلع عبد الحميد عن العرش قوّى أمل الصهيونيين في الاتحاديين الذين كانوا مصطبغين بالصبغة اليهودية أنفسهم . لان جمعية الاتحاد والترقي نفسها كانت تخضع في الغالب لنفوذ الدونمة اليهود (من أمثال جاويد وطلعت وما أشبه) [1].

واتماماً للفائدة نقول ان الجنرال التركي المتقاعد جواد رفعت إيتلخان يذكر في كتابه (الص ٧٦ و ٧٧) ان هرزل قدم الى الاستانة في نيسان ١٨٩٣ وتمكن من المثول بين يدي السلطان عبد الحميد وفي صحبته الحاخام موشى لاوي وفاوضه في قضية الوطن القومي لليهود في فلسطين ، وفي شراء أملاك السنية العائدة له شخصياً في القدس . فرفض طلبهما وطردهما شر طردة . ولذلك أخذ اليهود يشنعون عليه ويلفقون أشياء كثيرة ضده ، ويتآمرون مع الاتحاديين من أجل خلعه . فقد ادعوا ان مجيئهم الى الاستانة كان بدعوة منه . وانه كان ظالماً جباراً يقضي على رجال تركية وشخصياتها بطرق غامضة وانه تصرف باموال سكة حديد الحجاز . وكلفهم بتجنيد اليهود في الجيش العثماني لقاء بعض الامتيازات . وربما كانت قصة الملايين العشرة من الباونات التي أشار اليها المستر جفريز من قبيل هذه التلفيقات أيضاً . ويقول الجنرال جواد ايضاً انهم هم الذين حرضوا الأرمن على اغتيال عبد الحميد فنجى منه بأعجوبة . وهم الذين دبروا أما خلعه بالاتفاق مع الجمعية الماسونية التركية وجمعية الاتحاد والترقي المعروفة . وقد لعب في جميع هذه الأعمال ، وفي النشاط الذي بدر من الاتحاديين في خلع عبد الحميد ، دوراً بارزاً جماعة من يهود سلانيك الدونمة الذين كان السلطان يمنع انتقالهم الى استنبول . ومن أبرز هؤلاء جاويد الذي أصبح وزيراً للمالية بعد الانقلاب العثماني ، والمحامي ميتر سالم ، وقرهصو ، والجنرال الدونمة رمزي باشا ، وضياء يالچي . ومن غريب

(١) الخطر المحيط بالاسلام (الصهيونية وبروتوكولاتها) – ترجمة وهبي عز الدين ، بغداد ١٩٦٥ .

ما يذكر ان قرصو هذا كان من أعضاء هيئة الخلع الثلاثة التي بلغت السلطان عبدالحميد شخصياً بأمر خلعه . ومن جملة ما يذكره (الص ١٣٥) الجنرال ايتلخان « ان ميتر سالم الذي ترعرع في أحياء اليهود القذرة الموحلة قد انتسب الى النادي اليهودي المسمى (ماكابي) ، وبدلالة النادي المذكور انتسب الى الجمعية الماسونية . وان ميتر سالم المذكور وقرهصو وجاويد اساتذة الماسونية سحروا عيون الأتراك الثوريين المحبين للترقي بالماسونية ، فأخذوهم تحت قيادتهم ، وأدخلوا كافة زعماء انقلاب المشروطية ورؤساء جمعية الاتحاد والترقي في المحافل الماسونية . »

وحينما تسلّم الاتحاديون الحكم في الدولة العثمانية سمح لليهود على ما يظهر بشراء الأراضي في فلسطين وبالسكنى في القدس . إذ يقول الجنرال ايتلخان : « ان الاتحاديين عند مجيئهم الى الحكم بفضل دسائس اليهود وأموالهم بعد اعلان المشروطية برزت الى الوجود مستعمرات يهودية معمورة ومنتظمة جداً في مدة وجيزة في فلسطين ؛ وذلك بفضل تعاون الاتحاد والترقي والماسون.. ويذكر بعد ذلك أن يهود المستعمرات هذه شكّل قسم منهم شبكة جاسوسية في فلسطين تزود الحلفاء بأخبار الجيوش التركية خلال الحرب العامة الأولى ، وكان يرأسها يهودي اسمه آرونسون . وقد عُين آرنسون هذا في وظيفة مرموقة في القدس عند أول استيلاء الانكليز عليها .

ومما يؤيد صلة الاتحاديين في أواخر أيام الدولة العثمانية بالحركة الصهيونية ومساعدتها على تهجير اليهود الى فلسطين ما ننقله أدناه عن جريدة القبس الشامية لصاحبها الأستاذ محمد كردعلي ، وهو ضبط وقائع احدى جلسات مجلس المبعوثان التركي في ١٩١١ في الأستانة :

« .. قدّم جاويد بك (وهو نفس جاويد الدونمة المار ذكره) وزير المالية موازنة عام ٣٢٧ الى مجلس النواب .. وقد خطب في هذه الموازنة يومين كاملين .. وتعاقب خطباء كثيرون ؛ وهنا وقف اسماعيل حقي بك مبعوث كوملنجة وزعيم حزب الأهالي فألقى خطبة رنانة كان لها دوي شديد ليس في

دوائر الاستانة فقط بل في الاندية الأوربية ايضاً . فبعد ان بحث موضوع الموازنة استطرد الى البحث عن الجمعية الصهيونية ، وقال انها ترمي الى انشاء مملكة اسرائيل مستقلة في القدس وقد خطت خطوات واسعة نحو هذه الغاية واستفحل أمرها . وقال ان الخطر يهدد القدس وأرجاء فلسطين ، وان الحكومة مغضية عن اعمال الجمعية لأن بنوكها تمدها بالمال اللازم . ثم تلى مكتوبات جمة عن غايات الصهيونيين وآمالهم وبرهن على انهم خرجوا من طور التفكير الى طور العمل . وذكر اسماء نفر منهم قال إنهم يديرون الوزارة الحاضرة . وختم كلامه محذراً الدولة العثمانية بصورة عامة من هذا الخطر المداهم ، والعرب بصورة خاصة لأن فلسطين جزء من البلاد العربية والاسلامية التي فيها مهد الرسل والأنبياء :

فرد عليه الصدر الأعظم قائلاً ما هذا إلا وهم من الأوهام وان الجمعية الصهيونية لا ترمي الى مثل هذه الغاية (كذا) فاشتدت الحملة عليه وأخذ الخطباء يفندون أقواله ، وكان من جملة الذين خطبوا في ذلك الوقت الشهيد شكري العسلي (الذي شنقه جمال الاتحادي في ٦ أيار في الشام) وكان مبعوث دمشق ، فتكلم في خطر الصهيونية وألاعيبها وحيلها في سبيل تأسيس وطن قومي يهودي . ومما جاء في خطابه قوله اني مانعت في تسجيل (العفولة) عندما كنت قائمقاماً وبيعها إلى اليهود لما لها من أهمية ، وطلبت بيعها بحق الشفعة الى العرب ، وكتبت الى نظارة الداخلية تقريراً بهذا الأمر . ولكن جميع التقارير التي كانت تصلها ألقيت في سلة المهملات . فكتبت الى نظارة الحربية بذلك لما لهذه القلعة (قلعة العفولة) من أهمية تاريخية ، فأوعزت نظارة الحربية الى قائد منطقة عكا ان يجري تحقيقاً فجاء تقريره مطابقاً لما ذهبت اليه ، لا سيما وان هذه القلعة تشرف على مرج ابن عامر . أضف الى ذلك انها واقعة على الخط الحجازي : ولكن على رغم هذا كله فقد سجلت القلعة وما يحيط بها من أراضٍ لليهود بأمرٍ من والي بيروت ، وخلافاً للأوامر السلطانية التي تمنع إسكان الأجانب ، وخاصة اليهود على جانبي الخط الحجازي الى مسافة تبعد

عشرة كيلو مترات . وذكر العسلي بعد ذلك في خطابه أشياء عن تسليح اليهود بالأسلحة الجيدة ، وعن مطامع هذه الحركة الصهيونية . ومما قاله ان لليهود مطامع كبرى ، فهم يريدون تأسيس دولة في فلسطين عاصمتها القدس لتنشر ظلها على ربوع الشام ومصر والعراق . وقد يعتقد بعضهم ان هذا من قبيل الخيالات ولكن اليهود يملكون مصارف عديدة تسهل شراء الأراضي بأثمان باهظة ، فاذا استمروا على عملية الشراء هذه بمثل هذه الأثمان فان العرب سينقرضون . وعاد اسماعيل حقي بك مرة ثانية الى المنبر يؤيد قول مبعوث دمشق ويزيد عليه بأنه يملك وثائق أخطر مما أورده المبعوث الدمشقي.. » انتهى

على أن أول المستعمرات التي أنشئت في فلسطين في العهد العثماني كانت المستعمرات التي انشأتها في سنة ١٨٧٠ جمعية « محبي صهيون »[١] ، وكانت أهمها مستعمرة « ميكفا اسرائيل » في جنوب يافا وما تزال موجودة حتى الآن. (جفريز الص ٣٥) . ويذكر جفريز بالاضافة الى ذلك نقلاً عن الكاتب الصهيوني شتاين[٢] . ان عدداً من يهود روسية الذين فروا من اضطهاد القيصرية الى الخارج في ١٨٨١ توجهوا الى فلسطين ، وكان يقدر عددهم بثلاثة آلاف ، فنزلوا في يافا خلال مدة اثني عشر شهراً .. ولا شك ان كل هذا كان بمعرفة الحكومة العثمانية يومذاك ، وهو لا يخلو مطلقاً من التأثيرات الصهيونية .

---

(١) Lovers of Zion — choveve zion

(٢) Stein — Zionism

القدس في الحرب العالمية الأولى

أعلنت الحرب العالمية الأولى وفلسطين لما تزل جزءاً مهما من أجزاء الدولة العثمانية المسلمة ، لوجود القدس وسائر البقع المقدسة فيها . لكن الاتحاديين الذين ادخلوا الدولة في الحرب ضد الحلفاءأخذوا يشكون في إخلاص العرب لهم ، ويزيدون في تعسفهم وتنكيلهم بقادة الرأي في البلاد العربية وزعمائها . وقد تولى هذا على الأخص جمال باشا (السفاح) الحاكم العثماني العام في سورية التي كانت فلسطين تابعة لها . وكان من جملة من تعرض لهذا التنكيل عدد غير يسير من رجال فلسطين وزعمائها .

ويقول المستر جفريز في (حقيقة فلسطين) المشار اليه قبلاً ان القمع الذي كان يقوم به جمال باشا كان فظيعاً . فقد كان يدعو أصحابه المقربين للتفرج على إعدام كل وجبة من رجال العرب تساق الى المشانق . وكان عدد من ضحاياه هؤلاء من أبناء فلسطين . فقد شُنق اثنا عشر شاباً في يوم واحد في القدس . وكان من جملة من أعدم أحمد عارف الحسيني مفتي غزة وابنه .. وكذلك أُعدم رجل من أسرة النشاشيبي المعروفة في القدس . وسليم أحمد العبد الهادي عم عوني بك عبد الهادي سكرتير الملك فيصل الذي وقّع معه على معاهدة فرساي ، والذي هو الآن – اي وقت تأليف الكتاب (١٩٢٨) – في معسكر الاعتقال في صرفند الذي دخله بعد الحكم عليه بعد العودة الى بلاده . وكان المرحوم سليم عبد الهادي قد عرف بنية الحكومة التركية تجاهه ولم يهرب خوفاً من ان ينتقم جمال من عمه حافظ باشا .. وقد بلغ عدد الذين سيقوا نفياً الى الأناضول والجوع ثلثمائة وجيه من وجهاء فلسطين كذلك .

اما اليهود فيذكر جفريز عنهم (الص ٨٨) ان الحرب العامة حينما أعلنت كانت لهم في فلسطين ٥٥ مستوطنة تضم ما يبلغ مجموعه اثني عشر ألف نسمة . وكان هناك علاوة على هذا سبعة آلاف منهم متكتلاين في المدن ، ولا سيما القدس . وقد جاءت هذه الأغلبية الساحقة ليهود فلسطين ، الذين لم يكن يزيد

مجموعهم على خمسين ألف ، الى البلاد خلال الثلاثين سنة الأخيرة فقط .. ويذكر بعد ذلك ان أسرة آرونسون اليهودية في القدس كانت تشتغل في التجسس للحلفاء خلال الحرب فاكتشف أمرها واضطرت جاسوسة من أبنائها الى الانتحار للتخلص من التعذيب .. ويقول بالنسبة لسائر يهود القدس وفلسطين انهم كانوا يتمتعون خلال الحرب بشيء من الحماية نظراً لوجود جماعات صهيونية ذات نفوذ في الأستانة وبرلين ، وفي نيويورك وسائر العواصم المحايدة

ومما يدل على وجود هذا النفوذ في الأستانة ما يذكره السر رونالد ستورز في حاشية من حواشي مذكراته ، التي سنشير اليها بعد هذا بالتفصيل ، (الص ٣٦٤) من ان طلعت باشا وزير الداخلية الاتحادي الدونمة من (يهود سلانيك) في الأصل أخبر الكونت بيرن ستورف اليهودي حينما كان يفاوضه بصدد تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين بأنه يسره ان يفعل ذلك لليهود من من أجل أن يرضيه لكنه حذره من خطر العرب عليهم وقال له ان العرب سوف يقضون على اليهود في الحال (نقلها ستورز عن مذكرات بيرن ستورف نفسه) .

هكذا كان حال القدس في أواخر أيام الحكم العثماني . اما حالها حينما استولى عليها الانكليز ، ولا سيما خلال الأيام التي كانت (ما تزال رحى الحرب تدور فيها ، فخير من يصفها لنا بالتفصيل السر رونالد ستورز حاكم القدس العسكري البريطاني في مذكراته المنشورة بعنوان (توجيهات) [١] . وتحتوي هذه المذكرات على الكثير مما يختص بالقدس من جميع الوجوه ولا سيما في تلك الفترة المرتبكة ، لأنه بقي في القدس ما يقرب من تسع سنوات بصفة حاكم عسكري وحاكم مدني ، حتى نقل الى قبرص في أواخر ١٩٢٦ .

فيبدأ المستر ستورز فيما يكتبه عن القدس في ٧ كانون الأول ١٩١٧ حينما

Storrs Sir Ronald — Orientations, London 1945 (١)

كان سكرتيراً شرقياً للمقيمية البريطانية في القاهرة . وحاكماً سياسياً في معية مارك سايكس ، المعروف بطبخ اتفاقية سايكس – بيكو المعروفة في سجل بريطانية ووعودها العرقوبية مع العرب . وهو يقول انه فتح في هذا اليوم برقية وردت الى المندوب السامي في مصر تخبر باستسلام القدس للجيش البريطاني وتوقّع دخول الجنرال اللنبي اليها دخولاً رسمياً في يوم ٩ كانون الأول . وفي الخامس عشر من الشهر نفسه طلبه المستر كلايتون رئيس الحكام السياسيين في الحملة البريطانية على فلسطين ، ليكون مساعداً له في القدس نظراً للاشغال الكثيرة التي اصبح كلايتون يضطلع بها . وقد كتب ستورز الى رئيسه مارك سايكس قبيل انفكاكه يخبره بالأمر ويقول له بالمناسبة ان لورانس ذكر له بان اليهود في فلسطين يتخذون موقفاً معادياً للانكليز بصورة غير علنية ، وان المسلمين يتخذون علناً موقفاً معادياً لهم ، بينما كان النصارى اللاتين يتخذون موقفاً معاكساً لهذا . ثم يضيف انه أخذ يلتقي كثيراً بالصهاينة وصار يبذل جهده في تشجيع تبادل الرأي الودي بينهم وبين العرب عن طريق جريدة « القبلة » وغيرها . وقد ذكر في الحاشية (الص ٢٧٣) في صدد التعليق على موقف اليهود من الانكليز قوله ان أخباراً وردته في كانون الأول ١٩١٤ تفيد بان الجنرال الألماني فون كريس كريسن شتاين عندما وصل الى القدس مع عدد كبير من الضباط وقوة من الجيش حيّاهم اليهود الموجودون فيها ونصبوا لهم « قوس ظفر » كتبت عليه آية من آيات التوراة بأحرف عبرية وعربية كبيرة في باب يافا .

وقد وصل ستورز مع كلايتون مساء يوم ٢٠ كانون الأول ١٩١٧ ، في جو عاصف مطير ، فوجدها في ظلام دامس يلفها السكون في كل مكان ، وقد خلت شوارعها فصارت تبدو كأنّ أهلها قد رحلوا عنها . فنزل في فندق فاست الذي كان يقيم فيه الألمان ، ولذلك سمحوا لصاحبه بان يحتفظ بماكنة الكهرباء التابعة له . وكان يديره أناس سوريون يتقاضون من الضباط أجوراً مخفضة قدرها (٤٥) قرشاً تركياً في الليلة أو حوالي تسع شلنات . وأول من

التقى به ستورز من الانكليز هناك الجنرال بيل بورتون حاكم القدس نفسه . ثم تناولوا عشاءهم مع الكولونيل ليولن مدير الشرطة .

ويأتي ستورز بعد ذلك على وصف المدينة والضائقة التي كان يعانيها الجميع فيها من قلة الطعام وندرته . فقد كانت خلال السنوات الثلاث الأخيرة تتبع نظام جراية القحط في توزيع الأرزاق . ثم انقطع اتصالها يومذاك بالخارج فانقطعت عنها واردات الأماكن المقدسة وتوقف جلب الحبوب اليها من مناطق السلط والكرك وغيرهما في الأردن بعد ان رحل عنها الأتراك . وزاد الطين بلة فيها وجود فرقتين من الجيش بخلاف الترتيبات المتفق عليها . ثم يصف حال العملة التركية وانخفاض أسعارها واحتكار اليهود لقطعها الصغيرة وتقاضي عمولة قدرها خمسة او ستة بالمائة عليها حسب المعتاد . والظاهر ان ستورز كان حسن الظن بالصهاينة . لأنه يقول ان مثل هذه القباحة و « القذارة » البادية من يهود القدس لا بد من ان يوقفها الصهاينة عند حدها . اما الشؤون الصحية فيقول عنها انها كانت جيدة في المدينة . ولم تسجل الى ذلك التاريخ سوى اصابة واحدة بمرض الزهري في القدس .

ولاحظ ستورز في اليوم التالي – ٢١ كانون الاول – لأول مرة ان إطلاق النار من المدافع الثقيلة كان ما زال يسمع باستمرار من جهات جبل الزيتون . وحينما زار حاكم القدس الجنرال بورتون في مكتبه وجد جبرائيل بك حداد يشتغل كاتباً لأسراره في الدائرة . ومما يذكره من أخبار ذلك اليوم انه زار الأرمن في ديرهم وحارتهم الخاصة ، وهو يصف حالة الدير والكنيسة والقبة الوسطى فيهما التي كان يكسوها كاشي كوتاهية . وعند عودته من هناك عرّج على البلدية فزار رئيسها حسين أفندي الحسيني . وقد أعجبه على ما يظهر مما دونه عنه . فهو يقول عنه انه رجل متوسط العمر . مهذب . يتكلم بانكليزية لا غبار عليها لانه كان قد زار انكلترة وأمريكا . وكان انطباعه عنه انه يتصف بضعف محبّب مفعم بالميل الى المساعدة. وقد هدده الأتراك بالاعتقال مرات عديدة ولذلك كان يعيش وحقائبه جاهزة بجنبه بانتظار الرحيل في أي

وقت . ويذكر كذلك انه كان يجهل أحوال المدينة المنورة يومذاك ومحاصرة الأمير عبد الله ولورانس لها ، فأخبره ستورز بواقع الحال . ثم يذكر ستورز ان عدد مسلمي القدس يومذاك كان يناهز الأحد عشر ألف نسمة ، وأكثرهم من الشوافع والاحناف . وكان عدد من الضباط الأتراك قد تركوا أسرهم في القدس اعتماداً على البريطانيين وسمعتهم الحسنة .

وفي يوم ٢٢ منه زار ستورز مفتي القدس الذي كان يعقد محكمته في بناية تطل شبابيكها على الحرم الشريف . فاستقبله في غرفة مربعة الشكل عالية القبة نظيفة الترتيب يحيط بها ديوان يتوسطه مكتب مغطى بالقماش الأخضر . ويقول ستورز ان المفتي كمال افندي ، ابن عم حسين افندي رئيس البلدية ، هو مفتي بالوراثة . ويبلغ عمره حوالي ٤٥ سنة ، وهو ذو تقاسيم منتظمة رشيقة ولباس أنيق . وقد درس في الأزهر ، ولذلك كان يعرف مصر معرفة جيدة ، لكنه لم يطلع على أية نسخة من المقطم أو غيرها من الجرائد خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، ولذلك انفرجت أساريره حينما وعده ستورز بأعداد شهر واحد منها . وقد لاحظ ان المتقاضين أمام المفتي كانوا يحضرون على انفراد بين حين وآخر فيسمعون منه ما كان يعتبره حكماً قضائياً ، فيتراجعون بهدوء من دون أن يكون في ذلك مقاطعة لسير الحديث بين الاثنين . وبعد ان قضى ستورز عند المفتي ساعة ونصف ساعة علم منه ان خزانة الوقف والميتم كان فيها ما يعادل حوالي أربعة آلاف ليرة تركية بالعملة الورقية ، وكان عليه أن يدفع منها أجور ما يقرب من سبعين مستخدماً وموظفاً في آخر الشهر .

وزار في اليوم الآخر مجلس اليهود الاشكناز الذي استقبله عشرون منهم بكثير من الحفاوة والرسميات في قاعة الاجتماع . وقد استطاع التفاهم خلال حديثه الطويل معهم بشيء من العربية والانكليزية . وهو يقول بكل تبجح انه لفت نظرهم الى أن تاريخ دخول اللنبي الى القدس يصادف اليوم الذي يحل فيه عدد الحنوكة المكابي ، والى ان أخبار الحرب العظمى نفسها وصلت الى القدس في التاسع من آب ، وهو اليوم الذي هدم فيه تاتيوس الروماني مدينة

القدس . ثم يضيف ان القدس كان فيها يومذاك ثلاثون ألف يهودي . ينتمي حوالي ستة عشر الف منهم الى الاشكنازيين (وهو شيء غريب) واربعة عشر ألف الى قسم السفارديم . مع عدد من يهود اليمن وبخارى . ويدعي ستورز ان « وعد بلفور » قد أساء الأتراك تفسيره لهم . ومع ذلك فقد أحدث كثيراً من الحماسة والابتهاج عندهم . وقد أنّبهم على قضية احتكار اليهود طع العملة الصغيرة في البلد . فانكروا ذلك وادعوا في مقابله ان المسلمين يبيعون لهم السمسم والحنطة بأسعار فاحشة . وحينما اضطر الى ان يتناول براندي « ديشون ليزيون » معهم على نخب الجيش المنقذ جعل نخبه هو لصحة الطائفة اليهودية في القدس وموفقيتها ! !

ويقول ستورز انه بعد ان بقي في القدس الى الثامن والعشرين من كانون الاول ١٩١٧ تبلغ في اليوم الأخير هذا بتعيينه حاكماً عسكرياً في القدس برتبة عقيد . خلفاً للجنرال بورتون . وكان هذا التعيين أمراً عسكرياً لا بد من قبوله على ما يقول . فتسلم عمله الجديد في مقر الحاكمية الذي كان لا يعدو ان يكون صفاً من الغرف غير المريحة في الطابق الأول من فندق هيوز الكائن مقابل حدائق البلدية في طريق يافا . وكان الموظفون في معيته الكولونيل ديرموغ . ومعاونه الكابتن بريستاو . والكولونيل غارنر . والميجر بورك . ثم جبرائيل حداد الذي جدد صداقته معه على ما يقول . ويثني ستورز على جبرائيل هذا فيقول عنه انه مسيحي سوري جاء به الجنرال بورتون من الاسكندرية كمشاور محلي . وهو رجل مقتدر بقدر ما هو مخلص ولطيف . وانه لا يستطيع تثمين خدماته القيمة في أيام الجهل والريبة تلك .

ثم يذكر كيف ان الجنود البريطانيين قد شقوا طريقهم عنوةً . قدماً بعد قدم . خلال البرد القارص في ذلك الطريق المضني المخطر الممتد عبر جبال اليهودية ووديانها ليجدوا عند تحرير القدس فخراً ومجداً قلما جادت بمثلهما الحرب العظمى على غيرهم . لكنهم لم يجدوا غير ذلك تقريباً . لان تلك الأيام كانت أياماً لما يزل يبدو فيها الخوف في أعين الناس . وجرعة الارتياح لا

نزال متوقفة في حناجرهم . فقد كانت أُسر مسيحية تنفى الى الأناضول بأكملها في ظرف ساعة واحدة لمجرد وجود صداقة (حقيقية أو مشكوك فيها) لها مع الحلفاء . وقد شنق قاض مسلم في باب يافا .. لكن الأنكى من ذلك ان الأتراك حينما أنزلوا علمهم ورحلوا عن البلاد التي حكموها اربعمائة سنة حملوا معهم السجلات والأموال والقيود والأدوية والآلات الجراحية ، مع الكثير من الأثاث وجميع المواد الغذائية ، وكل ما يمكن ان تكون له أقل فائدة للمدينة ومحرريها (كذا) .

المجاعة في القدس

يقول السر رونالد إن أشد ما كان يؤلمه ويثير قلقه في أيام القدس الاولى ندرة الأرزاق التي كانت لا تختلف كثيراً عن المجاعة . وكان يؤلمه أشد من كل ذلك ما يمكن ان يقوله الناس في المدينة المقدسة بان الانكليز قد حرروا القدس ليقضوا عليها جوعاً .

ومما يذكره في تقريره الى القيادة العسكرية في هذا الشأن ان أول ما يجابه المدينة بعد ان ضمن الجيش البريطاني سلامتها من أي هجوم معادٍ هو مشكلة الارزاق وصعوبة تيسر المواد الغذائية لأهلها . فقد كانت القدس الى ان أُعلنت الحرب تستورد مواردها الغذائية من البلاد المحيطة بها . إذ كانت تعتمد في حبوبها على مناطق السلط والكرك وغيرهما في شرق الأردن من جهة ، وعلى استيراد الطحين من الخارج عن طريق يافا والبحر من جهة أخرى . ومنذ ان دخلت تركية الحرب انقطع الاتصال البحري وبقي الاتصال بالطرق البرية ، ولما كانت تلك المناطق لا تزال في أيدي الأتراك يومذاك فقد انعزلت القدس بالنسبة لموارد الغذاء الاعتيادية . ومن المعتقد ان المدينة لم تعد فيها كميات مناسبة من الحبوب يمكن ان يعتمد عليها ، اما القرويون والفلاحون فلا يمكن ان تحصل الحكومة على شيء منهم .. وعلى هذا الاساس اقترح ستورز ان يستورد اليها حوالي مائتي طن حبوب من مصر في الحال .

وقد زار السر رونالد ستورز في هذه الأثناء فجأةً الجنرال اللنبي فاتح القدس نفسه ، لتفقد الأمور في المدينة . وأول ما عرضه عليه من المشكلات مشكلة الطعام والأرزاق . وفي صباح اليوم التالي أخذت تتقاطر على القدس بصورة منتظمة اللوريات العسكرية محملةً بالقمح فتنفس الجميع الصعداء . ولأجل تخفيف الضائقة أيضاً سُمح للمقيمين من سكان البلدان والمدن الاخرى بالعودة اليها . وكانت تنقلهم الى أماكنهم لوريات القمح العائدة بعد تفريغ حمولتها .

ومما كان يؤثر على وضع المجاعة هذا تأثيراً غير مباشر ارتباك وضع العملة في القدس وتدهور قيمة العملة التركية منها ، ثم اضطرار السلطات العسكرية الى استبدالها بالعملة المصرية يومذاك . ويقول ستورز في هذا الشأن ان ما كان يضيف الى مناظر القدس الغريبة منظر الجمهور الهائج والناس الذين يحملون المال الذين لا يستطيعون التصرف به وهم يتدافعون مع الشرطة الخيالة التي كانت تصدهم عن التجمهر في ابواب البنك العثماني للحصول على قطع العملة الصغيرة .

ويذكر ستورز ايضاً انه كانت هناك عدة منظمات تعمل على الاغاثة من جميع الوجوه للمسيحيين واليهود بحيث تخفف من الضائقة المستحكمة لدرجة ما ، لكن المسلمين لم تكن عندهم مثل هذه المنظمات الخيرية . ولذلك فسرعانً ما أسّس لهم مستوصف مجاني للمعالجة والتداوي ، ومطابخ للشوربا ، استطاع ستورز ان يجمع لها مبالغ كبيرة من المحسنين المصريين .

الجنرال اللنبي

يثني المستر ستورز ثناءً عطراً على القائد العام الفاتح الجنرال اللنبي ، على اثر دعوة تلقاها لزيارته في مقره العام في بيرسالم ، ما بين بساتين الزيتون في منطقة الرملة . ومن الغريب انه يصف الرملة بكونها بلدة صليبية ، بينما الرملة

في الحقيقة كانت موجودة منذ أيام الفتوح الاسلامية لأن المقر العام للجيوش الاسلامية كان فيها هناك ، على ما يقول لسترانج والجنرال غلوب ، فضلاً عن المراجع العربية .

وهو يقول انه ما زار المقر العام هذا حتى ألفى نفسه متعجباً من شخصية اللنبي وهو يردد في دخيلة نفسه أي قائد هذا الذي حصل على انتصار لامع حاسم ، وهو على اطلاع واسع بكل ما يجب الاطلاع عليه من أحوال الطيور الى احوال الحيوانات الوحشية والاسماك ، وقد قرأ كل شيء حتى استطاع ان يستشهد حرفياً بجمل ومقاطع من أشهر المراجع وأقلها شهرةً . ثم ركب معه وهو يمتطي حصانه الضخم « هندنبورغ » ما بين بيارات البرتقال . وتمشّى معه في اليوم الثاني بالقرب من أسوار القدس فلاحظه يطلب الى شخص كان يحدثه عن نبات من نباتات فلسطين . التي ورد اسمها في التوراة . ان يخصص له اسم السِفر والآية التي تشير الى ذلك . وكان يستطيع . على ما يقول ستورز . ان يسمي طيور فلسطين ويعرفها وهي محلقة في الجو فوق جبل الزيتون بعيداً عن أنظار الرجل الاعتيادي ! ! وقد كان من الصعب مجاراته في سرعة القراءة . وتزويده بالكتب لها حتى في أثناء حملة ١٩١٨ التي كان يقودها. ثم يخلص من ذلك الى القول بان اناساً كثيرين أصبحوا مرموقين خلال الحرب لكنهم لم يصبحوا شخصيات يُشار اليها بالبنان. وكان بوسع اللنبي ان يصبح شخصية ذائعة الصيت حتى لو لم تكن هناك حرب عظمى .



اللورد اللنبي قائد الجيش البريطاني الذي احتل القدس في ٩ كانون الاول ١٩١٧

ومن مزاياه انه كان يقضي على الدس والمخاتلة بإلهامه واستقامته . واذا ما حصل شيء من الخلل في شؤون الحملة وإدارتها ، لم يكن هو الذي يؤاخذ عليه مطلقاً . فالذين اشتغلوا مع مثل هذا الرئيس المخلص، الطيب القلب ، يذكرون على الدوام بانه لم يتدخل في شيء الا للتأييد والتشجيع .

ويثني ستورز كذلك على نظام الحكم العسكري الذي ساعده كثيراً في تذليل الصعاب حينذاك ، وتزويده بكل ما يمكن للعمل حتى صار عنده على ما يقول اسطول يتألف من أربع عشرة سيارة فورد لأغراض الاغاثة وتوزيع الأطعمة ، بعد ان لم تكن الحاكمية تملك لا تلفوناً ولا سيارة واحدة في القدس يوم تسلم زمامها هوبيده .

مشكلات ادارية وغير ادارية

يلاحظ مما يدونه ستورز في مذكراته ان « إدارة اراضي العدو المحتلة » OETA كانت تجابه مشكلات ادارية جمة في القدس الى جانب مشكلات الأرزاق والاعاشة . وكان قسم من هذه المشكلات سببه التعليمات العسكرية التي تصدرها القيادة العامة . فقد كان التنقل بين فلسطين والخارج ، وبين القدس وسائر أنحاء فلسطين . أمراً صعباً لا سيما وان القدس كان فيها عدد غير يسير من رعايا العدو والرعايا المحايدين ، حتى بين أبناء الطوائف الدينية المختلفة . إذ كان على كل مدني يرغب في الدخول الى فلسطين او الخروج منها ان يحصل على رخصة خاصة .. اما في داخل فلسطين نفسها فقد كانت الرخص ضرورية للمسافرين حتى وإن سافروا مشياً على الاقدام الى القدس أو أية مدينة أو قرية أخرى .

وكان الأتراك قد أخذوا معهم عند الانسحاب من فلسطين أشياء كثيرة من جملتها رؤساء بعض الطوائف المسيحية مثل داميانوس من الأورثودكس ، وأورمانيان بطريرك الأرمن ، وغيرهما . ثم أخذ القاضي بحجة عقد المحاكم الشرعية . فأحرجوا السلطات المسيحية في تعيين شخصية مسلمة بدلاً عنه .

ولذلك فقد نسّب ستورز المفتي للقيام بأعمال القاضي أيضاً فلم يتوقف العمل . وقد صادف ان توفي رئيس بلدية القدس السيد حسين الحسيني في أوائل سنة ١٩١٨ واضطرت الادارة العسكرية الى تعيين رئيس جديد ومجلس بلدي جديد

يضاف الى ذلك ان مدينة القدس لم تكن فيها إنارة ، ولهذا لم يكن يُرى في الليل ولا ضوء واحد فيها حينما تشاهد من فوق جبل الزيتون الذي كانت لا تزال تسمع منه أصوات القتال في معركة أريحا ، وأوجه حركاتها . ولذلك كانت المدينة تنام عند غروب الشمس .

وكان الفلاحون يلاحظون بالأسمال البالية في كل مكان ، كما كانت الشوارع ملأى بالفقراء والشحاذين ، وكانت حالة السجون ومن فيها بحالة مزرية تقزز الأنفس .

وقد أُضيفت الى هذه المشكلات وغيرها مشكلة اللاجئين الأرمن الذين تجمّع زهاء ألفين منهم على بطريركيتهم في القدس . وكذلك مشكلة اللاجئين من نصارى السلط الذين تبعوا الجيش البريطاني خوفاً من بطش الأتراك بهم لأنهم كانوا قد رحبوا به ـــ لكن الحكومة كان يساعدها في مجابهة هذه المشكلات الجمعيات الخيرية المسيحية ، ومنها جمعية « إسعاف سورية وفلسطين » ، برآسة الدكتور ماك أينس اسقف القدس الأنكليكاني ، التي يثني عليها ستورز ثناءً عطراً . وكان بوسع « ادارة اراضي العدو المحتلة » ان تطلب كذلك ، على ما يقول ستورز ، مساعدة وحدة(هداسه)الطبية (اليهودية) والصليب الأحمر الأمريكي .

وكانت سياسة « ادارة أراضي العدو المحتلة » في تمشية شؤون القدس وغيرها يومذاك المحافظة على الوضع الراهن في كل شيء ، دينياً ودنيوياً ، برغم الصعوبة التي كانت تجابهها في تنفيذها . وقد أعلن عن ذلك الجنرال اللنبي عندما احتل القدس أول مرة ، الى ان تعرف نتيجة الحرب ويبت في وضع البلاد بوجه عام .

ومن أهم ما طبقت فيه سياسة الوضع الراهن هذه في القدس سدانة كنيسة القيامة والاشراف عليها . فقد أودع أمر حراستها الى جنود بريطانيين وفرنسيين وطليان ، لكنها كانت محرمة عليهم وهم الذين قاتلوا في سبيل تحريرها من نير الحكم العثماني . وكان يمثل هذا الحكم في داخل الكنيسة – من دون أي تعسف هنا على الأقل كما يقول ستورز ، سادن مسلم يتولى عمله بالوراثة . وهو شخصية وقورة في عمامته وقفطانه كان جده الأعلى قد تعين في هذا المنصب على عهد الملك الكامل ، على أثر المعاهدة التي عقدها في ١٢٢٩ مع الامبراطور الصليبي فردريك الثاني . ويقول ستورز انه تلقى ضغطاً غير قليل من مختلف الطوائف المسيحية يومذاك بتبديل الوضع لأن بقاء أقدس مكان عند المسيحيين في يد هذا السادن المسلم يعتبر تحدياً يجب ان لا يتحمله أي حاكم مسيحي في القدس . لكنه يقول ان عدداً قليلاً من الذين فاتحوه في الأمر كانوا قد زاروا القبر المقدس في الكنيسة أو دخلوا أية كنيسة أخرى ، ولم يفكر أحد منهم بأي وضع مسيحي كان يمكن ان يستبدل الوضع الراهن ، ومن هو الذي كان يمكن ان تقبل به الطوائف المسيحية كلها . فلم يكن من الممكن ان تسمح الطائفة الأورثوذكسية بتولي شخص من الكاثوليك الروم ، كما لم يكن الروم الكاثوليك ليحتملوا أي شخص من الأورثوذكس أو الانكليكان – حتى اذا كانت الكنيسة الانكليكانية تملك الحق للتدخل . ولم يكن بوسع جميع الطوائف ان تتسامح في تعيين شخص من البروتستان ، فيما لو وافق أحدهم على تولي هذا المنصب . يضاف الى ذلك أن الشيخ المسلم كان يقوم بعمله خير قيام ، بالمحافظة على الوضع الراهن والأمن العام بقدر ما يستطيع ، والاستعانة بالشرطة عند الحاجة . ويقول ستورز انه يمكن ان يذهب الى أبعد من هذا فيذكر ان الشيخ كان الموظف الوحيد ، بين العسكريين والمدنيين ورجال الدين ، من المندوب السامي الى المستخدم البسيط في البلدية ، الذي لم يُسمع عنه أي تذمر من الناس بشتى طبقاتهم خلال السنوات التسع التي قضاها في حاكمية القدس الشريف . لكن هذه الاعتبارات جميعها لم تكن تجديه نفعاً ضد

التحريكات المشار اليها لو لم يستطع ستورز نفسه التمسك به بمقتضى المحافظة على الوضع الراهن التي لا يمكن ان يناقش فيها أحد .

ومع ان الجيش البريطاني هو الذي كان يحتل القدس فقد كان حلفاؤهم الفرنسيون يصرون على تحدي الوضع الراهن ، ويطالبون بمراعاة ما كان يعرف عن كونهم حماة المسيحية اللاتينية في بلاد الامبراطورية للعثمانية ، واعتبار المسيو بيكو وبعثته الفرنسية في القدس في وضع مرموق خاص يشرف فيه على اجراء الطقوس الدينية ومراسيمها على الأخص . وقد استمرت بطريركية اللاتين الى ما بعد وضع انتداب البلاد المقدسة بعهدة بريطانية وهي تخاطب الحكومة الفلسطينية عن طريق القنصل الفرنسي العام . واستمرت تعمل على هذا الاساس حتى سنة ١٩٢١ حين أبطل الفاتيكان نفسه هذا الوضع الخاص .

وقد ساعد الحكومة الفلسطينية تمسكها بسياسة المحافظة على الوضع الراهن على عدم إفساح المجال في القدس برفع أعلام مختلفة أو عزف سلامات خاصة لمختلف الدول والجهات . ذلك لأن الجنرال اللنبي كان قد قرر منذ البداية أن لا يرفع في البلاد كلها سوى العلم البريطاني وحده فوق محل إقامة القائد العام .

ويعترف ستورز (الص ٣٠١) بان الادارة العسكرية ، برغم جميع الجهود المبذولة في المحافظة على الوضع الراهن ، قد خالفت هذه السياسة بصورة صريحة في الشؤون المختصة بالصهيونية . فهو يقول ان فلسطين كانت من البلاد التابعة الى الامبراطورية العثمانية المسلمة (وان نصفها كان لا يزال في ١٩١٨ تابعاً لها كذلك) ، والأغلبية العظمى من سكانها كانوا من العرب . وبالنسبة لسياسة المحافظة على الوضع الراهن كان من حقنا (بموجب ما تلقيناه من تعليمات) ان ندخل في روع الذين يرغبون في إجراء إصلاحات عاجلة بأننا هنا مجرد « حكومة عسكرية » ولسنا « اداريين مدنيين » . ولذلك كانت طريقتنا المنطقية في العمل ان ندير البلاد كما لو كانت بمثابة مصر أو أية بلاد أخرى فيها أقليات مهمة . فنجعل الانكليزية لغةً رسمية . ونهيء ترجمات عربية ومترجمين الى العربية . ونعامل المقيمين في البلاد من اليهود والأوربيين

والأرمن وغيرهم كما يعاملون في بلاد أخرى .

لكن موقف « إدارة اراضي العدو المحتلة » كان أبعد ما يكون عن هذه المفهومة في أول بيان أصدره الجنرال اللنبي . وجميع ما أصدرته أنا . فقد صدر باللغة العبرية . الى جانب الانكليزية والعربية . وكانت اعلانات الدوائر والاعلانات العامة تصدر منذ البداية باللغات الثلاث . وكذلك الوصولات الرسمية ووصولات البلدية . وقد تعين بين موظفينا ضباط يهود وكتاب يهود ومترجمون . فانتُقدت « ادارة أراضي العدو المحتلة » على هذه التصرفات في داخل فلسطين وخارجها .

على ان ستورز يحاول تبرير هذا التقصد الصريح في قيام حكومته البريطانية بفرض اليهود على فلسطين منذ البداية . فيقول ان الادارة لا تلام في عملها هذا لأن بريطانيا العظمى كانت قد أعلنت « وعد بلفور » فلقيت الفكرة الواردة فيه تأييداً جماعياً تقريباً !!! وهذا من شأنه ان يعطي السلطة المحتلة الحق في افتراض ان الحكومة التي ستشكل في فلسطين أخيراً ستكون مجبرة على الاعتراف بحق الصهيونيين في فلسطين . برغم ان عصبة الأمم لم تكن قد وُلدت يومذاك وان الانتداب لم يكن يدور في خلد الناس في تلك الأحوال .

ومما حدث على عهد ستورز في القدس انه سعى الى تشكيل جمعية خاصة لأعمار القدس وتجميلها تبناها هو بصفته الحاكم العسكري . فكانت برآسته وعضوية رئيس البلدية . والمفتي . ومدير الآثار القديمة الانكليزي . وبعض الحاخامين الكبار . ورؤساء الطوائف المسيحية المختلفة . ورؤساء الطائفة اليهودية ، ورئيس الوكالة الصهيونية . مع عدد من الشخصيات البريطانية والعربية واليهودية والأمريكية البارزة في البلد . ومن الغريب ان لغة هذه الجمعية عند الاجتماع وضبط المحاضر جعلت الفرنسية . لكنه يقول ان ذلك كثيراً ما كان يغض النظر عنه فتتم المفاهمة بالعربية والتركية والعبرية وحتى بالأرمنية . كما يقول ان هذه العناصر المتنافرة قد وحدها في الجمعية حب الجميع للمدينة المقدسة التي كان يسعى الجميع لتحسين أحوالها . وكان مما

فعالته الجمعية أنها سعت في جمع تبرعات من جميع الملل في الداخل والخارج ، فتم الحصول على مبالغ غير يسيرة من مصر وانكلترة وأمريكا وغيرها .

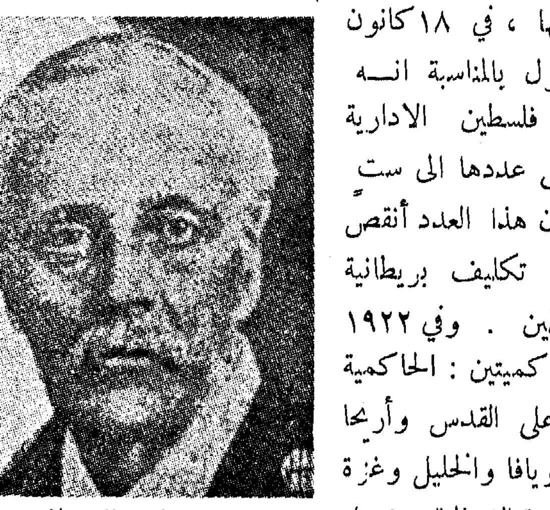
ويذكر ستورز في هذه المناسبة ان قبة الصخرة قد تضررت ضرراً بليغاً خلال الشتاء القاسي الذي مر بالمدينة المقدسة سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ ، ولا ميما جبهتها الشمالية الغربية ، وأخذ قاشانيّها البديع تتساقط بلاطاته واحدة بعد أخرى فتباع في أسواق البلد . وقد كان من حسن الحظ ان استطاع ستورز ان يستقدم لهذا الغرض المستر أرنست ديشموند من مهندسي الأوقاف المصرية ، فقدم تقريراً مفصلاً بالترميمات والتعميرات المهمة . ولأجل ان يمكن تنفيذ ما جاء بتوصياته تم الاتفاق على ان يقوم مفتي القدس باصدار بيان خاص يناشد فيه العالم الاسلامي بالتبرع بالمبالغ المطلوبة لذلك . وقد تضمن البيان ذكراً لمقدار المبالغ التي قدرها المستر ر شموند بثمانين ألف باون استرليني .

وقد اكتشف ريشموند هذا خلال كشفه على القبة الأفران التي بنيت فوق « اسطبلات سليمان الحكيم » في منطقة الهيكل لصنع الكاشاني والآجر عند تشييد قبة الصخرة . وعلى هذا الأساس استُدعي من الشام رجل أرمني (داود أوهانيسيان) مختص وخبير آخر من كوتاهية في الأناضول لصنع القاشاني محلياً في تلك الأفران القديمة ، بدلاً من جلبه من أوربة كما كان يحصل في الخمسين السنة الأخيرة . ومما يشير اليه ستورز في هذا الشأن ان وضع القبة كان مخطراً حتى قبل سنة ١٩١٨ ، ولم يستطع المهندس الألماني الذي بعثه قيصر ألمانية لنفس الغرض قبل أربع سنوات ان يعمل شيئاً سوى ان يقترح إكساء الجهة الشمالية الغربية المتضررة ببلاطات من حديد الصب تستورد من ألمانية .

ومما يدل على الروح الصليبية التي كان يحملها الانكليز حينما دخل اللنبي الى القدس خلال الحرب العالمية الأولى ما يذكره ستورز في(الص ٣١٥)في تسمية اسماء الشوارع الجديدة في القدس ، أو الشوارع التي لم تكن لها أسماء على ما يدعون . فقد سُميت بالأسماء الآتية : شارع سنت فرانسيس ، طريق سنت بول ، شارع غودفري دي بويون (من ملوك الصليبيين) ، طريق

نحميا ، زقاق تانكريد (من الصليبيين) ، ساحة اللنبي ، طريق سليمان ، طريق الملكة مليساند (من الصليبيين) ، وشوارع الأنبياء . ولأجل ترضية المسلمين بعض الترضية سُمي شارع من الشوارع باسم صلاح الدين كذلك . ومما يدل على ممالأة الوضع لليهود ان الجمعية التي كان يرعاها ستورز أسست مدرسة خاصة للموسيقى في القدس فكان ثلاثة أرباع اساتذتها منذ البداية ، تسعون بالمئة من طلابها ، من اليهود . وبعد ان تشكلت ونظمت سُلمت الى اليهود ليتصرفوا بها .

ويذكر ستورز (الص ٣٢٣) انه تسلم حاكمية فلسطين كلها وكالةً بعد نقل الجنرال موني منها ، في ١٨ كانون الأول ١٩١٨ . ويقول بالمناسبة انه زار جميع مناطق فلسطين الادارية الاثنتي عشرة فانقص عددها الى ست فقط . ثم يشير الى ان هذا العدد أنقص الى ثلاثة بعد قرار تكليف بريطانية بالانتداب على فلسطين . وفي ١٩٢٢ قُسمت فلسطين الى حاكميتين : الحاكمية الجنوبية وتشتمل على القدس وأريحا وبيت لحم والرملة ويافا والخليل وغزة وبئر السبع ، والحاكمية الشمالية وتشتمل على حيفا وبلاد السامريين (نابلس) والجليل . وفي ١٩٢٦ أُعيد تقسيم المنطقة الجنوبية الى منطقتين هما : منطقة القدس وما جاورها ، وتضم الأخرى الأقسام المذكورة من قبل .


اللورد بلفور صاحب الوعد المعروف باسمه

وعد بلفور

لقد قيل الكثير ، وكتب الكثير ، عن هذا الوعد المشؤوم والظلم الصارخ الذي يندر صدور نظيره في التاريخ . وليس هناك مجال في بحثنا هذا للتعمق فيه ،

حيث يصعب حصر ما كتب عنه في المراجع الغربية وغيرها . وليس هناك ما يدعو الى ذلك لأنه أصبح معروفاً لدى الخاص والعام ، بل يكفي ان نشير الى ان هذا الوعد كان من أساليب الأمبريالية الماكرة في هذا العصر ، التي لا تحسب حساباً لانسانية أو دين أو انصاف أو أي معنى من المعاني السامية التي يعتز بها البشر . ولذلك سوف نقتصر هنا على ايراد نقاط موجزة تكفي لتوجيه البحث .

لقد أشرنا فيما سبق الى ان الصهيونية العالمية قررت العمل على استملاك فلسطين بكل وسيلة . وشرعت في تنفيذ قرارها بمفاوضة السلطان عبد الحميد في الأمر لكنها قوبلت برفض بات منه . فأخذت تكيد له وتدس عليه في بلاده نفسها . ثم راحت تسعى جاهدةً بواسطة أذنابها لادخال الدولة العثمانية في حربٍ لم تكن لها فيها ناقة ولا جمل لتقضي عليها . وهي التي كانت تسمي الدولة العثمانية «الرجل المريض» يومذاك . وعندئذٍ تجد فرصتها مع المنتصرين للتأثير عليهم وحصول ما تريده منهم . وحينما لاح أمل انتصار بريطانية وحلفائها في الحرب أخذت بالتأثير على وزراء بريطانية وساستها . من امثال لويد جورج رئيس الوزراء وبلفور وزير الخارجية والجنرال سمطي وهربرت صموئيل الصهيوني حتى كان لها ما أرادت واستحصلت الوعد المذكور على صورة كتاب موجه رسمياً من بلفور وزير الخارجية في ٢تشرين الثاني ١٩١٧ الى اللورد روتشيلد اليهودي .

ويفهم من التفصيلات التي يوردها جفريز في (حقيقة فلسطين) ان صيغة كتاب بلفور . والجمل والمصطلحات الواردة فيه . قد هيأها وايزمن وجماعته الصهاينة أنفسهم بالاتفاق مع المستر بلفور بالذات ، وان الصهاينة قد بذلوا جهوداً مضنية مع امريكا وسائر الدول في سبيل ان تكون فلسطين بعد انتهاء الحرب واقتسام الغنائم والأسلاب من حصة بريطانية . حتى يمكنها تنفيذ ما تتعهد به لهم . فكان لهم ما أرادوا (الفصل العاشر الص ١٥٦) . ويقول المطلعون ان الدوافع السياسية لاصدار هذا التصريح يمكن تلخيصها برغبة

بريطانية في استمالة العناصر الصهيونية القوية في المانية والنمسا خاصة ، وفي سائر انحاء العالم عامة ، واستجلاب عطف يهودإمريكا في وقتٍ لم تكن الولايات المتحدة قد قررت فيه خوض الحرب الى جانب الحلفاء . وقد يكون أهم من هذا ما ارتآه أنصار التصريح من أنه يؤدي الى جعل فلسطين المتاخمة لقنال السويس منطقة نفوذ بريطانية تحمي مركزها في مصر وتضمن الاتصال البري بالشرق ، وتقيم سداً بين موقعها في قناة السويس وموقع فرنسة المقبل في سورية ثم ان وعد بلفور يمهد السبيل أمام بريطانية للمطالبة بان تكون فلسطين من حصتها حتى تتمكن من تنفيذ وعد بلفور لليهود (اكرم زعيتر الص ٤٥) .

ويلاحظ مما ورد في الكثير من المراجع الغربية ، ولا سيما في كتابي جفريز والمسز ستيوارت أرسكين ان بريطانية لم يكن من حقها ان تصدر مثل هذا الوعد بالنظر لما تنطوي عليه النقاط التالية :

اجتماع امام قبة الصخرة للاحتجاج على وعد بلفور



١ ــ ان صيغة الوعد الواردة في الكتاب صيغة غامضة يسود فيها التناقض كما هي الحال في كثير من الوثائق التي تصدرها الحكومة البريطانية على الداوم . ولا شك ان هذا الغموض وهذا التناقض كانا مقصودين حتى يمكن للحكومات البريطانية المتعاقبة تنفيذ ما تريده من ورائهما .

٢ ــ ان الوعد المذكور لم يكن التزاماً دولياً له قيمته القانونية . وانما كان عبارة عن كتاب عطف موجه الى شخص ما .

٣ ــ ان بريطانية العظمى لم تكن عند صدور التصريح قد استولت على فلسطين بعد ، ولم تكن فلسطين تابعة لبريطانية . ولذلك فقد كان وضعها في هذا الشأن أشبه بمن يهب ما لا يملك ، ويبت في مصير بلدٍ لا سيادة له عليه .

ان اللورد روتشيلد الذي وجه اليه كتاب التصريح كان شخصاً من وجهاء اليهود ، ولكنه لم تكن له صفة دولية معترف بها ، ولم يكن يمثل حتى يهود بريطانيا تمثيلاً صادقاً .

٥ ــ ان عبارة « الوطن القومي » عبارة مبهمة لا معنى لها في القانون الدولي وانما هي اصطلاح اخترعته ألاعيب الصهاينة ومن شابههم من مهوّدي الانكليز يضاف الى ذلك ان الديانة اليهودية هي ديانة يتفرق ابناؤها في مختلف بقاع العالم ولا يكونون أمة ذات قومية عرقية خاصة . وان معظم يهود أوربة لم تكن لهم علاقة بفلسطين مطلقاً ، ولا يستطيعون حتى التكلم بالعبرية ، لأنهم كلهم يمتون الى قبائل الخزر التي اعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي .

٦ ــ لم يلتفت التصريح مطلقاً الى سكان البلاد الاصليين ، وهم العرب وتجاهل حتى ذكر اسمهم ، بينما كانوا أهل البلاد والأغلبية الساحقة فقد كان عدد اليهود في ايام الحرب لا يزيد كثيراً على الخمسين ألف في حين كان العرب يبلغ عددهم ما يقرب من سبعمائة ألف نسمة . ومع كل هذا تعمد التصريح إغفال ذكر السياسة لغير اليهود واشار فقط الى الحقوق المدنية والدينية وتعلق الكاتبة الانكليزية مود رويدن بهذه المناسبة في كتابٍ لها بعنوان (مشكلة

فلسطين) [1] قائلة : ويتعلق هذا التصريح بفلسطين ، اي ببلد عربي وعدنا سكانه بحريتهم وفزنا بمساعدتهم مقابل هذا الوعد . ولكن رغبات هذا الشعب لم يلتفت اليها ولا مرّة واحـــدة . ويتعلق التصريح بفلسطين البلد الذي كـــان تسعون بالمائة من سكانه عرباً ، لكن كلمة « عربي » لا تأتي على الاطلاق في هذه الوثيقة العجيبة . ويتعلق التصريح بشعب فلسطين التي سكنها ألفاً وثلثمائة سنة ، ومع ذلك فان الاعتراف بوجوده يشار اليه مرة بعد اخرى بعبارة « الاوساط غير اليهودية » . . ولم يكن للحكومة الأنكليزية الحق بقطع هذا الوعد ، فقد كان فاسداً منذ البداية . . ولا يحق لعصبة الأمم ان تمنح بريطانيا انتداباً على فلسطين ، فكيف بانتداب يشترط فيه وعد بلفور ؟ وقد يظهر هذا غريباً للذين يؤمنون بقوة السياسة ، ولكن من الحق القول ان للامم الضعيفة حقوقاً خاصة بها ، لا تقل عن حقوق الأمم القوية في أهميتها . . (الص ١٠٣ من الترجمة) .

٧ ـــ ان الحكومة البريطانية كانت ، قبل ان تصدر وعد بلفور بسنتين ، قد اتفقت مع العرب بمعاهدة تمنح البلاد العربية المنسلخة عن الدولة العثمانية استقلالها فتكون دولة عربية شاملة ، فجاء الوعد المزيف مناقضاً لهذا الاتفاق . فلا يخفى ان العرب اعلنوا الحرب على الأتراك وهم أخوانهم في الدين للحصول على استقلال البلاد العربية التي تنص عليها هذه المعاهدة ، ثم ساروا بقيادة فيصل بن الحسين الى ان دخلوا الشام قبل اللنبي ، بعد ان ساعدوه مساعدة جلى لا ينكرها احد ، ويعتز بها حتى لويد جورج واللنبي ولورانس . إذ تذكر الكاتبة الانكليزية مود رويدن (الص ٧٨ و٧٩ من الترجمة العربية) قولها : وفي هذا الوقت ظهرت أهمية التعاون العربي أكثر من أي وقت مضى . وعمل فيصل باخلاص تام بجانب اللنبي . ويقول لورنس [2] : أن الجيش العربي تطور من جماعات

---

(١) Royden, Maude — The Problem of Palestine London 1938.
ترجمة مكتب مجلة الايمان في بيروت الى العربية (١٩٣٩) .

(٢) Garnett, David — The Letters of T.E. Lawrence (London 1938) P. 312

بدوية الى فرق عسكرية منظمة كاملة العدة ، وأسر خمسة وثلاثين الف تركي وقتل عدداً أكبر من هذا ، ثم استولى على مائة وخمسين مدفعاً وعلى مائة ألف ميل مربع من الأراضي العثمانية . و كانت هذه خدمة جلى لنا ، ووجدنا انا مدينون للعرب بمكافأة تماثلها .

ثم تعقب المس رويدن ذلك بقولها : وهناك دليل آخر على أهمية المساعدة العربية للجيش الانكليزي ، وهي شهادة الجنرال اللنبي نفسه التي أتى على ذكرها لويد جورج في مؤتمر السلم عام ١٩١٩ إذ قال : لم تكن القضية السورية قضية سورية وانما كانت قضية انكلترا نفسها . فمع ان انكلترة جندت ما يقارب تسعمائة الف الى مليون جندي ضد تركية فقد كانت مساعدة العرب اساسية لها ، وهذه نقطة استطاع الجنرال اللنبي ان يتكلم عنها ، حيث قال : ان مساعدة العرب كانت فعالة لا تقدر بثمن . ويتابع المستر لويد جورج قوله ان الملك حسين كان قد حشد كل قواه لتأييد انكلترة في ساحة القتال ، وهذا مما ساعدنا عملياً على الفوز في النهاية [١] . . ثم تقول رويدن في الاخير : وليس هناك شك في ان الفضل في نجاح حملة الجنرال اللنبي لا يعود فقط الى القوى الانكليزية ، ولا الى نبوغ الجندي العظيم ، بل الى العرب الذين حاربوا في صفوفه .

صك الانتداب

وعلى كل فان المنطق والحجج الدامغة لا يمكن لها ان تقر شيئاً من الناحية العملية تجاه سياسة القوة والفتح التي تذرعت بها دول الحلفاء المنتصرة في الحرب العظمى . فقد كان رجالها الاستعماريون الخاضعون للنفوذ الصهيوني ، والمتشبعون بالروح الصليبية الأصيلة ، راغبين في تسليم فلسطين لقمة سائغة لليهود . فابتدعوا مهزلة الانتداب ، وسلمت فلسطين الى بريطانيا باعتبارها

---

(١) George Antonios — The Arab Awahening New York, 1939

الدولة المنتدبة عليها . وأدخلت النقاط الواردة في صك الانتداب نفسه ؛ وكان وضع مسودة هذه الوثيقة ايضاً على أيدي الصهاينة الأثيمة . فقد أخذ رأيهم في الموضوع وكلفوا بوضع الشكل المقترح لصك الانتداب قبل اقراره . حيث أنه يكاد يكون صورة طبق الأصل لمشروع الجمعية الصهيونية الذي عرضته على مؤتمر الصلح شباط ١٩١٩. ويفهم مما جاء في مذكرات[1] وايزمن ان بنيامين كوهين الأمر التي هو الذي عهد اليه بالاشتراك مع سكرتير اللورد كرزن وزير خارجية بريطانيا بتنظيم مسودة صك الانتداب والموافقة على نصوصه .

وفيما يأتي ندرج النقاط التي المهمة تختص بفلسطين في صك الانتداب :

١ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد (فلسطين) في احوال سياسيه واقتصادية وادارية تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي فيها ، كما جاء في ديباجة الصك . وعن ترقية مؤسسات الحكم الذاتي .

٢ — يعترف بوكالة يهودية صالحة كهيئة عمومية لأسداء المشورة والمعونة الى ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ومصالح السكان اليهود في فلسطين ولتساعد وتشترك في ترقية البلاد.. ويعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة ما دامت الدولة المنتدبة ترى ان تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة .

٣ — على ادارة فلسطين . . ان تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة . وان تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود في الأراضي بما فيها أراضي الحكومة والأراضي الموات غير المطلوبة للمصالح العامة .

٤ — على ادارة فلسطين ان تتولى مسؤولية سن قانون للجنسية ، ويجب ان يشتمل ذلك على نصوص من شأنها ان تسهل لليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم اكتساب الجنسية الفلسطينية .

---

(١) Dr. Weizmann, Chaim — Trial & Error, New York 1949

اما تعليقنا على هذا فهو ان « صك الانتداب » قد جاء عبارة عن « صك عبودية » منحته الدول المنتصرة الغاشمة الى بريطانيا حتى تمهد فيه لتسليم فلسطين الى الصهاينة . وقد برهنت الحوادث الى حد اليوم على قولنا هذا . وهو في كثير من نقاطه يخالف ميثاق عصبة الأمم ، إذ تجعل المادة ٢٢ منه رغبة السكان الأصليين في البلاد المنتدب عليها هي التي تعين الدولة المنتدبة في الدرجة الأولى . لكن العرب أصحاب فلسطين لم يؤخذ رأيهم في تعيين بريطانيا دولة منتدبة على بلادهم ، وانما كان هذا التعيين تلبيةً لرغبة الجمعية الصهيونية .

وتستند فكرة « الوطن القومي » وديباجة الصك على شيىء وهمي مصطنع يقال له « صلة اليهود التاريخية » بفلسطين ، وتجعل هذه الفكرة من أهم الأسباب الداعية لأنشاء الوطن القومي . ولاشك ان ما مر ذكره من خلاصة تاريخية يكذب هذه الاسطورة .

ويؤيد رأينا هذا كثير من كتاب الغرب أنفسهم ، الذين نورد فيما يأتي شيئاً من آرائهم في هذا الشأن . فقد ذكر المستر اليهو غرانت يقول : ان الحقوق اليهودية في فلسطين قد سقطت بين سنتي ١٣٦ و ١٩٢٠ للميلاد ، وبكلمة ثانية منذ ابتداء التاريخ المسيحي على التقريب . ولذلك فان ادعاءآت اليهود بالبلاد ترجع إذن الى ما قبل التاريخ المسيحي ، ولكنهـا عادتنا في ان ننسى العربي المسيحي ونفتري على العربي المسلم[١] .

وتقول الكاتبة الانكليزية . . ود رويدن في (مشكلة فلسطين) : ونحن كأمة نشأت على الانجيل نجد الحقيقة بان فلسطين يمكن ان توصف بكونها « عبرية صريحة » صدمة لنا . ومع اننا جميعاً نعلم ان الرومان دمروا القدس عام ١٣٥م وان اليهود انتشروا في العالم ، فاننا لا نزال نعلق في مخيلاتنا فلسطين باليهود

---

(١) Grant, Eliho — Palestine Today, 1938.
الص ٥٠ من الترجمة العربية التي ترجمها منير بعلبكي بعنوان (حاضر فلسطين) بيروت ١٩٣٩ .

وباليهود فقط . . وتقول رويدن في مناسبة أخرى : نحن لا نعرف . كما أنه لا يمكن لأحد ان يعرف من كان هناك أولاً . انما نحن نعرف ان الرجوع الى الوراء الفاً وثلاث مئة عام لنبحث في التاريخ ونرجع البشرية الحائرة الى الأرض التي احتلتها ضرب من المستحيل . نحن الانكليز لا ننتظر ان نسكن المانيا او ندعي بذلك لمجرد كون اجدادنا الانكلوسكسون عاشوا هناك اياماً . ولا نسمح للويلشن ان يمتلكوا انكلترة بناء على انهم كانوا هنا قبلنا . انها لفكرة مضحكة . ان مكوث امة الفاً وثلثمائة سنة في ارض من الاراضي يخول لها الحق الكامل بامتلاكها امتلاكاً لا يحتمل الجدل والنزاع . ولم يحدث هذا مع الاسف الا في فلسطين (الص ٨٦ و ٩٨ من الترجمة العربية) .

ويقول المستر لورانس غريزوولد الكاتب الأمريكي في كتابه الذي ترجم بعنوان (إدفع دولاراً تقتل عربياً) — الص ١٨ من الترجمة العربية — ومن هذه الخلاصة الموجزة يدرك القــارىء ان دعوى الصهيونيين بأن يكــون ذلك القطر وطناً قومياً لهم انما تستند الى عهد شفهي خرافي أعطاه يهوه لموسى . والواقع ان البروفسور أولبرايت أحد كبار الثقات العالميين في تاريخ فلسطين القديم يذكر بوضوح لا يحتمل اللبس على انه ليس في فلسطين أية آثار يهودية ترجع الى ما قبل العهد الروماني الانطوني .. ثم يقول (الص ٢٨) في مناسبة أخرى : « والحقيقة الواضحة تحتم علينا القول بأن سيادة العبرانيين القصيرة عــلى فلسطين لا تمنحهم من الحقوق فيها غير جزء مما تمنحه لسيادة العرب والفرس والرومان على الديار المقدسة من حقوق . بل انها لا تمنحهم حقوقاً تتساوى وحقوق الصليبيين الأوربيين أنفسهم . والى ذلك فقد كان ثمة طبعاً حقيقة إضافية . وهي ان فلسطين كانت آهلة بالعرب العصريين الذين ترجع ملكيتهم للأرض الى القرن السادس عشر ! . والواقع ان التنكر الفجائي للحقوق الطبيعية واخراج الشعب الذي يملك الأرض ويحرثها من دياره ليس الا من عمل الساسة المتعودين على التصرف بما يملكــه الآخرون . واليهود الذين اكتسبوا تفكيرهم وطبيعتهم من الاحياء القذرة التي أقاموها لأنفسهم في أوربة الشرقية »

تنفيذ الانتداب

ان الغريب في الأمر ان الحكومة البريطانية اعتبرت كل ما مر شيئاً حاصلاً منذ أول احتلالها للبلاد . وقبل ان تصدر وعد بلفور . أو قبل ان يفكر أحد في الانتداب والصك المدبر لتنفيذه . وأخذت تمهد الطريق لتسليم فلسطين الى الصهاينة عند أول فتحها للقدس وقبل ان يتم الاستيلاء على فلسطين جميعها . كما يستفاد مما أوردناه قبل هذا من مذكرات السر رونالد ستورز .

وقد جاءت لهذا الغرض بما يسمى « اللجنة الصهيونية » لتشارك الحكومة البريطانية في المهمة الأثيمة ، وعُيِّن الموظفون الصهاينة في المراكز المهمة . وصارت هذه اللجنة التي استقرت في القدس تتدخل في الصغيرة والكبيرة وتعتبر نفسها صاحبة البلاد . والمسؤولة عن ادارتها . حتى انها كانت تصدر كتباً خشنة ملأى بالصلف والتحدي حتى الى الموظفين الانكليز . فاصطدمت بها مرات عديدة . ويلاحظ ذلك على الأخص في عهد السر لويس بولز الحاكم الاداري العام على فلسطين جميعها . الذي تجرأ فكتب مذكرة شديدة اللهجة في هذا الشأن الى مرجعه في لندن . يعدد فيها تجاوزات اللجنة الصهيونية وتصرفاتها الشائنة[١] .

ويقول جفريز ان مصير هذه المذكرة غير معروف لكنها على وجه التأكيد كانت سبباً قوياً من الأسباب التي دعت لويد جورج الى التعجيل في الغاء الادارة العسكرية في فلسطين . وحدت بوايز الى ان يطـالب بتعيين أناس من الانكليز في فلسطين يبدون اهتماماً أكثر بمهمة تحقيق « الوطن القومي لليهود » .

وقد تباطأت الحكومة البريطانية في تبليغ العرب بوعد بلفور . ولعلها لم تدر كيف تفعل ذلك أو لم تجد موجباً لذلك . لكن حاكم فلسطين العام السر بولز ارتأى ان يذيعه عليهم بعد مدة سنة ونصف . وان يخبرهم بعزم الحكومة البريطانية على قبول الانتداب على فلسطين الذي يندمج فيه وعد بلفور نفسه .

---

(١) جفريز المشار اليه من قبل ، الص ٣٦١ .

فكان رد الفعل عنيفاً بطبيعة الحال . لأن فلسطين هبت بأسرها تستنكر ذلك وتحتج عليه . وتألفت في القدس وغيرها من البلاد « الجمعيات الاسلامية المسيحية » للعمل على مقاومته . وسارت بعد ذلك المظاهرات . وعقدت المؤتمرات في كل مكان .

لكن أهم ما حدث وقوع اضطرابات في القدس بمناسبة حلول موسم النبي موسى والاحتفال به (٤ ــ ٨ نيسان ١٩٢٠) . فقد انقلب الموسم الى مظاهرة عنيفة أدت الى مهاجمة اليهود والاصطدام بهم . وبالشرطة . ووقوع عدد من القتلى والجرحى بين الطرفين . ويشير ستورز الى ذلك اشارة عابرة في مذكراته (الص ٣٣٠) يذكر فيها تصاعد الشعور المناوىء للصهيونية بين العرب في القدس . ويعزو ذلك الى ان الدم يدور ساخناً في فلسطين خلال الربيع ولا ينسى هنا ان يضع اللوم على « المحرضين » وفي مقدمتهم « .. شخص يدعى الحاج أمين الحسيني الأخ الأصغر للمفتي كامل افندي . » ثم يضيف في حاشية الصفحة (٣٤١) قوله ان الحاج أمين خلف أخاه في الافتاء . وكان في ١٩٤٢ مذيع محطات المحور العربية ضد الحلفاء ! !



مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني

ويذكر ستورز بعد ذلك ان الحاج أمين حرض المحتفلين بالموسم على العنف واختفى عن الانظار . وحينما تعقبته الشرطة البريطانية وأخذت تفتش عنه . كبست دار أخيه المفتي وفتشته من دون ان تستشير (تستشير ستورز) . فاغتاظ المفتي واهتاج وراجع « ادارة أراضي العدو المحتلة » محتجاً اليها بأنه قد أهين ومُسّ شرفه بذلك . ثم أرجع اليها وسام السي أيم جي C M G

الذي كان قد منح له قبل قليل . على ان هذه الاهانة الكبيرة للانكليز قد تم التجاوز عنها . وبدلاً من ان يشطب اسمه من قائمة أصحاب الوسام أعيد اليه مع الاعتذار عما وقع .

وحينما تألفت لجنة عسكرية للتحقيق في الأسباب المؤدية الى وقوع الحادث كتبت تقريراً تعزو فيه وقوع الاضطرابات الى « يأس العرب من تحقيق الوعود التي قطعت لهم في أثناء الحرب بالاعتراف باستقلالهم . واعتقادهم ان تصريح بلفور يتضمن عدواناً على حقوقهم في تقرير مصيرهم . وخشيتهم ان يؤدي انشاء الوطن القومي اليهودي الى تضخم الهجرة اليهودية تضخماً يسفر عن استعبادهم اقتصادياً وسياسياً من قبل اليهود . وما أدت اليه تصرفات اللجنة الصهيونية في فلسطين من استفزاز . وما سببه تتويج الملك فيصل في دمشق على سورية المتحدة بما فيها فلسطين من حماسة » .

لكن هذا التقرير لم يكن له أي تأثير في النهاية . فقد ألغيت الادارة العسكرية في فلسطين . وتقرر إقامة ادارة مدنية فيها . وقد عيّن في اليوم الأول من تموز ١٩٢٠ السر هربرت صموئيل أول مندوب سام لفلسطين . وهو يهودي من أقطاب الصهيونية المعروفين في بريطانية . ولا شك انه جيء به لتنفيذ صك الانتداب قبل صدوره . والعمل على تحقيق « الوطن القومي » لليهود بالسرعة الممكنة . وقد صرح الدكتور وايزمن . على ما يذكر جفريز (الص ٣١٧) في هذا الشأن بقوله : « لقد كنت انا المسؤول في الدرجة الأولى عن تعيين السر هربرت صموئيل في فلسطين . فالسر هربرت صديقنا . وبطلب منا قبل ان يتولى هذا المنصب الصعب . فوضعناه في منصبه . انه صموئيلنا » . ومما يذكره جفريز كذلك في عدة مناسبات ان هربرت صموئيل كان من جملة الذين عملوا على إقناع الحكومة البريطانية باصدار وعد بلفور منذ البداية . وتبني ما جاء فيه .

وما ان وصل السر هابرت الى القدس حتى شرع في وضع البلاد في حالات سياسية واقتصادية وادارية تؤدي الى قيام الوطن القومي اليهودي . فعين أحد غلاة الصهيونية — بنتويش — نائباً عاماً

يقوم باعداد القوانين والانظمة . وكذلك عين مدير التجارة العام ومدير المهاجرة والسفر من اليهود . وأقيم على رأس كل دائرة موظف انكليزي أو يهودي . وكذلك حكام المقاطعات . واعتُبرت اللغة العبرية لغةً رسمية الى جانب العربية والانكليزية . وترك لليهود ان يستقلوا بادارة معارفهم ومدارسهم فتشرف عليها وتديرها اللجنة التنفيذية الصهيونية . على حين جُعلت المعارف العربية بيد انكليزي ومساعدين انكليز ادارةً . وإشرافاً . وتفتيشاً . وتوجيهاً . وكتبت على الطوابع والنقود « أرض اسرائيل » بالعبرية ترجمةً لكلمة « فلسطين » بالعربية . وفي عهد صموئيل هذا بدت عمليات انتقال الأراضي من أيدي العرب الى أيدي اليهود . وأقطعوا أكثر أراضي الدولة لهم .. حتى بلغ ما أعطته الحكومة لليهود من أملاك الدولة (١٧٥) ألف دونم .. وأقفلت المصرف الزراعي . وحجزت أراضي الفلاحين ومواشيهم تسديداً للقروض . ودفعت الضرائب فأخذ البعض يعرضون أراضيهم للبيع لدفع تلك الضرائب او للتخلص من الديون لسد الرمق[١] .

والأهم من ذلك كله ان أبواب الهجرة قد فتحت على مصراعيها لليهود . فمنحت شهادات الدخول الى البلاد بالآلاف . ويذكر المستر جفريز (الص ٣٧٣) في هذا الشأن ان السر هربرت صموئيل قد اعترف بصراحة ان هدف الحكومة هو الاستمرار على إدخال اليهود إلى فلسطين حتى يتجمع منهم في النهاية عدد يكفي لانشاء دولة يهودية فيها . وهو ما تم بالفعل كما لا يخفى . كما يشير السر رونالد ستورز (الص ٣٥٨) الى ان الرئيس اليهودي الدكتور وايزمن حينما سُئل في مؤتمر الصلح في باريس عما يريد بعبارة « الوطن القومي اليهودي » أجاب انه يقصد بذلك ان تتهيأ في فلسطين في النهاية ظروف تصبح فيها بلاداً يهودية كما أصبحت أمريكا أمريكية وانكلترة انكليزية[٢] .

---

(١) أكرم زعيتر ، القضية الفلسطينية الص ٦٤ .

(٢) ويورد المحامي الكبير والقانوني الضليع هنري كتن في كتابه : (فلسطين في ضوء الحق والعدل) =

رئآسة البلدية

يذكر ستورز في مذكراته (الص ٣٣٣) ان الاضطرابات التي وقعت في ربيع ١٩٢٠ في القدس بمناسبة موسم النبي موسى أثارت قضية رئآسة البلدية فيها . فان موسى كاظم باشا الحسيني الذي كان رئيساً للبلدية يومذاك كان عليه ان يمثل الطوائف الثلاث من دون تحيز . لكنه كان عليه بصفته رئيساً لأسرة من الأسر الكبيرة في البلاد ان يترأس المعارضة للانتداب ويتكلم باسمها . وقد لقيته في يوم من الأيام (بعد الظهر) يقود حشداً من الناس في التظاهر ضد الدوائر الصهيونية . فرجوت منه ان يعود الى بيته معهم لئلا تنشأ

الذي ترجمه الكاتب الكبير وديع فلسطين عن الانكليزية مقارنة بسيطة للتدفق الصهيوني والهجرة اليهودية منذ صدور وعد بلفور حتى سنة ١٩٤٦ ومنه يتضح كيف تم غزو الاسرائيليين لفلسطين في بقية السنوات الأخرى .

يقول هنري كتن :

« وكان من عاقبة ذلك أن خلقت بوسائل مصطنعة وعلى غير رغبة السكان الاصليين نواة يهودية سياسية وسكانية في فلسطين لم يكن لها وجود في عشرين قرناً خلت ، وفي غضون ربع قرن زاد السكان اليهود في فلسطين اكثر من عشرة اضعاف كما يوضحه الجدول المثبت في الصفحة التالية :

السنة	مسلمون	مسيحيون	يهود	غيرهم	الجملة
١٩١٨	٥٧٤,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٥٦,٠٠٠	—	٧٠٠,٠٠٠
١٩٢٢ (احصاء)	٥٩٠,٩٠٠	٧٣,٠١٤	٨٣,٧٩٤	٩,٤٧٤	٧٥٧,١٨٢
١٩٣١ (احصاء)	٧٥٩,٧١٢	٩١,٣٩٨	١٧٤,٦١٠	١٠,١٠١	١,٠٣٥,٨٢١

اما في سنة ١٩٤٦ فقد بلغ عدد اليهود ٦٠٨,٢٣٠ وهو ما يؤلف نحو ثلث السكان إذا ما ادخلنا البدو البالغ عدد نفوسهم ١٢٧,٠٠٠ في ضمن هذا الاحصاء .

وهكذا امكن بالهجرة المفروضة على البلاد ضد مشيئة اغلبية السكان الاصليين ورغباتهم زيادة عدد اليهود في فلسطين من $\frac{١}{١٢}$ ، من السكان الى ثلث مجموع السكان ، ويقول هنري كتن : وليس ثمة شك في ان مثل هذا التغيير الجوهري في كيان سكان فلسطين بكل ما له من ملابسات سياسية قد أدى بداهة الى اخلال خطير بحقوق واوضاع الفئات الاخرى من السكان » على خلاف ما نصت عليها احكام الانتداب وماتوخاه من اهداف .

الخليلي

اضطرابات بهذا السبب . ثم أنذرته في مساء اليوم نفسه بأن يختار بين السياسة ورئآسة البلدية . وفي أثناء الاضطرابات أصبح شموساً في بداية الأمر . واتخذ موقف التحدي بعد ذلك . فأخبرت الادارة العسكرية باقتراحي في إقالته وتعيين شخص آخر في محله — فقوبلت باقتراح يفيد بتعيين رئيس بلديـــة انكليزي في مكانه . وبذلك يقل عدد المناصب التي يطمح في إشغالها أحد الفلسطينيين . وقد كان من السهل علي أن أفنّد هذا الطلب بدلاً من أن أفتش في مثل هذا الجو المتوتر على بديل للرئيس الحالي .

لكنني طلبت راغب بك النشاشيبي . وهو رجل قدير من أعضاء مجلس المبعوثان العثماني السابق . وعرضت عليه رئآسة البلدية ثم رجوته بأن يؤيد قبول هذا المنصب خطياً في الحال . وقد سُررت إذ فعلت هذا . لأني بعد عشرين دقيقة ألمحت الى موسى كاظم باشا (وانا آسف لأنه كان قد قدم خدمات لبلده وبرهن في بعض المناسبات على انه « جنتلمن » عربي مؤدب) بأن الوقت قد أصبح يتطلب التبديل . فأجابني الباشا « ان سعادتك حر فيما تعمل . لكنني أُشير عليك بان تنتظر لأنني متأكد بعدم وجود أحد من العرب يجرأ على أخذ مكاني » . فعرضت عليه في الحال موافقة راغب بك ليطلع عليها . وحينما قرأها نهض من مكانه . فشكرني على تأييدي السابق له . وأكد لي استمرار الصداقة بيننا ثم صافحني وخرج من مكتبي يمشي الهوينا بانتصاب .

وكان المجلس البلدي يومذاك يتألف من ستة أعضاء : اثنين من المسلمين أحدهما رئيس البلدية . واثنين من المسيحيين أحدهما أورثودكسي والثاني من اللاتين . واثنين من اليهود . لكني استحدثت بالاضافة الى هذا منصبي نائب لرئيس البلدية يشغل أحدهما رجل مسيحي والآخر يهودي . حتى يشغلا بالتناوب منصب الرئآسة عند تغيب الرئيس .

ويتطرق ستورز في مناسبة أخرى (الص ٤٠١) الى وصف مجتمع القدس والمسلمين فيه . والى هذين الشخصين منهم بالذات (الحسيني والنشاشيبي) .

فيقول : وقليل من الزوار من يدرك ان فلسطين بوجه عام والقدس على الأخص يجب ان تدرس وتفهم عن طريق الوقوف على أحوال طوائفها الثلاث — طائفة المسلمين ، والمسيحيين ، واليهود ، وأشخاص أفرادها أيضاً .. ولا شك ان أكبر الطوائف وأشدها أهميةً في فلسطين هي طائفة المسلمين . فهي بخلاف الطائفتين الأخريين لم تكن منقسمة الى مذاهب وشيع ، وانما كانت تنقسم فقط الى حزبين كبيرين هما : حزب الحسينيين وحزب النشاشيبيين . اما أسرة الخالدي التي تتحدر من صلب قائد محمد خالد بن الوليد رأساً ، وتعد أقدم من كلا الأسرتين الأخريين ، فهي على قدرٍ أقل من النفوذ مع أنها لا تزال قادرةً على ان تؤثر في سير الانتخابات البلدية . وكلما ابتعد المرء عن القدس يقل اعتراف الأسر الكبيرة الأخرى ، مثل أسرة آل عبد الهادي في نابلس أو أسرة بيضون في عكا ، بنفوذ هاتين الأسرتين . لكن الحقيقة أن جميعهم كانوا يقفون في صف واحد ويشتغلون مع هذه أو تلك . أما تجاه الصهيونية فيمكن ان يقال بان آل الحسيني يمثلون الناحية الدينية والقومية العربية المتطرفة ، بينما يمثل آل النشاشيبي الجانب الحكومي . والأسرة الحسينية من بين الأسرتين هي المدينة الى السلطات البريطانية أكثر من الأخرى ، لأن هذه السلطات قد أبقت كامل الحسيني في منصبه (الافتاء) ، ورشحت موسى كاظم لرآسة بلدية القدس ، ثم أنعمت على كلٍ منهما بوسام ، وكانت مسؤولة رأساً عن تعيين الحاج أمين خلفاً لأخيه . وقد كنت في أيام « ادارة الأراضي المحتلة » على اتصال ودي وثيق بكامل أفندي ، الذي كان رجلاً معقولاً ، يحب المساعدة ، حتى أفسدته السياسة .

اما رئيس البلدية موسى كاظم باشا فقد كان يتصف بجميع وقار الحاكم العثماني التقليدي ، وبعض صفاته الحسنة . ولقد أُعيد التوازن بين الأسرتين لدرجةٍ ما خلال اثنتي عشرة سنة حينما تسنم رئآسة البلدية راغب بك النشاشيبي أقدر رجلٍ عربي في فلسطين على الاطلاق . فقد كان يتصف بالحنكة والدهاء وبسرعة الادراك والعمل ، وبعدم الاعتقاد بالقضاء والقدر كما هو الحال مع

أبناء ديانته .. ثم يستمر ستورز في الثناء على النشاشيبي ويقول انه أُعيد انتخابه (بعد رحيل ستورز عن القدس) ١٩٢٦ مرة واحدة ، لكنه لم يستطع البقاء في المنصب بعد ذلك ، لأن خصمه الحاج أمين الحسيني مفتي القدس و « رئيس المجلس الاسلامي الأعلى » الذي شكله السر هربرت صموئيل كان يشتغل ضده ، ويؤثر على الفلاحين والمتأثرين بالسياسة تأثيراً مباشراً بعمامته المهيبة التي يكون لها وقع مؤثر حينما تقرن بقبة الصخرة الفخمة ، مع أنه أقل من النشاشيبي في شخصيته وقدرته ، وفي رغبته في التعاون مع الحكومة .

حائط المبكى

ان حائط المبكى هو الجدار الغربي للحرم الشريف ، وفي ما وراء هذا الحائط من جهة ساحة الحرم غرفة يعتقد المسلمون انها المكان الذي ربط فيه البراق (فرس النبي) ليلة الاسراء فاصبح الحائط يعرف لديهم بالبراق . ويزعم اليهود ان هذا الحائط يشكل جزءاً من الحائط الخارجي الغربي لهيكل اليهود القديم ، ولذلك اعتادوا زيارته لاقامة الصلاة فيه والبكاء على مجدهم الغابر الذي ضيعوه بأيديهم .

وقد اتخذت الصهيونية هذا الحائط وسيلةً لتنفيذ أغراضها الاستعمارية والسياسية ، وصارت تستند على قدسيته المزعومة في المطالبة بفلسطين . وكان أول احتكاك وقع في هذا الشأن ، على ما يذكر ستورز (الص ٣٣٢) ، حينما باشرت دائرة الاوقاف في القدس باجراء ترميمات في السقف الذي ينتهي به الحائط ، وفي أسفل السطح بعدة أمتار . فاستنكر اليهود ذلك حينما سقط شيء من مواد البناء على اليهود الذين كانوا يؤدون صلاتهم في أسفل الحائط على ما يدعون . وقد بدأ الاحتكاك حينما وجهت اللجنة الصهيونية الى ستورز كتاباً شديد اللهجة تعترض فيه على هذه الترميمات .

وحينما كلف ستورز خبيراً معمارياً من الانكليز وكشف على الترميم الذي كان يجري ، بحضور بعض اليهود المسؤولين ، وجد ان ذلك الترميم كان

لا بد من ان يتم للمحافظة على البناء . غير انه تم الاتفاق على ان يجري ذلك في غير أوقات الصلاة . وان لا ينزل الترميم الى ما تحت ثلاثة أمتار من السقف .

ومما يتطرق اليه ستورز في هذا الشأن أيضاً (الص ٣٤٦) قوله ان الدكتور وايزمن حاول تحقيق مشروع لو نجح فيه لهلل له الصهاينة في أرجاء العالم كله . فان حائط المبكى من الناحية الجغرافية هو الجدار الغربي للحرم الشريف . اما من الناحية البنائية والمعمارية فانه الجدار الغربي لمنطقة الهيكل . ويتألف من تسع سافات مبنية بأحجار جسيمة غير مكسوة كانت قد وضعت في مكانها في عهد هيرود . وربما كان بعضها قد وضع في عهد زيرو بابل وسليمان النبي . ومن أربع سافات فوقها من البناء الروماني البيزنطي . الذي يكمله أحد عشر من البناء الاسلامي العربي والتركي . والجدار من الناحية القانونية والشرعية هو جزء من سطح الحرم . وبهذه الصبغة هو ملك صرف للطائفة الاسلامية . اما تاريخياً فهو أقدس حائط في العالم . واما روحياً فهو روح اسرائيل وقلبها النابض . وتمتد بجانب الحائط من الغرب شطيطة مبلطة بعمق ست ياردات تكوّن هي . وبعض الأكواخ الحجرية والممرات التي ينخفض مستواها انخفاضاً قليلاً . قسم القدس من وقف أبي مدين الذي كان قد أوقف منذ أيام نور الدين ــ من رجال صلاح الدين ــ على الزوار المغاربة في الأصل الذين أصبحوا مقيمين في القدس في يومنا هذا . ويحتفظ بالمستندات التي تثبت الملكية غير المنازع فيها شيخ المغاربة متولي وقف « قبر أبي مدين » القريب من الموقع . والمستندات مسجلة في سجلات محكمة المسلمين الشرعية في القدس .

لكن حائط المبكى هو المكان المقدس الوحيد الذي بقي لليهود من مجدهم الغابر . وتمتد عادة الصلاة بقربه الى القرون الوسطى على الأقل . ولهذا الحائط القديم تتجه قلوب اليهود في العالم أجمع . ولا سيما في مساء كل سبت . وفي أيام عيد الفصح اليهودي . ورأس السنة اليهودية . وفي يوم الكفارة (الكيبور) وفي التاسع من شهر آب ــ أي يوم خراب الهيكلين الأول والثالث اليهوديين ..

ويورد ستورز في الحاشية ما كتبه هرزل مؤسس الصهيونية في مذكراته ليوم ٣١ تشرين الأول ١٨٩٨ حينما كان في القدس فلم يتحسس كثيراً بحائط المبكى . فهو يقول : ذهبنا الى حائط المبكى ، ومن الصعب على المرء ان يشعر بعاطفة عميقة هناك . لأن المكان يمتلىء بالتسول القبيح التاعس المحفوف بالمخاطر . أو هكذا كان مساء يوم أمس وفي صباح هذا اليوم ، حينما كنا هناك ..

حائط المبكى



ويتابع ستورز قوله : فهذه هي التقاليد والاستمرارية التي يمكن أن يقال إن اليهود قد كونوا بواسطتها حقاً مطاقاً معترفاً به في حرية الوصول الى الحائط للتعبد في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل خلال السنة كلها . ومع ان المسلمين يجزمون أحياناً بالقول بأنهم من الناحية القانونية يمكنهم أن يقيموا جداراً يحول دون وصول الناس الى هذا الحائط . فليس هناك حكومة منتدبة يمكنها ان تسمح بمثل هذا التجاوز الواضح على « الوضع الراهن » . ونجد من الناحية الأخرى ان حق اليهود في هذا الشأن لا يزيد على كونه حق طريق ووقوف من دون ان يتضمن حقاً صريحاً أو ضمنياً في تملك الحائط ولا التبليط المحاذي له . وقد اقترح الدكتور وايزمن وجوب استملاك هذا المكان الغالي لعبادة اليهود . لا عن طريق الشراء لأن الوقف الاسلامي لا يباع وانما عن الطريق القانوني الذي كثيراً ما يتبع في استبدال أرض بأخرى . وقد عرض على الحكومة مبلغ (٧٥) ألف باون استرليني لتلافي مصاريف إعادة إسكان شاغلي المكان الحاليين . كما كان مستعداً لدفع مبالغ أخرى . وتلقيت تعليمات خاصة بدراسة الاقتراح وتقديم تقرير عنه . ويقول ستورز : هذا وانني شخصياً لا أعتقد بوجود قدسية في وقف أبي مدين ولا بغيره من الأوقاف . وقد كنت على استعداد للاشراف بحرص على أي مبنى يمكن ان يبنى هناك في المستقبل . حيث كان من غير المنتظر ان يعمد اليهود الى الحط من قدر الأرض التي يقع فيها أقدس مكان عندهم أو العبث بها . كما كان من الممكن ان يخصص المبلغ المرقوم لتعليم المسلمين . ولذلك أيدت الاقتراح لدى كلايتون وموني . اللذين أيداه بدورهما أيضاً . على ان حداد بك كان يرى ان الأمل في قبول الاقتراح كان ضعيفاً على كل حال لا سيما اذا كان الصهاينة هم الذين سيتقدمون به بأنفسهم . ولذلك وافقت على ان أتولى بنفسي أمر فتح باب المفاوضات بشأنه . فتسلمت بعد ذلك عريضة احتجاج قدمتها جماعة من رجال العرب البارزين . ووجدت في نهاية ايلول ١٩١٨ ان الوضع ازدادت حراجته بحيث اضطررت باستشارة سريعة من حداد بك الى أن أوصي باهمال المشروع

برمته . ولا شك انه كان محقاً في رأيه . فحتى اذا كان المفتي نفسه راغباً في الموافقة عليه كان عليه ان يواجه حساسية جمهوره المتدفقة (الى جانب ازدياد تخوفهم من الصهيونية) تجاه أبسط حركة تدخل تبدو حتى بالنسبة للأرض التابعة لخارجية جدران الحرم الشريف .. وفي حاشية الصفحة نفسها (٣٤٧) يذكر ستورز أن التنقيبات التي كان باركو قد أجراها في المنطقة خلال سنة ١٩١٠ — ١٩١١ قد أدّت الى تفجر الاستياء العام في أنحاء تركية كلها .

وإتماماً للبحث والفائدة نورد هنا ما تطور اليه أمر حائط المبكى بعد ذلك حتى انفجر انفجاراً مدوياً في سنة ١٩٢٩ ، فأدى الى أن تقوم الحكومة البريطانية في لندن بتأليف لجنة برلمانية برآسة قاضٍ من القضاة للتحقيق في الأمر ، وكانت تسمى « لجنة شو » . فقد تمادى الصهاينة في صلفهم وتحديهم للمسلمين في القدس بالنسبة لهذه البقعة فجلبوا في مساء يوم ٢٣ أيلول ١٩٢٨ أدوات جديدة الى المبكى ، وأقاموا ستاراً يفصل بين الرجال والنساء ، فأثار هذا التصرف المسلمين وجعلهم يعتقدون ان الغاية الأخيرة هي استملاك المسجد الأقصى تدريجياً بزعم أنه الهيكل ابتداءً من الجدار . وقد ألفوا جمعية «حراسة المسجد الاقصى» وعقدوا عدة اجتماعات عامة في المسجد آلوا فيها على أنفسهم الدفاع عن البراق والمسجد الأقصى ، وصدرت الأوامر الرسمية الى اليهود بنزع الستار فلم يفعلوا لكن الشرطة تولت رفعه بنفسها فهاج هائجهم (يوم عيد الصيام) ثم هتفوا « الحائط حائطنا » .

لكن المسلمين خرجوا في اليوم التالي (١٦ آب) ، الذي كان يوم المولد النبوي ، بعد صلاة الجمعة من الحرم في تظاهرة صاخبة نحو البراق . وهناك قلبوا منضده تعود للشماس اليهودي ، وأحرقوا الاسترحامات التي اعتاد اليهود وضعها في ثقوب الحائط ، فزاد هذا في اشتداد التوتر . وحدث أن طعن عربيٌ في ١٧ آب يهودياً دخل حديقته طعنةً أودت بحياته فكانت فاتحة اشتباكات واضطرابات . حتى كان يوم الجمعة التالي في ٢٣ من آب حين غادرت الجموع الهائجة ساحة الحرم وقامت بهجوم على اليهود امتد الى ضواحي المدينة

وعم الهياج والتظاهرات فلسطين كلها . فوقع هجوم على اليهود بالخليل في اليوم التالي أسفر عن مقتل أكثر من ستين يهودياً عدا الجرحى الكثيرين . وهجم المتظاهرون على ثكنة الشرطة في نابلس فسقط الجرحى . ثم امتدت الاضطرابات الى بيسان، وحيفا، ويافا، حيث اقتحم اليهود وعلى رأسهم شرطي يهودي رسمي بيت إمام مسجد فقتلوه هو وجميع أفراد عائلته . وبقروا بطنه وحطموا رؤوس زوجته وطفلته وابن أخيه . كما هاجم اليهود مقام عكاشة في القدس فأتلفوا ودنسوا قبور الصحابة الكائنة فيه . وقد بلغت الاضطرابات ذروتها في يوم ٢٩ آب حين وقع الهجوم في صفد على اليهود . وهناك وقع نحو خمسين يهودياً بين قتيل وجريح .

وقدرت السلطات الرسمية عدد الاصابات في نهاية الاضطراب بنحو ١٣٥ قتيلاً و ٣٤٠ جريحاً من اليهود ، و ١١٦ قتيلاً و ٢٤٠ جريحاً من العرب الذين كانت معظم اصاباتهم بأيدي الشرطة والقوات العسكرية . وقرر العرب مقاطعة اليهود ، لكن السلطات نكلت بكل من كان يحرض على المقاطعة او يشرف على تنفيذها[١] ..

ومما ذكرته اللجنة في تقريرها عن الحادث « أن السبب الأساسي الذي لولاه لما وقعت الاضطرابات ، هو شعور العرب بالعداء والبغضاء نحو اليهود شعوراً نشأ عن خيبة أمانيهم الوطنية والسياسية وخوفهم على مستقبلهم الاقتصادي فان الشعور السائد اليوم بين العرب يستند الى خوفهم المزدوج من أنهم سيحرمون وسائل معيشتهم ويسيطر عليهم اليهود سياسياً يوماً ما ، بسبب الهجرة اليهودية وشراء الأراضي . وأصبح العرب لا يرون في المهاجر اليهودي خطراً على معيشتهم فقط ، بل يرون فيه ذلك الذي قد يسيطر على البلاد في المستقبل أيضاً . وقد أوصت اللجنة بتعيين هيئة دولية من عصبة الأمم للفصل بالحقوق المتعلقة بحائط المبكى ، فتألفت الهيئة المذكورة وحضرت الى فلسطين فاعترفت في

---

(١) أكرم زعيتر ، الص ٧٨ .

تقريرها بملكية المسلمين للحائط باعتباره جزءاً من الحرم الشريف . وبملكية الرصيف أمامه .

هذا وقد أصدرت المحاكم البريطانية في فلسطين حكمها على عشرين عربياً الاعدام . ولم ينفذ هذا الحكم الا بثلاثة فقط . وهم : فؤاد حجازي . وعطا .ير . ومحمد جمجوم . كما حُكم على ثمانمائة عربي بالسجن لمدد مختلفة . اما اليهود فلم يحكم الا على واحد منهم بالاعدام وهو الشرطي حانكير قاتل الأسرة العربية في يافا . لكن هذا الحكم استبدل بالسجن عشر سنوات قضى بعضها فيه ثم أُطلق سراحه . يضاف الى ذلك ان الحكومة المتهودة فرضت على بعض المدن العربية غرامات باهظة لم تستطع استحصالها الا بأساليبها التعسفية المعروفة .

وقبل ان ننهي البحث عن « حائط المبكى » نستشهد هنا برأي الكاتب الأمريكي لورانس غريز وولد . صاحب كتاب (ادفع دولاراً تقتل عربياً) (١) حيث يقول عن حق اليهود في حائط المبكى : ويزعم الصهاينة ان ما يدعى « حائط المبكى » هو بقية من هيكل سليمان . وهو زعم باطل لأن الحائط غرانيتي وهيكل سليمان انما بناه الفينيقيون له من خشب الأرز . ويكاد يكون من الثابت اليوم عند العلماء ان ذلك الجدار هو جزء من الهيكل الذي بناه في حوالي سنة ٢٠ ق.م هيرودس الكبير الأيدومي الذي اعتنق اليهودية لأغراض سياسية . وهكذا فان المسجد الأقصى . وقبة الصخرة . وقبة السلسلة . هي وحدها بين آثار فلسطين التي ترقى الى ما قبل الاحتلال الصليبي للبلاد(٢)

---

(١) Griswold, Lawrence — This Sword For Allah,, New York 1953 (الص ١٨ من الترجمة العربية) .

(٢) يستند الكاتب في رأيه هذا على ما جاء في كتاب العلامة الآثاري أولبرايت :
Albright, W.F. — Archeology of Palestine, 1949.

بلفور في القدس

ومن أساليب الصهيونية الماكرة في الدعاية والتضليل ، وتوريط الأشخاص الذين تسخرهم لأغراضها الجهنمية ، استغلال فرصة افتتاح الجامعة العبرية في القدس خلال شهر مارت ١٩٢٥ في جبل سكوبس . وكانت هذه الجامعة قد أقيمت فوق أراضٍ تعود لأصحابها العرب فانتزعت منهم بموجب « قانون نزع الملكية » وأُعطيت الى اليهود . فقد شاء الصهاينة أن تكون هذه الحفلة برعاية اللورد بلفور ، صاحب الوعد المشؤوم ، إمعاناً في التشفي بالعرب واعترافاً بفضله على « الوطن القومي » اليهودي .

وقد كتب المستر جفريز في هذا الشأن (٥٩٦) يقول : ان اللورد بلفور توجه الى القدس في مارت ١٩٢٥ ليفتتح الجامعة العبرية . ولو تمّ افتتاح هذه الجامعة في ظروف أخرى لحضر الحفلة أناس من مختلف طبقات السكان في فلسطين . ولم تقصّر الجامعة العبرية حتى في وضعها الحالي في القيام برسالتها الجامعية الحقة ، فقد ارتفع أكثر من صوت يهودي فيها ضد المبادىء غير الأخلاقية ، وأساليب التعجرف والغطرسة التي تتبعها الصهيونية السياسية في فلسطين .

لكن افتتاحها الذي تم في ١٩٢٥ لم يكن سوى عرض للمناورات السياسية المفضوحة ، التي يدل عليها مجيء اللورد بلفور . فان حضوره في حفلة الافتتاح يعتبر إهانة متقصدة للعرب ، لأنه لم يطلب اليه ان يرعاها نظراً لما يتصف به من مواهب وقابليات شخصية خاصة وانما طُلب اليه ذلك لاكمال التمثيلية التي عُهد اليه بالدور الرئيسي فيها فوق مسرح هذه البلاد المظلومة . وقد كانت الحفلة غير موفقة من نواحٍ كثيرة على ما يفهم من الوصف الذي يورده جفريز ، وقوبل بلفور في خارجها بكثير من الصدود والبرود . فقد تلقاه العرب باعلان الاضراب العام في القدس ، وبادروا الى اغلاق دكاكينهم ومخازنهم وملء الشوارع والأزقة بالأعلام السود . وكان من المقرّر ان يلقي

اللورد بلفور في عشية يوم الافتتاح ، الذي كان يوم أحد . خطبة وعظ خلال القداس الذي يقام في كنيسة سنت جورج لتبديد الاعتقاد الخاطىء الذي تسرب الى نفوس العرب المسيحيين بانه رجل يهودي في الحقيقة والواقع .. غير ان هذا لم يحصل البتة ، لأن جوقة المرتلين في تلك الكنيسة هدد أفرادها بالامتناع عن الاشتراك في القداس اذا ما سمح له بالاشتراك فيه . فاضطر المطران الى إلغاء الترتيب المذكور تجنباً للفوضى والاضطراب .

على ان التأنيب الرئيسي للضيف الثقيل كان سد أبواب قبة الصخرة وجامع عمر في وجهه . فقد رفض مفتي القدس والسلطات الدينية الأخرى السماح له في الدخول الذي يسمح به في العادة لجميع الزوار من دون تفريق . فغضب لذلك السر رونالد ستورز حاكم القدس غضباً ما بعده من مزيد وقال لهم بأنهم يتحدون بهذا العمل شخصية مرموقة . وليس هناك شيء مسجل يدل على ما أجاب به العرب في هذا الشأن ، لكن المعروف عن شعور العرب في فلسطين بان اللورد بلفور يمكن ان يكون كل شيء الا كونه شخصية مرموقة عندهم ، بصرف النظر عما كانت عليه منزلته في أوربة . غير انه عُوّض عن هذه الاهانة باستقباله استقبالاً حافلاً في تل أبيب ، حيث شهد تمثيل رواية شمشون ودليلة . اما لماذا ابدى اللورد بلفور رغبةً في ان يزور المسجد العربي ، وهو المعروف بكونه لم يعترف بوجود عرب في فلسطين ، فان ذلك يعتبر لغزاً من الألغاز . وقد استمر على موقفه هذا منهم حتى في فلسطين . فبعد ان انتهى من تناول الغداء في دعوة من الدعوات التي حضر فيها عدد من الشخصيات البريطانية كضيوف معه تمشى الى الشباك وأخذ يشاهد المارة في الشارع ، ثم سأل « من هم اولئك الذين يلبسون القفاطين ؟ » . لقد كان الذين يلبسون القفاطين- هم العرب بطبيعة الحال كما كان بلفور يعرف جيداً ، لكنه أخذ يظهر اهتمامه بالأزياء حينما قيل له من هم أولئك الناس ! !

لكنه حينما غادر المنطقة البريطانية وتوجه لزيارة دمشق ، كاد ان يصاب

بكارثة فيها . فان الفرنسيين لم يتخذوا تدابير أمن مشددة لحراسته . كما اتخذت له في فلسطين حيث كان يحرس كما يحرس السجين الحكومي . ولذلك تجمعت الغوغاء من العرب حول الفندق الذي نزل فيه . وامتلأت المدينة بالهياج والاضطراب وأغلقت المخازن والأسواق . وصار الناس يهتفون « فلسطين عربية » وجموعهم تتوجه نحو الفندق الذي أغلقت أبوابه في وجههم . وحينما تجرأ اللورد بلفور وخرج الى الشرفة مع بعض مرافقيه . أخذ يسأل عن سبب هذا الهياج المجهول عنده ويلاحظ بتعجب واستغراب صفوف الشرطة الخيالة وهي تصد المتظاهرين حول فندقه . وبانت بعد ذلك السيارات المصفحة . لكن الجموع المتظاهرين أخذت تقاوم . وتشتبك بالأيدي مع رجال الشرطة والجيش الذين التجأوا لاستعمال قواعد البنادق وأغلفة السيوف والسياط . وزاد الطين بلة ظهور الطيارات في الجو وانقضاضها لالقاء قنابل الدخان على الناس .

وقد وقف الجنرال سراي . المندوب السامي الفرنسي . نفسه لحماية اللورد في باب الفندق الرئيسي . حتى أمكن تهريبه من باب جانبية وانقاذه من الجموع الهائجة . ثم أخذ على عجل الى بيروت . ومنها الى ظهر الباخرة « سفنكس » مباشرةً .ولا بد من ان اللورد بلفور قد عنّ له ان يتساءل قائلاً « هل هذا كله بسبب تصريحي عن الوطن القومي لليهود ؟ » . وبقي محجوزاً على ظهر الباخرة الراسية في الميناء ثلاثة أيام . حتى أقلعت قافلته الى انكلترة .

اما السر رونالد ستورز فلا يذكر كل هذا في مذكراته . وانما يكتفي بوصفٍ موجز (الص ٤٣٦) يقول فيه ان استعدادات فخمة اتخذت في ربيع ١٩٢٥ لافتتاح الجامعة العبرية في القدس من قبل اللورد بلفور . وان هذه كانت مناسبة يرغب فيها اليهود ويستهجنها العرب وتخشاها الشرطة . ثم يقول : وليس من الممكن أن يصدق . على ما يظهر . بأن شخصية مرموقة لطيفة مثل هذه الشخصية يمكن ان يكون عدواً ممقوتاً مثل هذا المقت عند العرب ولذلك كان الخوف من ان تساء معاملته لهذا السبب يساورني في الليـــل والنهار . ولم يكن هو ولا من كان في حاشيته يعلم عظم المجازفة التي تكتنف حضوره الى القدس ولا الجهد الذي نبذله في سبيل المحافظة عليه . وقد كانت فرصة طيبة له في الحقيقة ان يطلع على مقدار الكره الذي كان يكنه

له العرب لو تسى له قراءة عشرات البرقيات المهنية له التي كانت تنتظره في سراي الحكومة لو لم يعمد سكرتيره (ولعله كان يهودياً) الى إخفائها عنه وإتلافها كلها في النهاية .. ثم يشير ستورز الى الحفاوة التي لقيهــا بلفور في تل أبيب، ويذكر انه لم يجد من المناسب أخذه لزيارة قبة الصخرة خوفاً من ان يمنعه العزب عن ذلك ، من دون الاشارة بشيء الى ما جاء في رواية جفريز السابقة في هذا الشأن (١) .

الكفاح العربي

وعلى هذا المنوال بدأ الحكم الانكايزي في فلسطين ، وقد أخذت الأيام تبرهن كلما تصرمت على ان الحكومة البريطانية المنتدبة قد جعلت من نفسها

---

(١) قلما التفت مؤرخو السياسة الحديثة الى ان من سياسة الانكليز حين يتقلص نفوذهم او يحاولون ترك مستعمراتهم ان لا يخرجوا من البلد دون ان يطمئنوا بانهم قد بذروا من بذور الاختلافات والشقاق ما يصعب القضاء عليها واعادة الاطمينان والاستقرار الى البلاد المتروكة وقد تجلى ذلك في خلق المشكلة بين الصهيونية والعرب في فلسطين ، وبذر الشقاق بين الاثوريين والحكومة العراقية، ثم بين الاكراد والحكومة العراقية ، ووضع كشمير عقبة دون الاستقرار بين الهند والباكستان ، وتغذية الاختلافات بين الاقوام النيجيرية ، حتى أدت إلى تلك الحرب الضارية، وشق البلاد في عدن والمحميات السبع الى فرق واحزاب ، وترك جزيرة جميكا الواقعة في بحــر الكرائيب في أشد الازمات من المشاحنة ، حين نفضوا ايذيهم منها ، ولو لم تبادر ايران والبحرين لحل قضيتها لكانت العاقبة كما هي في جميع البلدان التي يغادرها الانكليز حرباً، وشجاراً، وعدم استقرار في حين كان بامكانهم تصفية كل تلك المشكلات كما كانت صافية ايام حكمهم وترك البلدان وهي في اتم استقرار واطمينان ، وهذا ما كان سيقع في فلسطين حتماً لو لم يخلق الانكليز قضية اسرائيل عمداً ، جرياً على اسس سياستهم كما أوجدوا مشكلة كشمير ولم يحلوها قبــل خروجهم من الهند مع الفارق الكبير بين قضية فلسطين وقضية كشمير .

ويذكر كيمشي في مذكراته ان ماكنيل وزير الدولة البريطاني قال له : « ان القتــال في فلسطين يعتبر شيئاً ضرورياً ، لأن سفك الدماء لا بد من ان يقع بين الطرفين حتى يقتنع العرب بان الدولة الاسرائيلية قد اصبحت شيئاً موجوداً بالضرورة ، وحتى يقتنع اليهود بأنهم لا يستطيعون الا بالكاد الدفاع عن الحدود المخصصة لهم » (كذا)

• الخليلي

آلة مسخرة في أيدي الصهيونية العالمية لتحقيق الحلم اليهودي في اغتصاب فلسطين من أصحابها الشرعيين وانشاء حكومة صهيونية فيها تكون عاصمتها القدس .

وقد تنبه العرب منذ البداية الى ما كان يبيّت لهم من خطط شيطانية وأحابيل تستهدف ابتزاز بلادهم بالتدريج وتشريدهم الى خارجها . فراحوا يكافحون بكل ما عندهم من قوة . في الميدانين السياسي والثوري المسلح .

فعقد المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس سنة ١٩١٩ . فقرر رفض وعد بلفور والهجرة اليهودية والانتداب البريطاني ، ثم حدد مطالب العرب بالوحدة مع سورية باعتبار فلسطين جزءاً لا يتجزأ منها . وتسميتها « سورية الجنوبية » . ثم عُقد في القدس مؤتمر آخر في حزيران ١٩٢١ . فأكد فيه العرب أمانيهم الوطنية وشجب وعد بلفور . وتمسكهم بالوحدة مع سورية . مع المطالبة بتشكيل حكومة وطنية في فلسطين (١) .

وقد انتخب هذا المؤتمر وفداً يسافر الى بريطانية ليعرض مطاليب الفلسطينيين على حكومتها . وفي لندن اتصل بالأوساط الانكليزية المختلفة . وكان من تأثيره فيها ان بادر مجلس اللوردات في ٢٠ حزيران ١٩٢٢ الى اصدار قرار يرفض فيه صك الانتداب على فلسطين لأنه يناقض ما قطعته بريطانية من وعود للعرب في ١٩١٥ . ولا يتفق مع رغبات أهالي فلسطين أنفسهم . لكن هذا القرار لم يكن له تأثير عملي على سياسة الحكومة البريطانية . لأن مجلس العموم أقر سياسة الحكومة في هذا الشأن . ثم اضطر وزير المستعمرات يومذاك (تشرشل) الى ان يصدر في أول تموز ١٩٢٢ ما سمي بالكتاب الابيض . وقد حاول هذا الكتاب تفسير وعد بلفور تفسيراً يطمن العرب فيه ، لكنه خيب آمالهم . ويقول جفريز في هذا الشأن (الص ٤٩٢) ان الوفد أجبر وزير

(١) القضية الفلسطينية ، الص ٦٩ .

المستعمرات على ان يضمّن الكتاب الأبيض أعذار الحكومة عن حنثها بالوعود المقطوعة لهم . وكان هذا القسم من الوثيقة بمثابة اعتراف خطي موقع من الحكومة البريطانية بعدم النزاهة ، ومع ان قليلاً من الناس قرأوا هذا الاعتراف يومذاك أو اهتموا به فانه على كل حال سيبقى بيّنة واضحة لمحكمة التاريخ . وجيلٍ من الناس اكثر شعوراً بالصالح العام .. واعترفت الحكومة بصراحة كذلك بانها لا يمكنها ان تخلق فلسطيناً لليهود وحدهم .

وحينما عاد الوفد الى فلسطين عقد في نابلس المؤتمر الفلسطيني الخامس الذي قرر عدم الموافقة على اقتراح الحكومة بتشكيل مجلس تشريعي مختلط في القدس ، ومقاطعة الانتخابات التي أعلنت عنها الحكومة لهذا الغرض (شباط ١٩٢٣) . ثم قوطع بعد ذلك أمر تشكيل مجلس استشاري في البلاد ، ورفض تأليف وكالة عربية على غرار الوكالة اليهودية .

اما مقاومة عرب فلسطين المسلحة فيمكن ان يقال ان حياتهم ما بين ١٩٢٢ و ١٩٣٩ ، كانت سلسلة ثورات واضطرابات يتخللها انتخاب لجان وهيئات بريطانية للتحري عن الأسباب . فقد جاء في كتاب[1] (الشرق الأوسط) الذي أصدره المعهد الملكي للشؤون الدولية في انكلترة سنة ١٩٥١ ان فترة السبع عشرة سنة المنحصرة ما بين ١٩٢٢ ونشوب الحرب في ١٩٣٩ حدثت فيها اضطرابات في ١٩٢٩ ، و ١٩٣٣ ، و ١٩٣٦ ، وبلغت هذه الاضطرابات ذروتها بنشوب ثورة كبيرة في ١٩٣٨ . وكانت كلها بسبب عداء العرب للهجرة اليهودية .. وكان قادة الثورة على اتصال وثيق بمفتي القدس واللجنة العربية العليا الموجودين في المنفى خارج فلسطين . وقد لا يزيد عدد الثوار على (١٥٠٠) شخص ، لكنهم كانوا يتمتعون بالتأييد السلبي والايجابي لأغلبية

---

(١) The Middle East, A Political & Economic Survey — Royal Institute of International Affaire, London 1951, P. 288

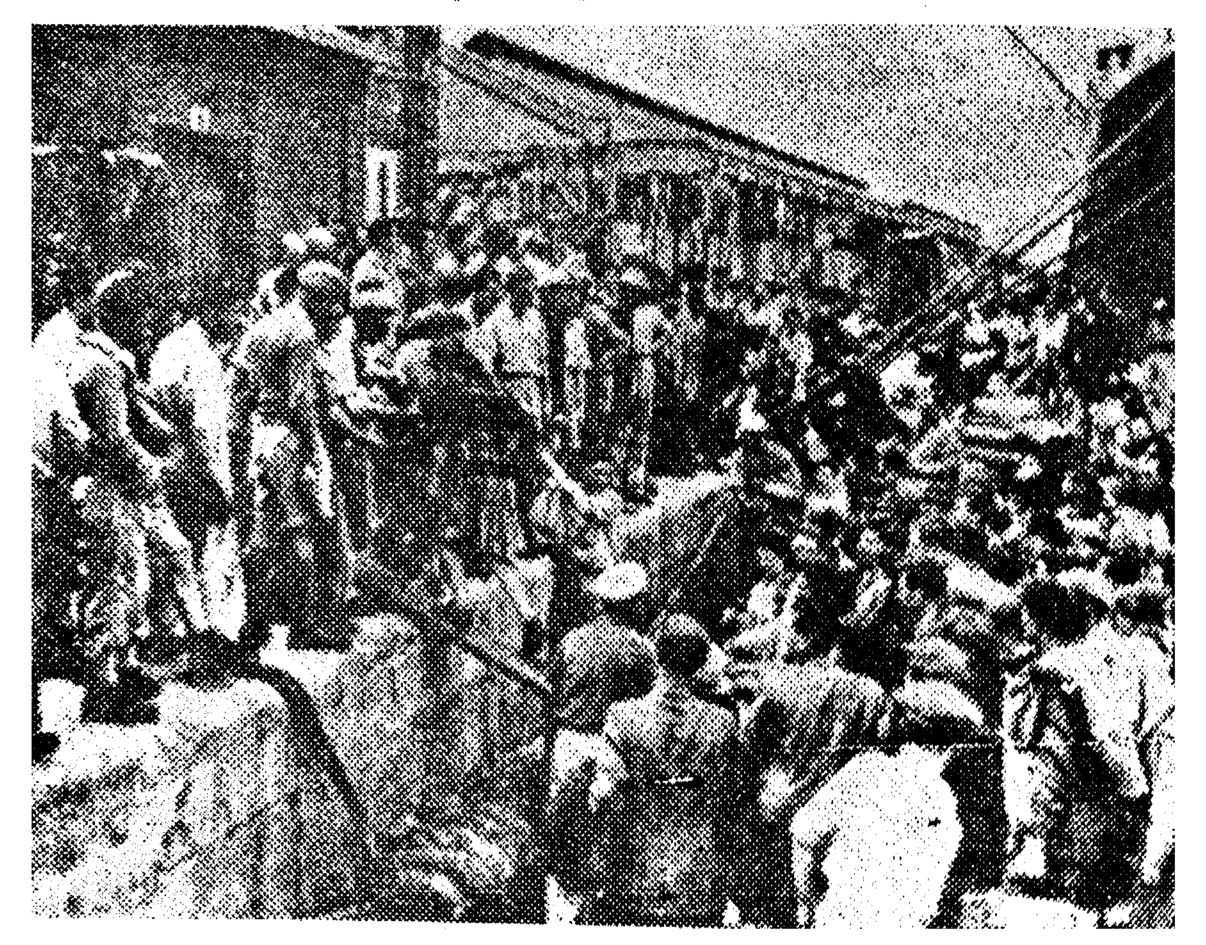
العرب في البلاد . ولولا الخصومات العربية الموجودة بين الأحزاب العربية في داخل فلسطين لامتد أمد الثورة الى أطول مما امتد اليه ، ولكلف قمعها مبالغ أكثر . فما حل مايس ١٩٣٩ حتى أخذت الثورة بالتصدع من الداخل ، وصارت العمليات العسكرية البريطانية تلاقي نجاحاً أكثر .. وقد بلغ عدد الاصابات على ما جاء في إحدى الحواشي مجموعاً قدره ٣٧١٧ ، انتهى .

هذا وقد أوردنا شيئاً عن اضطرابات سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٩ قبلاً . اما اضطرابات ١٩٣٣ وحوادثها الدامية فقد كان من اسبابها المباشرة اندفاع السر آرثر واكهوب المندوب السامي البريطاني في سياسته التهويدية ولا سيما في تمليك الاراضي وتوسيع نطاق الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، إذ قفز رقم المهاجرين اليهود من ٩٥٠٠ مهاجر في سنة ١٩٣٢ الى زهاء ٣٣ ألفاً في ١٩٣٣ والملاحظ من هذا ان كفاح العرب أخذ يتوجه نحو الانكليز بصراحة وليس نحو اليهود وحدهم . وقد بدأت الاضطرابات في القدس باضراب العرب وقيامهم بمظاهرة عامة يتقدمها أعضاء اللجنة التنفيذية في يوم الجمعة ١٣ تشرين الأول . وحدثت في يوم ٢٧ منه مظاهرة صاخبة أخرى في يافا ، واطلقت الشرطة البريطانية النار عليها فوقع فيها ثلاثون شهيداً وأكثر من مائتي جريح . ثم قامت مظاهرة ثالثة في جميع انحاء فلسطين يوم عيد الفطر الذي وقع بعد شهرين .

ويفهم مما كتبه جفريز (الص ٦٥٥ ـــ ٦٦٥) ان ثورة ١٩٣٦ قد بدأت باضراب عام قام به العرب على عهد المندوب السامي البريطاني واكهوب ايضاً ، حيث انه كان يشجع هجرة اليهود ويسهل أمرها . فهو يقول ان ما يسمى بالثورة الخامسة قد وقع في نيسان ، والسبب في ذلك هو من جديد، السبب الذي ادى الى وقوع الاضطرابات الأولى والثانية والثالثة والرابعة قبلها ، بالاضافة الى ملل الأمة ويأسها من تحقيق أمنياتها .. وقد بدأت في يوم ٢١ نيسان بقرار أصدره ممثلو الأحزاب العربية كلهم . حينما اجتمعوا لتعيين مجلس وطني يمثل الجميع ، فسمي باللجنة العربية العليا . وكان يرأسه مفتي

القدس الحاج أمين الحسيني . ويدخل في ضمن أعضائه عوني عبد الهادي . وراغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس . ومدير البنك العربي . وعضوان من المسيحيين هما يعقوب افندي فرج والفريد افندي روك . وقد طالبت اللجنة العليا رسمياً بايقاف الهجرة . ومنع بيع الأراضي للصهاينة . وتأسيس حكومة وطنية مسؤولة تجاه مجلس نيابي منتخب انتخاباً دمقراطياً .. ومما يذكره في هذه المناسبة ان ارقام الهجرة ارتفعت من ٩٥٠٠ مهاجر في ١٩٣٢ الى ٣٣ ألف في ١٩٣٣ والى ٤٣ ألف في ١٩٣٤ . والى ٦٢ ألف في ١٩٣٥ . عدا ألوف المهاجرين غير الشرعيين بالتهريب وما أشبه . وعلى الرغم مما ذكره الخبير البريطاني سمبسون بأن الأراضي الموجودة في أيدي العرب غير كافية

صورة لاحدى موجات الهجرة اليهودية الى فلسطين



لهم فان السلطات البريطانية ظلت تشجع انتقال الأراضي الى أيدي اليهود حتى بلغ ما انتقل اليهم منذ أصدر سمبسون توصيته بوقف العملية أكثر من ٦٦٧ ألف دونم .

وقد تطور الاضراب العام في هذه المرة الى « عصيان مدني » على غرار ما وقع في الهند كما يقول جفريز . فتوقفت الحياة في البلاد تقريباً . وتوسعت حوادث العنف وتدمير الممتلكات الصهيونية والأراضي في طول البلاد وعرضها . ثم استحالت الاضطرابات بالتدريج الى حرب صغيرة ، هوجمت فيها القطارات ومخافر الشرطة . وازدادت أعمال القناصة ، كما تكونت العصابات في الجبال . ويشير جفريز أيضاً الى ان مذكرتين قدمتا الى حكومة فلسطين البريطانية في القدس ، احداهما من كبـــار الموظفين العرب والأخرى من سائر موظفي العرب . يقولون فيها : ان الشعب المظلوم قد فقد ثقتـــه بالوعود الرسمية التي قطعت له بسبب اذعان الحكومة البريطانية للضغط الصهيوني . وان ما يجرى في فلسطين هو تعبير عن اليأس . فكان اضرابه وثورته . وان قتل الشعور بالقوة غير ممكن . وسيظل هذا الشعور قائماً وسيبقى مصدراً للاضطراب والقلق حتى تزول العوامل التي ولدته . وان ايقاف الهجرة هو الحل الوحيد الشريف للخروج من المأزق ..ولم تهدأ الثورة ويكف الشعب عن الاضراب حتى وسّط الانكليز ملوك العرب الذين وجهوا الى العرب في فلسطين نداءً بالأخلاد الى السكينة لأن « الصديقة » بريطانية قد أعلنت رغبتها لتحقيق « العدل » .

ويقول الأستاذ اكرم زعيتر في (القضية الفلسطينية الص ١٠٥) ان السلطات زعمت تخفيفاً لخسائرها ان عدد القتلى من قواتها بلغ (٤٥) قتيلاً و (٢٦٠) جريحاً ، وان قتلى اليهود كانوا (٨٠) وجرحاهم نحو (٣٠٠) . اما المصادر العربية فتقدر عدد الشهداء بألف شهيد . ويقدر عدد الذين زُجوا في السجون والمعتقلات بثلاثة آلاف عربي .. وقد امتازت هذه الثورة عن سابقاتها بكونها كانت موجهة ضد الانتداب البريطاني أولاً وبكونها عنيفة

شديدة . وباستمرارها وشمولها لجميع طبقات الأمة ؛ وباشتراك العرب غير الفلسطينيين فيها اشتراكاً فعلياً عن طريق التطوع وامداد المجاهدين بالسلاح والعتاد ؛ واشتراك حكوماتهم بالتدخل السياسي حتى اصبحت القضية الفلسطينية قضية عربية عامة من الناحية العربية .

اما ثورة ١٩٣٨ فقد كانت شبيهة بثورة ١٩٣٦ . لكنها كانت بمقياس أوسع . وكان السبب المؤدي لها ما جاء في تقرير « لجنة پيل » التي قدمت الى البلاد للتحقيق في اسباب ثورة ١٩٣٦ . فمع ان هذه اللجنة قد اعترفت في تقريرها بأن أسباب الثورة هي رغبة العرب في نيل الاستقلال وكرههم لانشاء الوطن القومي اليهودي وتخوفهم منه . وهما السببان اللذان أديا الى وقوع اضطرابات ١٩٢٠ و ١٩٢٢ و ١٩٢٩ و ١٩٣٣ . وفزع العرب من تمادي اليهود في تملك الأراضي . فانها قد خلقت فكرة التقسيم لأول مرة واقترحتها في التقرير . وكان اقتراح التقسيم مبنياً على اعتقادهم بان الانتداب قد ثبت فشله في فلسطين على ما يذكر جفريز (الص ٦٦١) . ويروي جفريز تفصيلات هذا التقرير وظروفه (الص ٦٦٤ — ٦٦٧) وتبني الحكومة البريطانية لفكرة التقسيم الواردة فيه . ومناقشة البرلمان لوزير المستعمرات اليهودي أورمزبي غور عنها . وهي تفصيلات مضحكة مبكية في نفس الوقت لما فيها من تناقض تتصف به السياسة البريطانية على الدوام وخنوع دائم للنفوذ الصهيوني وخططه الماكرة . ومن جملة ما يذكره جفريز على الأخص (الص ٦٦٦) ان الرئيس الصهيوني وايزمن قد زود بنسخة من تقرير لجنة پيل هذا قبل طبعه ونشره ليبدي رأيه فيه .

ولا شك أن نشر التقرير قد أدى الى تصاعد الهياج بين عرب فلسطين والبلاد العربية الأخرى . ولا سيما بعد أن عرضه وزير الخارجية المستر ايدن على عصبة الأمم في ١٤—١٠—٣٧ ودافع فيها عن فكرة التقسيم الواردة في التقرير . ففي ٢٦ من الشهر نفسه أُطلقت النار على المستر اندروز حاكم الجليل فقتل هو وحارسه . وعند ذاك ثار ثائر السلطات البريطانية فاغتنمت الفرصة

للبطش بالعرب وزعمائهم . ويقول المستر جفريز (الص ٦٧٣) ان هذا الحادث كان واحداً من سلسلة طويلة لا نهاية لها من الحوادث التي تحدث في كل بلد من بلاد العالم في حقب التاريخ أجمع . فقد اتخذت الحكومة فرصةً لها لا لتقبض على مرتكب الجريمة وتقتص منه بل لتحارب الأمة التي تقف في وجهها كلها . وتضرب المبدأ الذي تتمسك به . فقد حلت جميع اللجان الوطنية في فلسطين . وحرم مفتي القدس الأكبر . ورئيس اللجنة العربية العليا من مناصبه كافة ثم صدرت الأوامر باعتقال الأعضاء الآخرين . وكان السبب المزعوم لهذا الصنيع ان الزعماء العرب هم المسؤولون معنوياً عن هذه الحوادث . وان نشاطهم وأفعالهم كانت تعرقل صيانة الأمن العام . وأعقب هذا بعد اسبوعين صدور أمر آخر مُنع فيه أربعة من الزعماء العرب كانوا في الخارج من العودة الى بلادهم . وكان من بين المعتقلين او المنفيين اناس معلومون من مثل جمال الحسيني ، والفريد روك ، وعوني عبد الهادي . فقد استطاع جمال الحسيني التخلص من الاعتقال وفر هارباً الى سورية . حيث لحق به بعد قليل قريبه مفتي القدس الذي اختبأ في جامع عمر أول الأمر . وفرّ بعد ذلك الى جهة الساحل . ومن هناك وصل الى بيروت . وكان الاثنان الآخران في جنيف . وقد حرم عوني عبد الهادي حتى من التأشير على جواز سفره الى انكلترة ..

ثم يقول جفريز : وكانت النتيجة الوحيدة لضربة الادارة الانكليزية هذه أنها برهنت للملأ على بطلان الادعاء القديم بان « الأفندية » الرؤساء اذا ما أُزيحوا عن الطريق سرعان ما تتحطم المعارضة التي تقف في وجه الوطن القومي اليهودي . وان الفلاحين العرب سيرفعون ايديهم للصهيونيين الذين يجلبون لهم الازدهار والموفقية وما أشبه . فقد كان الواقع بالعكس . لأن الثورة بدلاً من ان تتبدد على ما كان ينتظر تقوّت وشملت فلسطين كلها وأصبحت ثورة عارمة بكل معنى الكلمة . حيث ان الناس الوحيدين الذين كان يمكنهم على الأقل ان يحاولوا ضبطها قد اعتُقلوا أو زُجوا في غياهب السجون .

ويذكر جفريز كذلك : ولتبرير الفشل الذي منيت بـه حركة أول

(أوكتوبر) الحكومية عُزيت تطورات الثورة هذه كلها الى مفتي القدس وجماعته الذين كانوا يعملون آمنين في سورية ولبنان بحماية الفرنسيين . وقد كانت أشياء كثيرة تعزى الى المفتي على الدوام منذ كان في القدس ، وكان يسمى روح الثورة .

ومن وقائع هذه الثورة التي يذكرها الاستاذ زعيتر ما يذكرها بقوله : وفي أثناء وجود لجنة التقسيم احتلت العصابات مدينة القدس القديمة ، ونشطت في مختلف الساحات ، فاستبدلت الحكومة البريطانية الجنرال هيننغ بالجنرال ويفل في منصب القائد العام .. وأخفقت جميع التدابير الزجرية في تخفيف حدة الثورة . ففي ٢٠ من اغسطس احتل الثائرون مدينة الخليل ، وفي ٢٤ دخل أحد الثوار سراي الحاكم البريطاني في جنين المستر موفات واطلق النار عليه فأرداه قتيلاً ثم خرج ناجياً بنفسه . وفي ٩ أيلول احتل الثوار مدينة بئر السبع واطلقوا المساجين واستولوا على مركز البوليس فيها واحرقوها . وتوالت النجدات العسكرية حتى استطاعت السلطات بعد جهود احتلال القدس القديمة ثانيةً . وفي ٥ اوكتوبر احتل الثوار مدينة طبرية وغزوا أحياءها اليهودية فقتل وجرح عشرات من اليهود ، عدا ما حرق ودمر من البيوت والمنشآت الرسمية .

وقد أحصت السلطات الرسمية حوادث العنف مدة الثورة فقدرتها بنحوُ عشرة آلاف ، منها نحو الف وخمسمائة ضد الجيش والبوليس ، وقدرت الاصابات من الانكليز في سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ بثلاثمائة وخمسين قتيلاً ونحو ستماية جريح . اما العرب فعدد شهدائهم في هذه الفترة ليس اقل من الفين .

وجاءت الى القدس خلال الثورة « لجنة وودهيد » التي كان من المقرر ان تحدد حدود التقسيم الذي اقترحته لجنة پيل ، فقامت بعملها برغم مقاطعة العرب لها . ثم قدمت تقريراً ذكرت فيه الكثير من مساوىء فكرة التقسيم ، لكنها اقترحت اقتراحات أخرى مماثلة لليهود ايضاً . غير ان أحد أعضائها ، وهو المستر ريد ، أرفق بالتقرير مذكرة تحفظية جاء فيها : ان اعلان سياسة

التقسيم قد حوّل الاضطرابات في فلسطين الى ثورة عربية قومية أسهم فيها العرب المقيمون في بعض الأقطار العربية .. ثم قال : لقد أوفى الانتداب بوعد أُعطي تحت ضغط ناجم عن الحرب . اما اقتراح تقسيم البلاد فهو أمر آخر بالمرة ، أي انه انقلاب لا يجوز ان يجريه الأوصياء من دون موافقة شعب فلسطين الذي ليس هو بالساذج المفتقر الى الوصي ولا هو بالعاجز عن اتخاذ قرار بهذا الشأن[1] ..

وبتأثير حدة الثورة ، وبناءً على ما جاء في تقرير هذه اللجنة من مشاكل ، تراجعت الحكومة البريطانية عن فكرة التقسيم فانتصرت الثورة ، ودعت الى عقد مؤتمر لممثلي الدول العربية وعرب فلسطين ، ثم نظمت ما سمته بالكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٦ فجعلت منطوياته أساساً لمفاوضات المؤتمر . ومما تضمنه الكتاب الابيض قول الحكومة البريطانية ان حكومة جلالته ترغب في ان ترى قيام دولة فلسطينية مستقلة يشترك فيها العرب واليهود بممارسة الحكم فيها ولكن لا بد من أن يسبق ذلك نشوء علاقات طيبة بين العرب واليهود . وعليه لا بد من فترة انتقال تحتفظ خلالها حكومة جلالته بالمسؤولية النهائية بصفتها السلطة المنتدبة ، ولا بد من فترة يزداد فيها نصيب الأهالي من الاضطلاع بالحكم الذاتي . وتبذل الحكومة في أثنائها جهدها لتنمية العلاقات الطيبة بين العرب واليهود . فلم يوافق على تفصيلات المشروع لا العرب ولا اليهود ، لكن الحكومة البريطانية تمسكت به وعرضته على عصبة الأمم لاقراره . وبينما هي تنظر فيه أُعلنت الحرب العامة الثانية وتوقف عمل العصبة .

(١) اكرم زعيتر ، الص ١٣٢ .

مفتي القدس

ليس هناك شخصية عربية تعرضت للنقد والتحامل الشديد في صحف المغرب ، وأصبحت هدفاً دائماً للهجمات التي ظلت تشنها عليها أقلام خاصة في أنحاء العالم أجمع . خلال مدة تمتد من أوائل العشرينات في هذا القرن الى سني ما بعد الحرب العالمية الثانية . مثل شخصية مفتي القدس الحاج أمين الحسيني . ولا شك ان سبب هذا كله هو ان المفتي كان من أوائل المتصدين للقضية الفلسطينية من المتبنين لحركة المقاومة في وجه الصهيونية . اما الاختلاف الواقع بينه وبين الزعماء الآخرين فمبعثه الاجتهاد ولكل من ساسة فلسطين العرب رأيه وطريقة معالجته الأمر .

ولأجل ان تخرج الصورة التي نحاول رسمها عن القدس في العصر الحديث وهي صورة كاملة رأينا من المناسب ان نورد هنا نموذجاً لما كُتب عن المفتي في الصحف البريطانية والكتب التي طبعت في البلاد الانكليزية . فقد كتب عنه الصحفي اليهودي جون كيمشي ، محرر الـ « جويش أوبزرفر[١] » صفحات خاصة في كتاب أخرجه سنة ١٩٥٣ بعنوان (الأعمدة الساقطة السبعة[٢]) على أثر تشكيل دولة اسرائيل وفشل الجيوش العربية السبعة في الحيلولة دون تكوينها . فهو يقول :

« .. وقد لا يكون هناك رأي عام عربي على شاكلة الرأي العام الموجود في نيويورك أو لندن . ولكن أخذ نوع من الرأي العام العربي المخطر يتكون بالتأثير البارع الذي كانت تمارسه شخصية مفتي القدس الشريرة . الحاج أمين . فقد كان هرب المفتي من فرنسة والتجائه الى الملك فاروق في مصر

---

(١) Jewish Observer & Middle East Review

(٢) Kimche, Jon — Seven Fallen Pillars, The Middle East 1945-1952 (London 1953) P. 194-198.

فاجعة لليهود والبريطانيين العرب على سواء ، حينما أخذت تشتد أزمة الهجرة اليهودية الى فلسطين في صيف ١٩٤٦ .

فبعد ان تخلص من الاعتقال للمرة الرابعة ، أخذ محمد أمين الحسيني مكانه المرموق في العالم العربي مرةً أخرى وأصبح في المجالس العربية العليا الشخصية الأولى التي تغطي على الحكام والرؤساء ممن كان يدبر الشؤون العربية ويوجهها بشيء أكثر من الاعتدال عند غياب المفتي وتفرغه لخدمة النازيين . »

« وقد ولد الحاج أمين قبل إحدى وخمسين سنة في القدس ، لكن طبيعته المتقلبة ، ولحيته الضاربة الى الحمرة في لونها ، مع مظهره الثعلبي ، تجعله يبدو أصغر مما هو بكثير . وقد أطلق عليه ضباط الاستخبارات البريطانية خلال الحرب اسم « باربا روسا » ، لكن خصل الشيب أخذت تطغى الآن على لحيته الحمراء واتخذت قامته الرشيقة شكلاً على جانبٍ أكبر من الروحانية والمظهر الكهنوتي .

وكان شباب المفتي يسير في النمط الكلاسيكي الذي يسير فيه شباب كل مشاغب . فقد درس في مدرسةٍ من المدارس التركية ، وقضى سنة غير مستقرة في جامعة الأزهر في القاهرة التي تركها من دون أن ينتظر من أجل الحصول على درجة الشيخية منها — ثم حج الى بيت الله الحرام ، وقضى فترةً قصيرة في الجيش التركي خلال الحرب العالمية الأولى ، وتعين لوقتٍ ما موظفاً في الكمرك ومعلماً بعد ذلك . وعند ذاك يبدأ مسلكه في الافتاء .

« وكانت إحدى المحاكم البريطانية قد حكمت عليه في ١٩٢٠ بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة التحريض على الاضطرابات التي حصلت ضد اليهود في تلك السنة . ففر الى شرقي الاردن والتجأ الى الأمير عبد الله . وكان هذا أول تملص من الانكليز يتوفق فيه ، حيث أنه أصبح عادةً له فيما بعد . ثم قدر للمفتي بأن يحظى في السنة التالية بطالعٍ حسن ظل يعرف به طوال حياته السياسية فقد كان المندوب السامي اليهودي في فلسطين السر هربرت صموئيل ينشد

الحصول على حسن نية العرب تجاهه باتباع سياسة تنطوي على الكثير من الترضية ورحابة الصدر . وفي غمرةٍ من هذا الاتجاه عفى عن الوطني الثائر أمين الحسيني . ولم يكتف بهذا فقط . بل قرر المضي في حركةٍ أخرى من حركات حسن النية ، فقد بذل نفوذه في سبيل ان ينتخب الحاج أمين الحسيني مفتياً للقدس على الرغم من المشورة التي قدمتها له الأسر العربية المعتدلة بخلاف ذلك .

« وما ان ثبّت أقدامه في منصبه الجديد حتى أخذ يدرك — وهو فيه طبيعة — رسالته التي كرّس جهوده لها باخلاص قلما يوجد له مثيل في التأريخ المتأخر . وكانت رسالته تنطوي على تحقيق أطماعه هو نفسه ، من دون ان يسمح لشيء بان يقف في طريقها . وقد أعقب تعيينه للافتاء عمل آخر من أعمال الترضية التي كان يمارسها المندوب السامي اليهودي . فقد عين مفتي القدس رئيساً للمجلس الاسلامي الأعلى فيها أيضاً . فأصبحت بيده قوة لا يستهان بها . حيث انه بات يتحكم في جميع الأموال العائدة للمؤسسات الدينية وفي المحاكم الشرعية والمقابر ، والمساجد . وبكلمةٍ موجزة أصبح الحاج أمين ديكتاتور الحياة الدينية والتعليمية والاجتماعية لجميع المسلمين في فلسطين . فنمت أطماع هذا المفتي وتوسعت . غير انه كانت هناك أسر عربية قوية لم تزل في فلسطين تشغل مناصب مهمة في البلد وتحول دون أطماعه . ولذلك قرر تصفيتها والقضاء عليها .



السر هربرت صموئيل اول مندوب انتدبته بريطانيا لادارة فلسطين وهو صهيوني صميم ساعد حكمه على قيام دولة اسرائيل في النهاية .

« وقد فتح ظهور هتلر وتسنمه مقام السلطة في العالم أفقاً جديداً في هذا

الشأن . إذ سرعان ما اتصل المفتي بالألمان ، وأوفد الطلاب للدراسة في ألمانية فتلقى مساعدة لقاء ذلك. وهكذا كان المسرح مهيئاً لثورة ١٩٣٦ التي كان المفتي يدبر كل شيء فيها . وكان قد جنّد المرتزقة لكنه وجد في القرى العربية ، ولدى العرب الاعتياديين ، تعاطفاً معه أكثر من التأييد العملي . فقد قدرت اللجنة الملكية ان عدد القائمين بالثورة لم يكن يزيد على (١٥٠٠) ثائر نظامي . واكتشف المفتي وجود معارضة نامية لسياسته بين العرب المعتدلين ، ولذلك حرّض رجاله على هؤلاء المعارضين الذين كانوا يتهمونه باساءة التصرف في المبلغ الذي يزيد على المليوني پاون مما يعود الى أموال الأوقاف المسلمة بعهدته . فاغتيل رجال العرب البارزين وغير البارزين ، وعدد من النساء . وعند ذلك صدرت مذكرة بتوقيف المفتي هذا ، فاحتمى بقبة الصخرة الكائنة في القدس القديمة . وأخذ يدير الحركات من حرمها ويحاكم العرب الذين لم يطيعوه . وقد ترك عدد من العرب البارزين فلسطين الى مصر هرباً من انتقام المفتي .

« وحينما انطفأ لهيب الثورة في الأخير تزيا المفتي بزي امرأة عربية ، وهرب من المسجد فالتجأ الى لبنان . ولم يعتقله الفرنسيون حينما أُعلنت الحرب لكنه فر هارباً من مراقبتهم الشديدة ووصل الى بغداد . فصوّتت الحكومة العراقية على تخصيص (١٨,٠٠٠) پاون له ، مع مبلغ شهرين قدره ألف باون يدفع له من المخصصات السرية . وقد ظهر في برلين في أواخر أيام الحرب مع هتلر وهملر ، ثم ساعد بعد ذلك في تنظيم مسلمي الألبان واليوغوسلاف وانتمائهم إلى جماعات الصاعقة التي كانت تحارب تيتو . وكذلك ساعد في تأسيس مدرسة تخريب للعرب الموجودين في آثينة ، وفي تلقين المظليين العرب عن مهمتهم في فلسطين والعراق .

« وكان التأثير العاجل لعودة مفتي القدس الى الشرق الأوسط في ١٩٤٦ إثارة أعصاب معظم الزعماء العرب . وعادت الى الظهور كذلك ذكريات أساليبه الفعالة في اقناع او تحطيم الذين كانوا على خلاف معه . ويبدو أنه كان قد توفق في الحصول على أتباع غير قليلين في العراق، وفلسطين، وسورية .

فانضم العرب المعتدلون – خوفاً من العزلة – الى التهديد والصراخ بما يجب ان يفعلوه اذا لم يبادر البريطانيون الى ايقاف السيل المتدفق لهجرة اليهود غير الشرقية . وكان ذلك ، كما لوحظ ، في الوقت الذي وصل اليه النفوذ الروسي في الشرق الأوسط الى قمته . فقد هدد الناطقون باسم المفتي من عرب فلسطين بأنهم سيتجهون الى روسية ويستمدون العون منها اذا امتنعت بريطانية عن ايقاف الهجرة اليهودية عند حدها .

« فساعد هذا كله على تشجيع حكومة العمال في لندن على اتباع مشورة العرب وحكومة فلسطين ووزارة الخارجية ، فصودق على ترحيل المهاجرين غير الشرعيين الى قبرص وابقائهم فيها مدة سنتين . وكانت تقارير وزارة الخارجية عن تغلغل النفوذ الروسي في الشرق الأوسط ، وتصاعد السخط العربي ، ومناورات المفتي ، كافية لاقناع مجلس الوزراء بذلك واخماد أي نبضة وجدان يمكن ان تنبض في غرفة الاجتماع في داونينغ ستريت .. »

اما الغربيون المنصفون فيجلّون مفتي القدس ويضعون الحق في جانبه . فيقول جفريز (الص ٦٧٤) مثلاً « ان هناك قليلاً من الشك على ما يظهر بان المفتي رجل ذو مزاج تآمري ، وربما كان له ضلع في المقاومة المسلحة التي حصلت في فلسطين .ولكن النقطة التي يجدر ذكرها بالنسبة للمفتي هي : ان أي موقف بالضبط ؟ ،وأي عمل كان يمكن ان ينتظر منه ان يفعله بعد أن أصبح من الواضح جداً ان السنوات المتتالية من المطاليب السلمية والاحتجاجات لم تنجح في الفوز بالنظر في التهم التي كان يقدمها هو وغيره من الزعماء العرب ضد الانتداب وصانعيه ، فضلاً عن رد هذه الاتهامات ؟ فاذا كان قد التجأ الى الدس والتحريض بالفعل بعد سنين من الاحتجاجات والعرائض التي لم ينظر فيها ، واذا كانت مناقشاته المدعمة بالحجج والبراهين لم تحظ حتى بالالتفات اليها ، فمن هو الذي يحكم عليه إذن ؟ لا شك ان الذين سيحكمون عليه يجب ان لا يكونوا ممن كانوا يشغلون مناصب عالية في الحكومات والهيئات التي

كانت تتآمر على بلاده خلال عشرين سنة ومن ورائها الصهاينة المتحفزون . وقد كان معظم الزعماء العرب الآخرون منشغلين بالفعل في هذه الاستغاثات السلمية التي لم تقابل الا بعدم الالتفات . وكانت حياتهم السياسية قد تقضت بالذهاب والاياب ما بين القدس ولندن وجنيف » .

في الحرب العالمية الثانية

أعلنت الحرب العالمية الثانية وثورة ١٩٣٨ ما تزال قائمة في فلسطين . لكنها سرعان ما توقفت لأسباب كثيرة أهمها نقص السلاح ونفاد العتاد . وضخامة التضحيات التي بذلها العرب . وكانت الحكومة البريطانية لا تزال مصرة على تنفيذ سياسة الكتاب الأبيض . فراحت تتخذ التدابير المطلوبة لذلك وعلى الأخص بالنسبة لمشكلة تسرب الأراضي الى اليهود وإيقاف الهجرة . وتأسيس شكل من أشكال الحكم الذاتي . واصبح موقف العرب في أثناء الحرب أقرب الى المهادنة منه الى التمرد لأنهم كانوا يأملون ان يتم تنفيذ الكتاب الأبيض . لكن اليهود ثارت ثائرتهم على مندرجات الكتاب الأبيض وأخذوا يقاومونه بكل ما لديهم من قوة ونفوذ . ومن أجل هذا سلكوا ثلاثة طرق : ــ١ــ التجأوا الى الولايات المتحدة ليستعينوا بالصهيونيين الأقوياء فيها وليحملوا حكومتها على التدخل في الأمر . ــ٢ــ أخذوا يسلحون أنفسهم بكل وسيلة ويقوون مؤسساتهم العسكرية السرية : ــ٣ــ نشطوا في أعمالهم الارهابية ضد الانكليز وأخذوا يطعنون الدولة البريطانية من الخلف في الحين الذي كانت تنشغل فيه في أمور الحرب الطاحنة وشؤونها الخطيرة .

وعلى هذا الأساس عقد الصهاينة الأمريكان مؤتمراً خاصاً في فندق بلتيمود في نيويورك خلال مايس ١٩٤٢ وقرروا فيه : (١) اولاً رفض الكتاب الأبيض

---

(١) ومضمون هذا الكتاب المعروف بالكتاب الابيض الذي صدر سنة ١٩٣٩ يتناول تعديلا لرأي بريطانيا السابق تلافياً لما اثارته انكلترة من غضب العرب، وهو ان انكلترة مستعدة للعمل =

ثانياً إطلاق الهجرة الى فلسطين . ثالثاً انشاء جيش يهودي يحارب تحت رايته الخاصة والاعتراف به . رابعاً قيام دولة يهودية في فلسطين بأسرع ما يمكن . فاعترفت الوكالة اليهودية بمقررات بلتيمور هذه وأيدتها الأحزاب الصهيونية كلها ، فاصبحت برنامجاً للعمل عند الجميع . وظلت الجهات الصهيونية جمعاء تشتغل وتدس ، وترمي بثقلها كله للتأثير على الدوائر الأمريكية المتنفذة حتى تسنى لها الاستيلاء على الرئيس ترومان ومن يحيط به من رجال الكونغرس . والحزبين الجمهوري والديمقراطي ، ونفذوا بواسطتهم ما أرادوا . فقد نقض الكتاب الأبيض ،وفتح باب الهجرة ، وتتابعت المناورات السياسية والتأثيرات غير المنصفة في هيئة الأمم المتحدة التي تشكلت بعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء فيها ، فأدى ذلك كله الى استصدار قرار من هذه الهيئة الدولية بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة اسرائيل المزعومة في جزء مهم من فلسطين

اما الأعمال الارهابية التي قام بها اليهود فقد توسع نطاقها واشتدت وطأتها على الانكليز ، وبقيت كذلك حتى أعلن التقسيم . وكانت تقوم بها المنظمات السرية اليهودية : الهاغانا وهي منظمة الحرس المسلح لحماية المستعمرات اليهودية وأرغون زفاي لومي لأرض اسرائيل التي تهدف الى الاستيلاء على فلسطين وشرق الأردن بقوة السلاح ، وشتيرن وهي عصابة للاغتيال تختص بنهب الأموال والسلاح والغاية عندها تبرر الواسطة .

وقد اغتاظت السلطات البريطانية لهذه الأعمال الاجرامية الى آخر حدّ ، ولا سيما حينما نسفت الدوائر الحكومية التي كانت تشغل جناحاً من اجنحة

= في انشاء حكم ذاتي في فلسطين وانها مستعدة لتخفيض الهجرة الصهيونية الى فلسطين وجعلها ٧٥ الفاً مدة السنين الخمس القادمة على ان يتبع ذلك الاعتراف باستقلال فلسطين بعد عشر سنوات ، يتم فيها التقريب بين العرب واليهود والتدريب على ادارة الحكم في نوع من الامتزاج والتفاهم بين القوميتين ، ولكن اليهود رفضوا مضمون هذا الكتاب كما هو مذكور .

الخليلي

فندق الملك داود في تموز ١٩٤٦ . فعزت السلطات العسكرية هذا العمل الى اليهود علناً ، وألقت اللوم على الطائفة اليهودية كلها في بيان أصدره القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين الجنرال باركر ، فقد قال فيه « ان الطائفة اليهودية في فلسطين لا يمكنها ان تتملص من مسؤولية السلسلة الطويلة من الانتهاكات التي بلغت الذروة في نسف قسم كبير من دوائر الحكومة في بناية فندق الملك داود وضياع عدد غير قليل من أرواح الناس[١] » .

وكتب عدد كبير من كتاب الغرب عن هذه الأعمال ، فشجبها معظمهم وأدانها المنصفون من بينهم ، ومن بين هؤلاء اناس من اليهود يناوئون الصهيونية ويناهضونها . فقد كتب الكاتب الامريكي اليهودي الفريد ليلنتال المعادي للصهيونية يقول في كتابه[٢] (ثمن اسرائيل) : وفيما كانت الصهيونية ماضية في غيها . وبينما كان اليهود يتعامون عن هذه الأعمال الارهابية . ارتفع صوت يهودي واحد يندد بها . وكان له دوي الصاعقة .. لقد تحرك أخيراً ضمير حي من الضمائر اليهودية الصحيحة هو ضمير الدكتور يهودا ماغنس رئيس الجامعة العبرية في القدس . والمعروف عن الدكتور ماغنس انه لم يؤيد أبداً فكرة فرض سيطرة يهودية على فلسطين . بل كان يسعى الى ايجاد حل عادل لهذه المشكلة .. فقد وقف خطيباً في الذكرى الواحدة والثلاثين على إنشاء الجامعة وقال : « ان الصهيونية تحاول ان تضع الشعب اليهودي كله تحت نفوذها بالقوة والعنف .. ان الحظ لم يسعدني بعد لأن أسمع من أفواه معارضي الصهيونية رأيهم الصريح بأولئك الأشخاص الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عنهم .. إنهم قتلة .. انهم عصابة من الرجال والنساء . وجميع أمريكا يشاركون هؤلاء في الجرم .. لأن واجبنا يقضي علينا بان لا نظل مكتوفي الأيدي ، ونحن اذا ما قرعنا ناقوس الخطر فذلك لأننا حريصون على المحافظة على تقاليدنا الدينية الصحيحة .. »

---

(١) جون كيمشي ، الص ٤٢ .

(٢) Lielenthal, Alfred — What Price Israel (New York 1952)

الص ٥٦ من الترجمة العربية ، بيروت ١٩٥٤

هذا وقد سافر الدكتور ماغنس بعد مدة قصيرة من إلقاء خطابه هذا الى الولايات المتحدة ، وقرر ان لا يعود الى القدس ، المدينة التي أحبها من صميم فؤاده . ويذكر ليلنتال بعد ذلك : « وان كان الدكتور ماغنس قد مات فان أقواله الصريحة الصادقة ستعيش الى الأبد .فهو الذي قال : لقد كنا نعتقد ان الصهيونية ستعمل على تخفيف الحملة ضد السامية في العالم ، ولكننا رأينا العكس تماماً » ..

كان العلامة اينشتاين يرى رأي الدكتور ماغنس في الصهيونية التي حاولت مراراً ان تستفيد من سمعته ومنزلته العالمية لترويج أغراضها ،وارادت ترشيحه لرئاسة الجمهورية بعد موت وايزمن ، ولكنه رفض . ويقول الفرد ليلنتال في هذا الشأن : « ولكن مجرد دراسة بسيطة لنزعة انشتاين وعاطفته تجاه اسرائيل تظهر لنا بوضوح ان العلامة الكبير لا ينتمي لاسرائيل كما ادعت الصحف اليهودية . وانما كان اهتمامه منصباً منذ البداية في انعاش الجامعة العبرية في القدس . وقد حدث ابان الصراع العنيف بين وايزمن وبرانديس (القاضي اليهودي الامريكي) ان وقف انشتاين الى جانب برانديس وأيد موقفه في مناهضة الحركة الصهيونية وأهدافها المتطرفة .. وعندما مثل انشتاين امام لجنة التحقيق الأمريكية البريطانية عام ١٩٤٦ أجاب على سؤال وجهه اليه أحد الأعضاء عما اذا كان من الضروري انشاء دولة يهودية لحل قضية اللاجئين اليهود فقال : ان فكرة انشاء دولة لا تلاقي هوى في نفسي ، إذ أني لا أفهم الحاجة الى قيام هذه الدولة .. وأقول انها وليدة فكرة نبتت في رؤوس فريق من اليهود أصحاب العقول الضيقة .. ولذا اعتقد انه من الخطأ التفكير بانشاء مثل هذه الدولة ، وقد كنت وما زلت ضدها » .

وهناك أناس كثيرون من اليهود غير هؤلاء شجبوا الارهاب شجباً عنيفاً واخصهم جماعة « مجلس اليهودية الامريكي »[١] . وفي مقدمتهم رئيس

(١) American Council for Judaism

المجلس المستر كليرنس كولمان . والمستر ليسينغ روزنوالد . والحاخام أيامر بيرغر المدير الاداري لهذا المجلس وغيرهم[١] . وهــذا المجلس يناهض الصهيونية ويعاديها بصورة صريحة .

تخلي بريطانية عن فلسطين

كانت الجهود التي بذلتها الصهيونية العالمية في امريكا قد أثمرت ونجحت تمام النجاح في حمل الحكومات الأمريكية المتعاقبة . ودوائرها السياسية على التدخل في قضية فلسطين في جانب الصهيونية . وقد أخذت هذه الجهات تضغط على انكلترة بشتى الوسائل حتى توافق على زيادة الهجرة اليهودية والحنث بنصوص الكتاب الأبيض التي تبنتها الحكومة البريطانية وعزمت على تنفيذها . وكان لموقف ترومان الرئيس الأمريكي المتصهين تأثير مربك في هذا الشأن . كانت تصريحاته وتدخلاته تعرقل ما كان المستر بيفن وزير خارجية حكومة العمال البريطانية قد عزم عليه في حل المشكل .

وبعد مداولات ومناورات كثيرة ألقى المستر بيفن في ٢٦ شباط ١٩٤٧ خطاباً في مجلس العموم البريطاني أشار فيه الى ان القضية الفلسطينية معقدة جد التعقيد بسبب ما في نظام الانتداب من وعود متناقضة . لانه يسمح لليهود بغزو فلسطين والهجرة اليها بينما يحتم عدم الاضرار بسكانها الآخرين . وأشار الى ما كان لتصريحات تروهان وموقف حكومته من أثر في تعقيد القضية ثم قال : غير ان بريطانية لا تستطيع ان تفرض حلاً نهائياً الا بالقوة لأنها منتدبة انتداباً . ولذلك أصبح واجبها دفع الأمر الى هيئة الأمم المتحدة لتقرر الحل الذي تراه مناسباً .

وفي هذا المآل يقول ليلنتال (ثمن اسرائيل الص ٤٦) : وما أطل عام

---

(١) Berger, Elmer — Who Knows Better Must Say So. (The American Council for Judaism) N.Y. 1955.

١٩٤٧ حتى كانت الحالة في فلسطين قد بلغت ذروتها من حيث التأزم . وكانت تستدعي تدخلاً دولياً عاجلاً لحلها .. فان الصهيونيين كانوا يصرون بعناد على ان يكون اليهود الأكثرية ليتمكنوا من انشاء حكومة يهودية .. وفي غمرة الفوضى الشاملة قررت بريطانية نفض يدها من فلسطين . خاصةً بعد ان فشلت جميع المحاولات والمشاريع التي عرضتها حلاً للمشكل .. وكان آخر الحلول ذلك الحل المعروف بمشروع بيفن الرامي إلى إنشاء نظام « كانتونات » بفلسطين من العرب واليهود لمدة خمس سنوات . والسماح لمائة الف لاجىء بالدخول الى البلاد .

ترومان ووايزمن في وقفة تحابب وصفاء



وقد أعلنت الوكالة اليهودية آنذاك أنها لن تتعاون بعد الآن مع السلطة المنتدبة ضد أعمال الارهابيين اليهود . وحيال ذلك رأت بريطانية أن لا مخرج لها من هذه الورطة ، الا بعرض القضية على هيئة الأمم المتحدة .. وعند عرض القضية على بساط البحث في مجلس العموم البريطاني حاول بيفن بعبارات غامضة ان يبرر فشل حكومته في حل القضية الفلسطينية متهماً الساسة الأمريكيين بتعقيد المشكلة . وقد تجاوز حدود التقاليد الديبلوماسية عندما غمز من طرفٍ خفي مسؤولية البيت الأبيض حيث قال :

« .. وخرجت في اليوم الأول من انعقاد مؤتمر السلم في باريس وانا مطمئن الى اننا تمكنا من تذليل العقبات .. وفي منتصف ليل اليوم التالي تلقيت مخابرة هاتفية من رئيس الحكومة البريطاني يعلمني ان الرئيس الأمريكي ينوي اصدار قرار آخر بصدد المائة الف مهاجر .. وكان مجلس السلم لا يزال منعقداً ولذلك رجوت بيرنز ناظر خارجية إمريكا ان يتدخل لدى الرئيس ترومان كي يؤجل صدور ذلك القرار . وكان جواب ناظر الخارجية الأمريكية انه اذا لم يعلن ترومان موافقته على ادخال المائة الف يهودي فان مزاحمه في الانتخابات ديوي سيسبقه الى اعلان موافقته وتأييده لادخال هذا العدد من المهاجرين فيكسب بذلك أصوات يهود أمريكا في انتخابات الرآسة » ...!!

لجنة التحقيق الانكليزية الاميركية



وكتب جيمس ريستون في صحيفة نيويورك تايمس في نفس الموضوع يقول : « ان عدداً كبيراً من مستشاري الرئيس ترومان عارضوا صدور مثل هذا القرار نظراً لتوقع عقد هدنة بين بريطانية والصهيونيين .. بل ان (أتلي) رئيس الحكومة البريطانية اتصل بنفسه بالرئيس ترومان وطلب منه تأجيل اصدار ذلك القرار لكن ترومان لم يعر جميع هذه المحاولات أدنى اهتمام .. »

ثم يقول ليلنتال بعد ذلك : ويجدر بالذكر هنا ان وزارتي الخارجية والحربية الأمريكيتين حذرتا البيت الأبيض والكونغرس من اتباع تلك السياسة الخاطئة . وكانتا محقتين في تحذيرهما ، لأن مثل تلك السياسة قد تودي بنفوذ امريكا في بقعة ستراتيجية هامة من العالم . ولكن الساسة الأمريكيين لم يأبهوا كثيراً لتلك الحقيقة وضحوا بها من أجل سياسة حزبية تحقق مآربهم الشخصية ..

وهذا ما حصل بالفعل . فقد كانت القضية الفلسطينية في أحرج أزماتها .. عندما بلغت حملة الانتخابات ذروتها بين الحزبين المتنافسين .. فأدرك كل منهما ان حزبه لن يظفر بأصوات الناخبين اليهود في أمريكا الا اذا تعهد بتأييد إقامة دولة اسرائيل في أرض فلسطين .. ولعلها المرة الأولى في التاريخ ان تكسب معركة حاسمة بوسائل الدعاية ، وكان الفضل فيها للصهاينة أنفسهم الذين علقوا مصير مستقبلهم على نتيجة تلك المعركة الانتخابية ..

تقسيم فلسطين

وتنفيذاً لعزم بريطانيا على نفض يدها من فلسطين ، بعد ان مهدت لانشاء الوطن القومي اليهودي فيها خلال ٢٨ عاماً ، قدمت بريطانية مذكرة الى الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة تطلب فيها عرض القضية الفلسطينية برمتها في دورة خاصة . وقد كتب الفريد ليلنتال (الص ٥٣) فصلاً خاصاً في هذا الموضوع عنونه بعنوان « التقسيم غير المقدس » يقول فيه : وفي ٢٨ نيسان ١٩٤٧ عقدت الجمعية العمومية جلسة خاصة في نيويورك لبحث قضية فلسطين ، وقد اقتصرت ابحاث هذه الجلسة على عرض مختصر القضية من مختلف وجوهها .. وقد تقرر تأليف لجنة للتحقيق في القضية الفلسطينية ، على ان ترفع تقريرها الى اللجنة في مدة أقصاها شهر أيلول ١٩٤٧ .. فتألفت اللجنة من ١١ دولة صغرى هي : اوسترالية ، وكندا ، وتشيكوسلوفاكية ، وغواتيمالا ، والهند ، وايران ، وهولانده ، وپيرو ، والسويد ، وأورا غواي ، ويوغوسلافية ، كما عين القاضي السويدي أميل ساند سترم رئيساً لها :

ويتابع المستر ليلنتال سرد القضية فيقول : ومنذ الساعة الأولى التي أعلنت فيها أسماء أعضاء اللجنة بدأت محاولات الصهيونية في الضغط والتأثير على الأعضاء . وراحت المنظمات والمؤسسات اليهودية تبذل الجهود والمساعي خلال اجتماعات الجمعية العمومية لكسب التأييد والمساعدة للقضية الصهيونية .

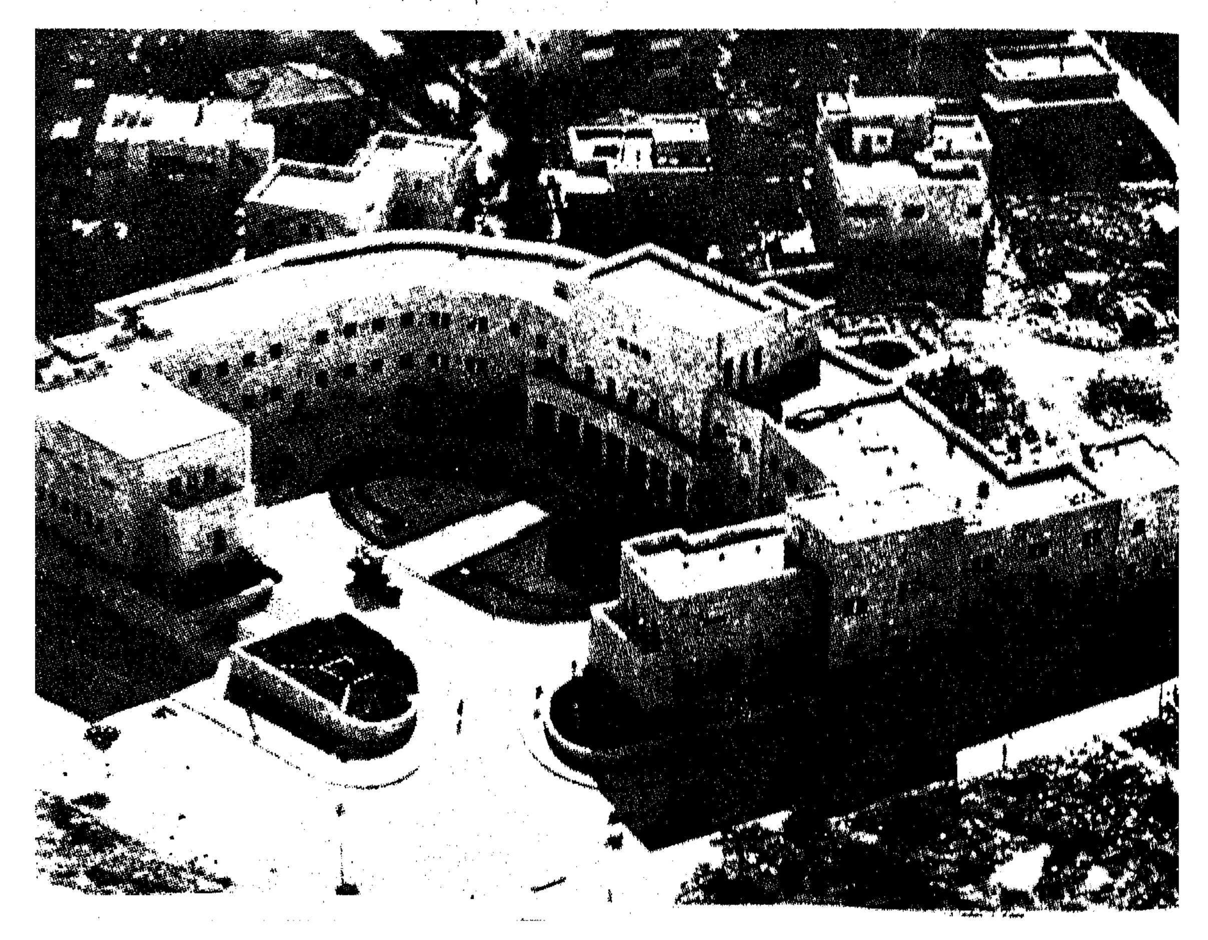
وقد وصلت اللجنة الى القدس في ١٧ حزيران ١٩٤٧ فأضربت فلسطين وبعض البلاد العربية يوم وصولها . ويذكر المستر ليلنتال بهذه المناسبة قوله : وفي مثل هذا الجو العاصف المحموم باشرت لجنة التحقيق دراستها للقضية في أرض فلسطين نفسها . وفي ٣١ آب وضعت تقريرها النهائي ورفعته الى اللجنة الثانية للجمعية العمومية . ولكن ماذا تضمن التقرير ؟ فبعد ان عقدت اللجنة حوالي ستة عشر اجتماعاً عاماً و ٣٦ اجتماعاً خاصاً في ليك سكيس . والقدس وجنيف . واستمعت الى عشرات البيانات الشفهية ومثلها من البيانات والوثائق الخطية من الحكومات ومن المنظمات السياسية والهيئات الدينية . لم تكن الحلول التي أوصت بها في تقريرها جماعية .

فقد اقترحت أكثرية الاعضاء تقسيم فلسطين . واقترحت الاقلية المؤلفة من الهند . وايران . ويوغوسلافية . إقامة دولة واحدة على نظام فيدرالي . بينما لم تؤيد اوستراليا كلا الفريقين ..

اما بالنسبة للقدس فقد وضع اقتراح الاكثرية منطقتها تحت نظام الوصاية الدولية . على ان يعين مجلس الوصاية التابع لهيئة الأمم حاكماً عاماً للقدس لا يكون عربياً ولا يهودياً . بينما ينص اقتراح الأقلية على تأسيس حكومتين مستقلتين استقلالاً ذاتياً تتألف منهما دولة اتحادية مستقلة عاصمتها القدس نفسها . وقد أوضح موقف بريطانية من الاقتراحين مندوبها آرثر كريتش جونس . على ما يذكر ليلنتال . وقال ان دولته لا تقر فرض أي مشروع جديد تضعه هيئة الأمم ما لم ينل موافقة الطرفين العرب واليهود .. وهكذا ألقت بريطانية مسؤولية كبرى على عاتق أعضاء هيئة الأمم .. وقام محمد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان ومندوبها في هيئة الأمم يدافع بحماسة

وحرارة عن وجهة النظر العربية ومعارضتها للتقسيم . فأكد ان من حق عرب فلسطين البالغ عددهم مليوناً و (٣٠) ألف عربي ان يختاروا نظام الحكم الذي يريدون ، وان هذا الحق قد ضمنته شرعة الأمم المتحدة .. وبعد ان تولت لجنة خاصة تدقيق الاقتراحين أقرت مشروع التقسيم ، حينما أيدته ١٣ دولـــة وامتنعت ١٧ دولة عن التصويت . ويذكر المستر ليلنتال بهذه المناسبة (الص ٦٤) ان الجدير بالملاحظة انه في جميع دورات الاقتراح وقفت الولايات المتحدة الى جانب روسية السوفياتية .. وعلى الرغم من هذا الانسجام المريب بين الدولتين ، لم ينل مشروع التقسيم سوى أكثرية ضئيلة عندما عرض امام الجمعية العمومية ، إذ بلغ عدد المخالفين للمشروع والممتنعين عن التصويت

دار الوكالة اليهودية في القدس وقد نسفها العرب يوم ١١/٣/١٩٤٨



٣٢ صوتاً ، ومن بينهم مندوبو ثلاث دول كبرى هي فرنسة وبريطانية والهند الذين تعمدوا التغيب عن الاجتماع .

وقبل ان تباشر الجمعية العمومية في التصويت على التقسيم استمعت الى الخطباء من مؤيدين ومعارضين .. وكالعادة وقف مندوبا جنوب إمريكا غرانادوس وفابرفات يدافعان عن وجهة نظر الوكالة اليهودية بكل حماسة واخلاص . بينما لم يُظهِر مندوبو روسية السوفياتية والولايات المتحدة وجميع المدافعين عن المشروع أي اندفاع أو تحمس لتأييده بل أعلنوا أسفهم لاضطرارهم الى اللجوء الى مشروع التقسيم كحل أخير للقضية الفلسطينية .. اما خطاب ظفر الله خان فقد كان بليغاً مؤثراً . إذ قال موجهاً حديثه الى الدول الغربية : « لا تنسوا انكم ستحتاجون في المستقبل الى حلفاء وأصدقاء في الشرق الأوسط . ولهذا أرجو ان لا تخسروا ما لكم من رأس مال في تلك البلاد .. » ثم أضاف يسأل الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة » : ما الغاية من إنشاء دولة يهودية ؟ أهي من باب الدافع الانساني ؟ اذا كان ذلك . فلماذا أقفلتم أبواب حدودكم في وجه اليهودي الذي لا ملجأ له ؟ ولماذا تصرون إذن على اسكانهم في فلسطين . بل ومساعدتهم على إقامة دولة لهم .. حتى يصبح ذلك اليهودي الذي كان بالأمس بلا مأوى يحكم العربي الفلسطيني .. ؟ » وأخيراً أنهى وزير الخارجية الباكستاني خطابه بالتهكم على الحجج والأسباب التي بررت بها الدول الكبرى إقرار مشروع التقسيم .

مناورات صهيونية لإقرار التقسيم

جاء فيما كتبه ليلنتال عن التقسيم قوله (الص ٦٧) : وننتقل الآن الى المناورات التي رافقت التصويت على المشروع . فقد كان الاقتراع النهائي قد حدد موعده في يوم ٢٦ تشرين الثاني . على ان تسبقه جلسة للاستماع الى المناقشات الأخيرة . لكن الوفود فوجئت وبدون سابق انذار بنبأ الغاء جلسة المناقشة وتأجيل موعد الاقتراع .. وقد جاء التأجيل بعد ان تأكد الصهيونيون

انهم بحاجة الى مزيد من الأصوات لتأمين الأكثرية المطلوبة .. وهكذا اغتنم قادة الصهيونية والوكالة اليهودية هذه الفرصة لبذل أقصى ما في وسعهم من مساع واتصالات في أروقة الأمم المتحدة ..

ويفهم مما يذكره ليلنتال (الص ٦٧) ان إغراء الصهيونيين لم يحدث تأثيراً لدى مندوبي بعض الدول مثل مندوب ليبيريا ، وهايتي ، واليونان ، وسيام ، ومندوب الفلبين الجنرال كارلوس رومولو ، الذي طعن الصهيونية طعنة نجلاء عندما هاجم التقسيم بعنف وقال : « ان من حق كل شعب ان يقرر مصيره السياسي . وان يحافظ على أراضيه وكيانه من أي اعتداء ، وان مشكلة مشردي يهود أوربة لا علاقة لهم البتة بانشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين » . لكن الصهاينة استعانوا بأقطاب الحكومة الأمريكية ورجالها وعلى رأسهم الرئيس ترومان نفسه فضغطوا على الحكومات وانتزعوا منها أصواتها . الا الحكومة اليونانية .

وحينما أزف وقت التصويت في يوم ٢٨ تشرين الأول . جرت مناورات أخرى فتأجلت الجلسة لمدة ٢٤ ساعة أخرى . حتى اذا ما حل صباح ٢٩ تشرين الثاني طرح قرار التقسيم على التصويت بعد بضع مناورات برلمانية فأقر بأكثرية ٣٤ صوتاً ضد ١٢ صوتاً ، وامتناع عشرة عن التصويت مع تغيب مندوب واحد . وقد علقت جريدة نيويورك تايمس في مقال افتتاحي لها على القرار بقولها ان إقامة دولة سياسية على أسس ومعتقدات دينية فقط لأمر ليس فيه من الحكمة شيء . وكذلك اعترفت صحف أخرى بان نتيجة هذا القرار قد يهدد السلام والأمن في العالم . ويعلق ليلنتال على نتيجة هذا القرار بقوله : ومنذ تلك اللحظة دُق الأسفين الأول بين الغرب والعالم العربي الاسلامي .. ثم يضيف الى هذا قوله (الص ٧٩) : « وقد كان مشروع تقسيم فلسطين القضية الأولى والوحيدة التي جمعت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في صف واحد . وجعلت بينهما نوعاً من الانسجام منذ أنشئت هيئة الأمم » ، ويقول ليلنتال : « ويجدر بنا الاعتراف هنا ان الحكومة الأمريكية قد برهنت بوقوفها

مع السياسة الروسية في صف واحد على جهلها التام بالأساليب السوفياتية .. دعونا نتساءل لماذا كان الكرملين يسمح بل يشجع هجرة اليهود اللاجئين الى اسرائيل من الدول الشرقية الواقعة تحت نفوذه ؟ لماذا كان الكرملين يسمح بتجمع (٣٠) ألف مهاجر يهودي في موانىء البحر الأسود استعداداً لتسفيرهم الى فلسطين ؟ اذا كان هذا العمل لا يخدم الأغراض السوفياتية ويتفق وخططهم المرسومة نحو الشرق الأوسط .. » ؟

ويجدر بنا هنا ان نورد ما ذكره مترجم كتاب ليلنتال المذكور الى العربية في مقدمة الكتاب المترجم حول تأثير اليهود الصهاينة ومناوراتهم الجهنمية . وهو يذكر ما يأتي نقلاً عن المرحوم الأمير عادل أرسلان الذي كان عضواً في الوفد السوري الذي حضر جلسة التصويت على التقسيم . فهو يقول : « وكان المفروض ان تبلغ هذه الأصوات ثلثي أعضاء الهيئة ، فقد كان ممثلو الدول العربية مطمئنين الى تأييد ثماني عشرة دولة من الأمم المتحدة بحيث يستحيل ان يحظى مشروع التقسيم بأغلبية الثلثين المطلوبة . وكان الصهاينة ومن ورائهم إمريكا يدركون هذا الأمر ويعرفون أن لا مناص لهم من زحزحة بعض مؤيدي العرب عن موقفهم وحماهم بشتى الطرق والوسائل للتصويت على مشروع التقسيم . وبالفعل تمكنوا بمناوراتهم واتصالاتهم الواسعة ووسائلهم المغرية من حمل مندوبي هايتي ، وليبريا ، وسيام ، للتصويت على المشروع بعد ان كان هؤلاء قد صرحوا أنهم سيقفون عند التصويت الى جانب الدول العربية لوجاهة قضيتهم وعدالتها : وقد فوجىء المندوبون العرب . في جلسة الاقتراع التاريخية عندما وقف مندوب هايتي وقال والدمع في عينيه انه ما زال شخصياً عند رأيه الخاص في معارضته مشروع التقسيم لكنه بصفته ممثلاً لحكومة هايتي لا يسعه الا ان ينزل عند أوامرها بالموافقة على المشروع .

وتفصيل هذا التغيير المفاجىء هو ان موسى شاريت قصد قبل جلسة الاقتراع الى الفندق الذي كان ينزل فيه مندوب هايتي ، واتفق انه في تلك اللحظة كان يستقبل أحد العرب الفلسطينيين السيد عوني الدجاني الذي جاء يشكره على

موقفه من قضية فلسطين . ودخل شاريت دون أن يأبه للسيد الدجاني فقد ظنه سكرتيراً لمندوب هايتي . ثم بدأ الكلام عارضاً مبلغ اربعين ألف دولار على المندوب لقاء تأييده للمشروع . فرفض مندوب هايتي العرض بأباء . وأغلظ القول لشاريت الذي انسحب وهو يردد : سوف تندم وسترى ان حكومتك ستؤيد التقسيم . وهذا ما حدث بالفعل ...

ولا شك ان الدوائر الصهيونية كانت تبذل بسخاء في إمريكا وغيرها . من أجل ترويج مصالحها وإرشاء أكبر الشخصيات وأهمها عند الحاجة . فيقول ليلنتال (الص ١٢٥) « ان المكافآت المالية التي كان ينثرها زعماء الصهيونية كان لها أكبر أثر وأشد دافع للساسة الأمريكان في مضاعفة جهودهم من أجل الصهيونية وأغراضها . ففي عهد الرئيس ترومان كان باركلي نائب الرئيس وغيره من المسؤولين في الحكومة وأعضاء الكونغرس يتسابقون على إلقاء الخطب والمحاضرات لتأييد الحركة الصهيونية لقاء أجور باهظة .. فان باركلي كان مثلاً يتقاضى (١٥٠٠) دولار عن كل خطبة يلقيها .. وهكذا كانت الصهيونية تشتري بالمال تأييد الساسة النافذين سواء في البيت الأبيض أو في دوائر واشنطن الرسمية . وبهذه الوسيلة استطاع زعماؤها وأنصارها مع ما لديهم من نفوذ ودهاء ان يمسكوا الحبل من طرفيه وينتهجوا سياسة مزدوجة لارشاء الحزبين القويين : الديمقراطي والجمهوري .. »

دير ياسين وأخواتها

يقول المستر لورانس غريز وولد في (ادفع دولاراً تقتل عربياً[1]) « إن هيئة الأمم المتحدة عينت بالاتفاق مع بريطانية العظمى يوم ١٥ مايس موعداً لانتهاء الانتداب البريطاني وإقامة دولة اسرائيل المستقلة على اساس من التقسيم الجغرافي العجيب الذي اقترحته لجنة الأمم المتحدة .. فاستغلت هذا

(١) الص ٤٣ من الترجمة العربية .

العصابات اليهودية وأخذت تعد العدة للاستفادة منه الى اقصى حد ممكن حينما تجلو بريطانية وتصبح فلسطين بلا حكومة .. ولم يكن هذا بشيء جديد على الارهابيين اليهود ، على ما يقول غريز وولد ، لأنهم كانوا خارجين على العدالة منذ ١٩٤٤ وكان عندهم سلاح بل لقد كانت عندهم مصفحات ، وخبرة كبيرة في صناعة القتل . وفي اواخر ١٩٤٨ وضعوا خطة للعمل .. وكانت لعصابتي شتيرن والأرغون آراؤهما في هذا الشأن . فاعتزمتا ترويع العرب ، من طريق شن حملات على القرى الزراعية العربية واكراههم على التخلي عنها الى اليهود . والواقع ان هذه الخطة ، التي عرفت في الأوساط غير الرسمية باسم « عملية الذعر » ، درست أحسن درس ونفذت بأشد حماسة . فلم ينتصف شهر مايس حتى كان نصف مليون عربي ممن نجوا من المذابح المتعاقبة يفرون بأنفسهم .. لأنه كان على اليهود ان يذبحوا سكان بضع قرى ليس غير ، ثم تتولى محطة اذاعتهم الباقي . وتفصيل ذلك ان الراديو اليهودي كان يتباهى بتدمير القرى العربية وذبح سكانها ذبحاً جماعياً ثم يحذر العرب قائلا : ان عليهم ان يدركوا حين يرون دبابات اسرائيل وجندها في الطريق اليهم ان المصير نفسه ينتظر قريتهم .

.. وكانت قرية دير ياسين التابعة للقدس أول نصر أحرزته عصابة الأرغون ففي الصباح الباكر من ٩ نيسان ١٩٤٨ حين كان المزارعون العرب وأفراد أسرهم ينصبون خيامهم في سوق القرية ، اقتحمت دبابتان من طراز شيرمان طرق دير ياسين الضيقة وسحقتا فلاحين متعبين . وكان يصحب الدبابتين قوة من اليهود يبلغ عددها (٥٠٠) رجل مزودين بمدافع التومي والأسلحة الأوتوماتيكية . ولقد صرحت القلة القليلة الباقية على قيد الحياة من ابناء دير ياسين — ومعظمها من النساء اللواتي سلبن كل ما عندهن ومزقت أثوابهن تمزيقاً ، واللواتي استعرضهن اليهود في شوارع تل أبيب في سيارات كبيرة

قبل ان يسلبوهن بالرغم منهن الى الصليب الأحمر الدولي — أقول لقد صرحت هذه القلة القليلة ان الدبابتين اقتحمتا سوق القرية واطلقتا النار على الأهلين المحتشدين في الساحة.

وبعد أن أطلقت الدبابتان نيرانهما تعقب الجنود الاسرائيليون أهل القرية الفارين بأنفسهم وقتلوهم في غير ما استبقاء بينما كانوا يهربون ويختبئون وفي دير ياسين تكررت مشاهدات أريحا القديمة التي وصفها الكتاب المقدس بقوله « وقتلوا كل من في المدينة من رجل وامرأة، ومن طفل وشيخ، وحتى البقر والغنم والحمير ». وكانت بعض الفظائع التي تلت تتطلب شيئاً من الخيال. فقد جمع الغزاة خمساً وعشرين امرأةً حاملاً ووضعوهن في صف طويل واطلقوا عليهن النيران. ثم انهم بقروا بطونهن بالمدى أو بالحراب، وأخرجوا الأجنة منها نصف إخراج. وقطع الأطفال إرباً إرباً أمام أعين آبائهم الذين ما زالوا على قيد الحياة. وخصي الصبية الصغار قبل ان يقتلوا. وانتزعت الحلي والخواتم من أجساد القتلى. وتبرت أصابع الضحايا الذين وجد المعتدون عسراً في انتزاع خواتمهم .. »

ويقول غريزوولد كذلك: « وطلب جاك دو رينيه مندوب الصليب الأحمر الدولي الاذن من الوكالة اليهودية في الدخول الى دير ياسين. ولكن الوكالة لم تسمح بذلك الا بعد انقضاء ٢٨ ساعة لكي تتيح للعصابة اليهودية فرصة تستطيع خلالها إخفاء معالم الجريمة. وهكذا ألقي نحو من مئتي جثة من جثث القتلى في بئر

الشهيد عبد القادر الحسيني قائد منظمة (الجهاد المقدس) استشهد في معركة القسطل في ٨/٤/ ١٩٤٨.



عتيقة . وغُطيت بالقذر والأوساخ . ولكن الرائحة النتنة فضحتهم . وتمكن المندوب البلجيكي من ان يحصي الجثث بعد اخراجها من البئر . بيد أن كثيراً من الأجساد لم تكن كاملة . وتحدث دو رينيه في شيء من الاشمئزاز عن الأشياء التي شاهدها وروى كيف أنه وجد فتاةً عربية في السادس من عمرها ما تزال حية تحت ركام من الجثث . وكيف أنه حملها إلى المستشفى . وعلق على هذا بقوله « كان ذلك بكل بساطة شيئاً فظيعاً » .

ثم يضيف غريز وولد الى ذلك قوله (الص ٤٨) : « ولم تكن دير ياسين غير بداءة واستهلال . ففي اليوم الرابع عشر من نيسان تكرر المشهد في قرية ناصر الدين (القريبة من طبرية) . وفي الخامس من مايس هاجم أفراد الهاغانا (جيش اسرائيل الرسمي) عدداً من القرى القائمة على ضفاف الأردن قرب القرية المعروفة ببيت الخوري . وفي هذا الهجوم قتل مئات من العرب وجُرح ما يزيد على ألف ومائتين . ومُثّل بالضحايا . رجالاً ونساءً وأطفالاً . قبل الموت وبعده . وقطعت رؤوس عدد من الرجال لأنهم أبدوا بعض المقاومة . وفي ٦ و ٧ و ١٣ مايس شن اليهود هجمات جديدة على قرى عربية أخرى . ففي الزيتون جمع أهل القرية كلهم في المسجد . ثم نسف المسجد بالديناميت على رؤوس من فيه . وفي بيت دراس طبّق اليهود الخطة التي طبقوها في دير ياسين نفسها »

ويختم المستر غريزوولد قصته المؤلمة بقوله : « إن لائحة الفظائع اليهودية المماثلة طويلة جداً . لكنها كلها تنهج نفس النهج . وهي تفسر لنا كيف استطاعت قوى من الارهابيين والهاغانا صغيرة نسبياً أن تخرج نحواً من ٩٠٠.٠٠٠ عربي من الأرض التي حرثوها وعمروها لأنفسهم منذ الاف السنين . لقد نجحت « عماية الذعر » نجاحاً عظيماً جداً من وجهة النظر الصهيونية . ولعل واضعها كان فخوراً بها !! ولكن المهم حقاً هو أن اسرائيل أصبحت دولة مستقلة في ١٥ مايس . وان الرئيس ترومان كسب السباق الى الاعتراف بها . وكسبه بمراحل واسعة » .

مولد الدولة الاسرائيلية

يقول ألفريد ليلنتال في (ثمن اسرائيل الص ٩٢) ـ: وفيما كان موعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين يوشك ان يحل ، كانت المعارك الدامية في الأرض المقدسة تزداد عنفاً وشدة ، وكان الرأي العام في إمريكا ، حتى الجمعية العمومية نفسها ، يزداد هياجاً واندفاعاً في تأييد الصهيونية ... ولعل أبلغ دليل على تحيز الجمعية العمومية هو رفضها السماح للدكتور ماغنس بالمثول امام الأعضاء ليدلي بوجهة نظر اليهود غير الصهيونيين في القضية . وسماحها فقط للوكالة اليهودية بالتحدث باسم « الشعب اليهودي » .

وبعد ذلك يتطرق المستر ليانتال الى كيفية اعتراف الولايات المتحدة باسرائيل حتى قبل مولدها ، فيقول : فقد أعلن وايزمن قبل أيام معدودة من



البريطانيون يفتشون العرب في باب العمود من القدس

جلاء قوات الانتداب البريطانية ما نصه : « لقد تمكنت من توطيد علاقاتنا بأصدقائنا في واشنطن وتأكدت انه سيتم الاعتراف بالدولة اليهودية في اللحظة التي يعلن فيها عن انشائها .. » وفي ١٣ أيار ١٩٤٨ كتب رسالة خاصة الى ترومان يطلب فيها ان تعترف الولايات المتحدة حالاً بالحكومة الموقتة للدولة اليهودية الجديدة . وفي هذه الأثناء كانت الجيوش العربية تستعد للزحف على الأرض المقدسة ..

ولكن في صباح ١٤ أيار ١٩٤٨ تمكن كلارد كليفورد مستشار الرئيس الأمريكي الخاص — الذي كان على اتصال مستمر بزعماء الحزب الدمقراطي وقادة الصهيونية — من إقناع رئيسه ترومان بوجوب القيام بعمل فوري لانقاذ الحزب الدمقراطي من هزيمة محققة في الانتخابات المقبلة .. وهكذا اختلى ترومان طيلة يوم ١٤ أيار بمستشاريه المقربين . كما اجتمع الى فرانك غولدمان رئيس مؤسسة « بناي بريث » الصهيونية التي ينتمي اليها صديق ترومان الحميم وشريكه اليهودي القديم أدي جاكسون . كما أبرق سول بلـــوم عضو الكونغرس (اليهودي) الى ترومان يقول : ان على الولايات المتحدة ان تعترف بالدولة اليهودية الجديدة ، وبذلك تساعد على منع نفوذ السوفيات من التغلغل الى فلسطين والشرق الأوسط ..

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف من قبل ظهر ذلك اليوم استدعى البيت الأبيض الياهو أيشتاين (وكان في ذلك الوقت يمثل الوكالة اليهودية في واشنطن) وأبلغه ان حكومة الولايات المتحدة قررت ان تعترف اعترافاً واقعياً بدولة اسرائيل فور إعلانها ، بشرط ان توجه الدولة الجديدة كتاباً تطلب الاعتراف بها . فأجاب ايشتاين ان الدولة الجديدة لا يسعها ارسال مثل هذا الكتاب قبل مولدها ووعد بان يتصل بتل أبيب ويبلغها رغبة الرئيس ترومان ..

ويتابع ليلنتال سرد القصة فيقول : « جرت كل هذه التطورات الخطيرة في جو بالغ من الكتمان . بل ان البيت الأبيض قرر إبقاء قرار الاعتراف في طي الكتمان وخاصةً عن ناظر الخارجية مارشال أو أي شخص آخر من

موظفي الخارجية ، لتحاشي أي معارضة قد يثيرها مارشال . ولأن نايلز وكليفورد كانا يخشيان ان يعمد ترومان الى تأجيل الاعتراف » .

وفي الساعة السادسة تماماً حسب توقيت واشنطن (الساعة ١٢ حسب توقيت القاهرة) أُعلن نبأ نهاية الانتداب على فلسطين .. وفي السادسة والدقيقة الواحدة أُعلن قيام دولة اسرائيل الجديدة . وفي السادسة وإحدى عشرة دقيقة تم اعتراف الولايات المتحدة بالدولة الجديدة .. ولكن الذي حدث انه بعد ٢٤ ساعة من عزم الرئيس على اتخاذ مثل هذا القرار تلقت نظارة الخارجية الأمريكية برقية من الحكومة الموقتة لدولة اسرائيل تطلب الاعتراف بها . وهكذا ارتفع في سماء فلسطين عند الساعة الثانية عشرة والدقيقة الواحدة أول علم لدولة اسرائيل ، كما ارتفع في نفس الوقت نفس العلم في واشنطن على بناية الوكالة اليهودية سابقاً .

ثم يعلق ليلنتال على هذا كله بقوله : وعند إعلان مولد اسرائيل رقص الشعب في شوارع تل أبيب وواشنطن ونيويورك وغيرها من المدن . . ومع ذلك فان الفرح والاستبشار لم يعما جميع الأنحاء .. فقد كتبت صحيفة « غازيت بوست » تتهكم على قرارات ليك سكسيس قائلة : لقد كان الوفد الأمريكي موضع سخرية باقي الوفود في هيئة الأمم . وان قرار الرئيس ترومان الفوري بالاعتراف باسرائيل قد ترك حلفاءنا في دوامة من الظلام والحيرة .. كما وضع نظارة الخارجية في فوضى ظاهرة .. اما صحيفة « رتشموند تايمس »

جنديان بريطانيان تخلفا عن الرحيل وبقيا في فلسطين فالتحقا بالجهاد ضد الصهاينة واسم الجالس جون ، واسم الواقف ميك .



فقد أشارت الى الأصوات اليهودية التي يرجو كسبها الحزب الدمقراطي الحاكم في الانتخابات القادمة من جراء ذلك .. بينما هاجمت صحيفة « بوست ديسپاتش » في مدينة سان لويس السياسة التي اتبعها البيت الأبيض والعوامل التي حدت به لسلوك هذا المسلك ضارباً عرض الحائط بالمصالح الدولية في سبيل كسب أصوات اليهود .

تدخل الجيوش العربية

كانت المقاومة العنيفة التي أظهرها العرب في فلسطين بعد قرار التقسيم قد أدت بمجلس الأمن الى ان يصدر قراراً بدعوة العرب واليهود الى التهادن وتعيين لجنة مشرفة على تنفيذه قوامها قناصل امريكا ، وبلجيكا ، وفرنسة ؛ في القدس . لكن الطريقة التي أخلى بها الانكليز البلاد ؛ لتمكين اليهود فيها ، والارهاب الذي صارت تستخدمه العصابات اليهودية لتخويف العرب وتشريدهم ؛ قد حدت بالشعب العربي في كل مكان بان يطالب حكوماته بوجوب التدخل في الأمر والحيلولة دون مبادرة اليهود الى الاستيلاء على فلسطين كلها من دون التقيد بحدود التقسيم .

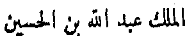
وقد اجتمعت الدول العربية في جامعة الدول العربية فقررت ذلك . وحينما غادر المندوب السامي البريطاني ميناء حيفا ، في منتصف ليلة ١٥ مايس ١٩٤٨ ؛ معلناً نهاية الانتداب شرعت الجيوش العربية في الزحف على فلسطين من الشمال والشرق والجنوب . فسيطر الجيش المصري ؛ وفي معيته بعض سرايا من السعوديين ، مع متطوعين من السودان وليبية ومصر ، على القسم الجنوبي من فلسطين بكامله عدا بعض المستعمرات اليهودية التي عزلت . وسار الجيش العراقي بعد ان احتل مستعمرة الجسر واستولى على مشروع كهرباء روتنبورغ في خطّين . يتجه أحدهما الى نابلس فقلقيلية فناثانية على البحر ، ويتجه الثاني في اتجاه مرج ابن عامر ، فالعفولة ، فجنين . وكانت أفواج من الفلسطينيين في القاطع الشمالي والقاطع الغربي تؤلف ستاراً أمام الكتائب العراقية الأمامية .

اما الجيش السوري فقد احتل سمخ وسيطر على عبر اليرموك من جسر بنات يعقوب باتجاه طبرية . ثم احتلت مشمار هايردن . واحتلت القوات اللبنانية الناقورة وبعض المواقع العسكرية على الحدود حتى أخذت تسيطر على الجليل الغربي . واحتلت القوات الأردنية أريحا ثم استولت بعد قتال عنيف على القدس القديمة وطهّرت الحي اليهودي فيها فجعلته ركاماً . كما طهّرت أيضاً المنطقة الممتدة بين رام الله وجسر اللنبي . وحينما احتلت القوات الأردنيـة القدس القديمة أصبحت القدس الجديدة تحت سيطرة مدافعها . وبالتعاون مع المناضلين الفلسطينيين قاتلت في باب الواد واللطرون فسيطرت على طريق القدس الرملة . ثم رابطت حول اللد والرملة .

ولم يكد يمضي اسبوعان حتى كانت الجيوش العربية تسيطر على المناطق المخصصة للعرب في قرار التقسيم باستثناء يافا وقسم من الجليل الغربي . وتوشك ان تحدق بتل أبيب .

معركة القدس

يفرد الكاتب اليهودي الصهيوني جون كيمشي[1] فصلاً خاصاً لحرب فلسطين (الفصل ١٨) . يتبسط فيه في وصف معركة القدس نفسها . وهو وان كـــان محشواً بالمغالطات والتحيز فاننا لم نجـــد بأساً من ايراد شيء منه هنـــا توخياً للاطلاع على وجهات النظر المختلفة. فهو يقول : وبينما كان الجيش الأردني في كيشر على وشك أن يبدأ سباقه الى حيفا . كان الملك عبد الله يتسلم من قائد جيوشه الانكليزي (كذا) في القدس نداءات


الملك عبد الله بن الحسين



(١) Seven Fallen Pillar المشار اليه قبلا .

مستعجلة تطلب امدادات عاجلة. ويقـــول كيمشي ان الملك عبدالله كان يهمه القدس أكثر مما يهمه الاستيلاء على ميناء حيفا. بينما كان الانكليز يرون ان استيلاءه على حيفا شيئاً عملياً أكثر . لكن جاذبية القدس في العالم العربي تفوق أية جاذبية أخرى ولذلك لم يتردد عبد الله . فسيق الجيش الذي كان من المقرر ان يزحف على حيفا نحو القدس .. وأصبح من الواضح ان اتجاهاً جديداً في الحرب أخذ يتبلور . فقد أخذ عبد الله واليهود معاً يبذلون جهدهم كله في الاستيلاء على القدس . وكان العرب مستولين على معظم المدينة القديمة في داخل الأسوار . بينما كان اليهود متمسكين بمعظم المدينة في خارجها . وكان في أيدي العرب كذلك التلال المحيطة بالمدينة والضواحي من جهات ثلاث . وقد نجحوا في قطع الطريق الوحيد الذي يربط القدس باليهودية ودولة اسرائيل باستيلائهم على منطقة اللطرون . وعلى هذا فقد اضطر اليهود الى ان يخوضوا قتال شوارع في داخل المدينة ، وان يقاتلوا في الوقت نفسه في اللطرون لفتح الطريق من أجل أن يجيئوا بالرجال والامدادات الى المدافعين المحصورين بضيق .

وقد كان الجيش الأردني قبل ١٥ أيار قد نجح في اعادة الاستيلاء على منطقة الشيخ جراح من المدينة الجديدة ، وبذلك عُزل جبل الزيتون عن بقية المدينة اليهودية . وكانت محلة اليهود في المدينة القديمة في أشد حالات الحصار ، وعلى وشك أن تستسلم . وكان غلوب باشا في تلك الأثناء هو الذي يفرض ستراتيجية الحرب الفلسطينية . فثبت الجيش العربي في اللطرون واصبح على استعداد للقتال . لكن بن غوريون عزم على الاستماتة في فتح الطريق . فتحشد لواء جديد هو (السابع المدرع) بسرعة في زمان .. وبعد تأخيرات ومعوقات كثيرة شن هجومه المنتظر في الثانية بعد منتصف الليل ففشل فيه . وتراجع الكثير من جنوده فلم يستول على اللطرون .

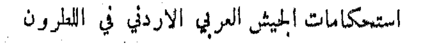
وهنا يأخذ كيمشي بالدفاع عن هذا الفشل ويفسره بتفسيرات سخيفة من جملته ان الجيش العربي الأردني وصلته امدادات كثيرة . وان مدير العمليات العسكرية الكولونيل الشاب أيكال اللون لم يكن متفائلاً منذ البداية لأن اللواء قد

سيق على عجل تنفيذاً لأوامر بن غوريون المستعجلة ، لأنه أراد الطريق الى القدس ان يفتح قبل ان يحدث ما يجمد الحدود على حالتها بقرار من هيئة الأمم .

لكن الاستغاثات من يهود القدس أخذت تتوالى : لأن يهود المدينة القديمة قد نفدت أقواتهم ومعداتهم . وكان الشبان عازمين على الدفاع حتى النهاية ، لكن الكبار لم يعد بوسعهم ان يفعلوا ذلك فأرادوا الاستسلام . وكان الهجوم على اللطرون آخر أمل في معالجة الموقف ، وحينما فشل الهجوم انقطع الأمل في إغاثة المدينة القديمة . فاستسلم اليهود فيها ، وكان عددهم حوالي اربعمائة[1] يهودي أغلبهم من الشيبة وأزواجهم وأطفالهم فأُخذوا الى الأسر . لكنهم عوملوا أحسن معاملة من قبل آسريهم رجال الجيش العربي .

---

(١) الصحيح انهم كانوا (٢٥٠٠) أسير على ما يذكر عبد الله التل قائد معركة القدس الذي أسرهم بنفسه في مذكراته ، الص ٢٣٥ .


استحكامات الجيش العربي الاردني في اللطرون



وكان استسلام المدينة القديمة والاستغاثات الواردة من قائد المدينة الحديثة قد حفـّز بن غوريون ومشاوريه السياسيين على العمل . فطلب الى لواء اللطرون ان يحاول محاولة أخرى . وتقرر ان يُعطى المدفعين اللذين كانا يعملان ضد السوريين . وان تضاف لهما ثلاثة مدافع من قياس ست بوصات مع أقل من عشرين قذيفة . لكن القائد الاسرائيلي كان بحاجة الى جنود جدد — فان كتيبة واحدة من البالماخ عدتها (٦٠٠) مدرّب كان يمكنها ان تعالج الموقف ... وحينما أدرك بن غوريون ان الاستيلاء على اللطرون لم يكن من العمليات السهلة كما كان يعتقد البعض من مشاوريه أُمرت جماعة من شباب البالماخ بالزحف على القدس عبر الجبال الوعرة لاسعاف الحامية المحصورة . وكانت المعدات في القدس على وشك ان تنفد .

لكن المدافعين اليهود صمدوا في المدينة القديمة . مع انه لم يعد عندهم الا مقدار يسير من الماء وشيء قليل من الطعام . وقد تعرض السكان المدنيون الى قصف متواصل من المدفعية . وتبادل الطرفان المتقاتلان الاستيلاء ست مرات على مستعمرة رامات راشيل في الطرف الجنوبي من القدس . وكانت البنوك والأديرة والكنائس قد أصبحت نقاطاً مهمة للدفاع . لكن العائق الحقيقي الذي وقف أمام هجمات الجيش الأردني هو قوة المدافعين الشبان التي ظلت تحارب من دون استجمام . ليس منذ الخامس عشر من مايس فقط بل منذ سبعة أشهر صعبة أيضاً — أي منذ كانون الأول ١٩٤٧— ولم يثبت هؤلاء في مكانهم فقط ولكنهم أيضاً استولوا على مناطق ستراتيجية مثل القطمون والبقاع وثكنات اللنبي التي كانت في أيدي القوات العربية . على ان التحمل الانساني أخذ يخضع للضغط المتواصل ؛ وقد علم بن غوريون بذلك ؛ ومع هذا فقد أمر بالضغط على اللطرون .

غير أن الجيش الأردني في اللطرون ظل متمسكاً في مكانه بقوة وعناد . ومع هذا فقد ساعد هجوم الاسرائيليين على اللطرون في انقاذ القدس ؛ لأن مدفعية الجيش الأردني مع رجاله وسياراته المصفحة نقلت من ميدان المعركة

في القدس نفسها الى اللطرون . وعلى هذا الوضع تجمدت الحدود بالتدريج عندما دنت ساعات الهدنة الأولى . وكان مقاتلو الطرفين قد أخذت الحرب منهم مأخذها .

ويذكر كيمشي بعد ذلك ان العرب في العواصم العربية استشاطوا غضباً لاعلان الهدنة الأولى لأنهم كانوا مخدوعين بالانتصارات الوهمية التي كانت تعلن عليهم يومذاك . وبعد ان يذكر (الص ٢٦٠ ــ ٢٦٥) ما جرى في مجلس الأمن وأوساط الأمم المتحدة من مناورات ، وتمديد أمد الهدنة التي استفادت منها اسرائيل فائدة جلى بشراء السلاح من الجيش البريطاني المنسحب وجيكوسلوفاكية ، وتهريب الطيارات والطيارين من الولايات المتحدة وانكلترة ، وتجنيد المأجورين المرتزقة والمتطوعين من العالمين الغربي والشرقي معاً ، يقول : ان اتفاقاً غير رسمي قد حصل بين البريطانيين والأمريكان من أجل خطة منقحة للسير بموجبها ، وهي ان تقبل بريطانية بقيام الدولة الاسرائيلية (كذا) ووجودها ، على ان تقبل الولايات المتحدة لقاء ذلك بان تخصص النقب للعرب . وهنا يذكر كيمشي ان ماكنيل وزير الدولة البريطاني قال له ان القتال في فلسطين يعتبر شيئاً ضرورياً ، لأن سفك الدماء لابد من ان يقع بين الطرفين حتى يقتنع العرب بأن الدولة الاسرائيلية قد أصبحت شيئاً موجوداً بالضرورة ، وحتى يقتنع اليهود بأنهم لا يستطيعون الا بالكاد الدفاع عن الحدود المخصصة لهم . وهكذا بدأت الجولة الثانية .

وكان اليهود يأملون في الجولة الثانية ان يستخلصوا الأراضي الفلسطينية في الشمال ويفتحوا الطريق الى القدس في الوسط وبذلك يجبرون الجيش الأردني على الانسحاب من شمالي القدس وغربيها .. وقد حدث في هذه الأثناء ان أمر غلوب پاشا بسحب الجيش من اللد والرملة اللتين كانتا تحتويان على ستين ألف نسمة في ضمنهم عدد كبير من اللاجئين العرب . فاغتنم اليهود هذه

الفرصة واستولوا عليهما بثلاثة ألوية (٦٠٠٠ مقاتل)[١] .

ثم يقول كيمشي : وحينما أخذت الجيوش الاسرائيلية بالكشف عن خططها ، وعندما أخذت المواقع العربية تنهار ، اصبحت القيادة الاسرائيلية شديدة الثقة بانها ستفتح الطريق في هذه المرة الى القدس وتخلص الجليل الشمالي من العرب . لكن هذا لم يحصل أيضاً لأن الهدنة الثانية قد وقعت . وهنا يذكر كيمشي ان مفتي القدس أخذ يناوىء الملك عبد الله ويقود معارضة أخذت الشكل الارهابي المألوف . ولذلك أبقي قسم من الجيش الأردني في البـــلاد

---

(١) ويقول كلوب في مذكراته (جندي مع العرب) تبريراً لتخلي الجيش الاردني عن بعض المناطق للاحتفاظ ببعض المناطق الاخرى كالخليل والقدس او التخلي عن الخليل والقدس للاحتفاظ بالمناطق الاخرى ، يقول في الصفحة ١١٠ من الترجمة العربية :

« ان احتلالنا لمنطقة الخليل قد وسع رقعة الجبهة التي كنا نعمل عليها ، والتي كانت تمتد اكثر من ١٠٠ ميل ، وكانت قواتنا يومئذ مؤلفة من ١٠ آلاف جندي من جميع الرتب ، لقد كنا نعاني أزمة مالية خانقة ، فميزانيتنا ظلت كما هي على رغم زيادة عدة قواتنا واتساع نطاق عملياتنا الحربية ، فالجيش العربي (الاردني) كان مؤلفاً من عشرة آلاف كما ذكرت ، وكان يواجه جيشاً مؤلفاً من ١٥ الفاً ، والجيش العراقي بجميع افراده كان مؤلفاً من ١٩ الفاً وذخيرتنا قد نفدت فلم نعد نملك قنابل المدافع من عيار ٢٥ بوند ، ولا ذخيرة للمورتور من عياري ٣ انج و ٤ انج ، ولا ذخيرة للمدافع المضادة للدبابات من عيار ٦ بوند ولا قنابل يدوية من ماركة ملز .

في هذا الموقع المؤلم الذي كنا نعاني فيه ازمة حادة في ذخيرتنا كان اليهود يتلقون الامدادات اثر الامدادات من السلاح والعتاد » .

ويقول : « ولقد اخذت تنبؤاتي تتحقق ، فمصر ولبنان وقعا على الهدنة الدائمة ، وسوريا خرجت من المعركة لتجابه ازمتها الداخلية ، نعم لقد رفض العراق ان يوقع على الهدنة الدائمة ولكنه اعرب عن رغبته بالخروج نهائياً من فلسطين وبذلك بقيت القوات العربية الاردنية منفردة تجابه عدواً يملك اضعاف قواتها » .

وفي صفحة ١٣٥ يقول « ورغم الاعمال الجيدة التي قام بها (الجيش الاردني) في فلسطين مع الجيش العراقي أجبرنا في النهاية على تسليم مساحة من الارض الى العدو نتيجة لانسحاب (الجيش العراقي) » .

ويقول : وهكذا وجدت قواتنا نفسها وحيدة في الساحة .

الخليل

الأردنية . ولم يبق لدى غلوب باشا سوى (٣٠٠٠) مقاتل يدير بهم جبهته الممتدة الى ثلاثين ميلاً بين القدس واللطرون . ويحمي القدس القديمة ضد أي هجوم قد يحدث . ويعود كيمشي للتعرض بالملك عبد الله من جديد فيقول انه كان على علم بأن اعتباره بين الدول العربية كان منوطاً بجيشه . ولذلك كان هذا الجيش أعز على نفسه من أية قطعة أخرى من فلسطين . وكان يفضل ان يسحبه بهدوء وسكينة على ان يتركه معرضاً للاندحار او التقلص بسبب الحرب .

غير ان كيمشي يصرح ان انسحاب الجيش الأردني لم يساعد اليهود على الاستفادة من قواتهم في جهات أخرى . بل ساعد العرب على الحيلولة دون نفوذ الجيش الاسرائيلي الى طريق القدس . ولكن بالكاد . فحينما أعلنت الهدنة الثانية ــ بعد تسعة أيام فقط ــ كانت القوات الاسرائيلية على بعد (٤٠٠) ياردة فقط عن الطريق .

ثم يقول كيمشي في ختام الفصل : لكن الصورة العامة في فلسطين كانت تدل على مقدار غير يسير من انتكاس العرب فيها . فقد استطاع الجيش الاسرائيلي خلال الأيام التسعة ان يحتل ألف كيلومتر مربع من الأراضي التي كانت في أيدي العرب . فجعلت اسرائيل مسيطرةً على (١٣٠٠) كيلومتر مربع من الأراضي المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم . وتركت في أيدي العرب (٣٣٠) كيلومتراً مربعاً من الأراضي المخصصة لليهود . وقد احتلت اسرائيل خلال أيام القتال كلها ــ البالغة ٣٨ يوماً ــ أربع عشرة بلدة عربية و (٢٠١) قرية من مجموع (٢١٩) قرية عربية . يضاف الى ذلك ان (١١٢) قرية أخرى من القرى الواقعة في القسم العربي قد تم احتلالها أيضاً . وكان العرب قد احتلوا أربعة عشر موقعاً يهودياً . من ضمنها محلة اليهود في القدس القديمة (انتهى) .

لكن الكولونيل عبد الله التل قائد معركة القدس يذكر عن هذه المعركة

في مذكراته[1] . فيقول تحت عنوان (سوء الحالة وخطورتها في القدس بعد ١٤ـ٥ـ٤٨) : استطاعت لجنة الهدنة القنصلية التي عينها مجلس الأمن لتعمل على ايجاد هدنة في القدس . أن تحصل على موافقة العرب واليهود على تمديد تلك الهدنة التي رتبها المندوب السامي . ولا سيما بعد ان فشلت مساعي وفد الصليب الأحمر الدولي لاعتبار القدس مدينة مفتوحة . واتفق الطرفان مع لجنة الهدنة على ان يحتل اليهود ما كان يعرف بمنطقة السلام (C) حول العمارة الروسية (المسكوبية) على ان يحتل العرب منطقتي السلام (A) و (B) اي منطقة الكولونية الألمانية وما حولها ومنطقة جمعية الشبان المسيحيين .

غير ان الهدنة الجديدة لم تكد تعقد ويغادر الجنود البريطانيون القدس في ١٤ـ٥ـ٤٨ حتى شرع اليهود ــ خرقاً للهدنة ــ في احتلال ما بأيدي العرب وما خصص لهم من مناطق . وكان الدفاع عن القدس العربية موكولاً لجيش الانقاذ وللجهاد المقدس . ولم يكن الفريقان على استعداد عسكري كاف . ولم يكن الناس يعرفون انه لم تكن من خطة الجيش العربي الاردني والقيادة العربية العامة تجنب احتلال القدس . وهكذا احتل اليهود تحت ستار الهدنة وخرقاً لها أهم المناطق الستراتيجية خارج السور وهي : معسكر اللنبي . معسكر العلمين . دير ابو طور . النبي داود . المسكوبية . المستشفى الايطالي . نوتردام . المصرارة . باب العمود . سعد وسعيد . الشيخ جراح . ولم يبق للعرب خارج السور الا باب الساهرة ووادي الجوز . وكان العرب كلما احتجوا للجنة الهدنة وللصليب الأحمر على خرق اليهود للهدنة أجاب اليهود بان الجماعات اليهودية المنشقة هي المسؤولة عن ذلك . ولا حول لهم في منعها !

وتحت عنوان (اليهود يحاولون اقتحام القدس القديمة) يقول الكولونيل التل : وقد تم كل ما سبق ذكره خلال ثلاثة أيام فقط هي يوم ١٥ و ١٦ و ١٧ أيار ١٩٤٨ . ففيها ساءت الحالة لدرجة أصبح معها جميع سكان القدس

(١) كارثة فلسطين ــ مذكرات عبد الله التل ، ج ١ ، ط ٢ ، ١٩٥٩ القاهرة .

العربية مهددين بالفناء لأن اليهود لم يكتفوا بما احتلوه من مواقع ستراتيجية بل أخذوا يهاجمون الأبواب الرئيسية للقدس القديمة وهي : باب العمود . وباب الخليل . والباب الجديد وباب النبي داود . محاولين اقتحام المدينة القديمة التي احتشد فيها أكثر من ستين ألف عربي نزح أكثرهم من الأحياء العربية في القدس الجديدة . وفي كل ليلة من تلك الليالي الثلاث كان العرب في القدس يتوقعون دخول اليهود من أحد الأبواب للفتك بهم وتدمير المقدسات العالمية . ولكن بطولة جنود الانقاذ والجهاد المقدس وشرطة القدس استطاعت بقيادة المجاهد الكبير أحمد حامي باشا . والقائد خالد الحسيني ، والرئيس فاضل عبد الله صدّ اليهود عن الأسوار في تلك الفترة الحرجة بالرغم من نقص الذخيرة والفوضى التي دبت في صفوف العرب نتيجة هجمات اليهود المتواصلة وتأخر الجيش الأردني عن الوصول الى القدس .

ولذلك لم يكن أمام الهيئات العربية في القدس غير التوجه الى عمان للاستنجاد بالملك عبد الله . فذهبت الوفود في كل يوم من الأيام الثلاثة المذكورة الى عمان وشرحت لجلالته خطورة الحالة . وذكرنه بقبر والده وبالصخرة والحرم الشريف وكنيسة القيامة . وفي كل مرة كان جلالته يظهر اهتمامه واضطرابه ويعد بارسال النجدات . ولا شك في ان السبب الذي أخّر جلالته عن ارسال النجدة كان الفريق غلوب الذي أسقط القدس من حسابه . ووضع خطة توزيع الجيش العربي بفلسطين على أساس ان القدس ستصبح يهودية . وتعليماته الى الكتيبة السادسة أكبر دليل على ذلك .

وتحت عنوان (الزحف على القدس وانقاذها ١٧ــ٥ــ٤٨) يقول : ولكن الله سبحانه وتعالى أراد حماية القدس القديمة فألهم جلالة الملك جرأةً خارقة فخالف أمر غلوب . وأصدر موافقته الهاتفية لي ظهر يوم الاثنين ١٧ــ٥ــ٤٨ بارسال سرية واحدة الى القدس . فأرسلتها فوراً . ثم وافق جلالته على حركتي مع بقية سرايا الكتيبة الى القدس . وخاصةً بعد ان أقنعته بأن سريةً واحدة لا تكفي لحماية أحد الأبواب .. ولم تمض ليلة ١٧ــ١٨ــ٥ــ٤٨ حتى كانت

الكتيبة السادسة قد أخلت مراكزها في الخان الأحمر ، وجسر اللنبي ، وأريحا وانتقلت الى القدس .

ويذكر الكولونيل عبد الله بعد ذلك ان غلوب باشا لم يوافق على حركة الجيش الأردني الى القدس ، ثم يشرح توزيعه لقواته على مختلف أجزاء المدينة ، ومحاصرة الحي اليهودي وصد هجمات اليهود عن الأبواب ، ويأتي بعد ذلك الى ذكر انذار اليهود بالتسليم ، وقصف الحي اليهودي في القدس القديمة ، وتعاون القوات العربية الأخرى معه . كما يشرح كيفية انقاذ حي الأرمن ، ومعركة باب النبي داود يوم ٢٤–٥–٤٨ التي صدّ فيها اليهود وخسروا ستين قتيلاً . ويأتي بعد ذلك الى ذكر قتال الشوارع وعمليات التدمير التي قام بها العرب في الحي اليهودي من القدس القديمة . ويذكر في هذه الأثناء شيئاً عن الحي اليهودي هذا فيقول :

تبلغ مساحة الحي اليهودي حوالي ربع مساحة القدس القديمة ، وهو عبارة عن منازل قديمة بنيت قبل أكثر من ألف سنة الا القليل منها ، وان أغلب منازل الحي وقف اسلامي يعود الى أسر مسلمة . وكان يقطن الحي اليهودي حوالي (١٨٠٠) يهودي ، بينهم كثير من المحاربين وأغلبهم من الهاغانا وبعضهم من عصابتي الأرغون وشتيرن ، اما المدنيون فأغلبهم من اليهود الشرقيين المتدينين . وقبل انتهاء الانتداب كان الجيش البريطاني يحاصر الحي من جميع الجهات ليقف حائلاً بين العرب واليهود . وكان الانكليز يمونون اليهود المحاصرين طوال الأشهر الثلاثة التي سبقت جلاء الانكليز .. ولذا فقد كان اليهود يدخلون الذخائر والأسلحة مع قوافل المؤن التي كانت تصل الى القدس القديمة تحت حراسة الانكليز دون ان يسمح للعرب بتفتيشها .

ثم يذكر السيد التل ان الزعيم لاش قائد الفرقة الانكليزي في الجيش الأردني كان يرفض وضع خطة موحدة لتعاون قوات الجيش في القدس ، وان ضباط المدفعية الانكليز كانوا يتجنبون قصف الأهداف المطلوبة ، وانه تمكن من إدخال المدرعات الى شوارع القدس القديمة ، وان مندوب الصليب

الأحمر كروفوازييه الفرنسي كان يساعد اليهود . وان اليهود قد اعتصموا في كنائسهم وحصنوها .

ويكتب السيد التل عن اعتصام اليهود المحاربين في الكنيس اليهودي الكبير أو « قدس الأقداس » Horuva فيقول ان يوم الجمعة ٢٧–٥–٤٨ كان يوماً أسود على يهود القدس القديمة . ففيه ضيقنا الخناق عليهم فانكمشت خطوطهم الدفاعية حتى وصلت الى الكنيس الكبير وهو أكبر وأقدم كنيس يهودي في فلسطين . وقد بُني قبل أكثر من مائتي عام . وحينما أنبأني الرئيس موسى قائد القوات التي تحاصر الحي اليهودي وتهاجمه بان التدمير والزحف قد وصل الى الكنيس الكبير الذي امتلأ بالمحاربين اليهود أخبرت الرئيس ان ينتظر ولا يسمح بالتعرض للمقدسات ريثما أتمكن من تبليغ انذاري لليهود .. فاضطررت لاصدار الأمر الى القوة باتخاذ الاجراءات التي تجدها ضرورية لتطهير المنطقة بما فيها اليهود المستحكمين بالكنيس . ولما لم يجد قائد القوة بدأ من نسفه فقد أوعز لفرقة التدمير بذلك وتمت العملية وقضي على المحاربين المتعصبين من اليهود تحت الأنقاض .

وبعد ان يصف الكولونيل التل كيفية استسلام اليهود في القدس القديمة وأسرهم . يدون ملاحظات عامة عن هذه المعركة الخطيرة نورد فيما يأتي اهمها :

١ – كانت تلك المعركة أهم معركة خاضتها الجيوش العربية في حرب فلسطين لانها أتت بنصر تاريخي لا تنمحي آثاره . فقد كانت السبب في بقاء القدس القديمة وما جاورها من الأحياء في أيدي العرب حتى يومنا هذا (أي الى ان استولى اليهود على الضفة الغربية كلها من الأردن في نكبة ٥ حزيران ١٩٦٧) .

٢ – قُتل في تلك المعركة ما يزيد على (٣٠٠) يهودي من المحاربين

المتعصبين ، بينهم (١٣٦) من عصابة الأرغوت ، وجرح (٨٠) وجدناهم في المستشفى وكانت جراح نصفهم خطيرة .

٣ ــ أخذنا من اليهود (٣٤٠) أسيراً وهو العدد المماثل تقريباً لما أخذناه من مستعمرة كفار عصيون ، وبذا يكون هذا جميع الأسرى اليهود لدى الجيش العربي وهم المجموعة الوحيدة لدى الجيوش العربية .

٤ ــ دُمِّر الحي اليهودي ولم يبق فيه مكان الا أُصيب بأضرار فادحة مما يجعل عودة اليهود اليه أمراً مستحيلاً .

٥ ــ طُهِّرت القدس المقدسة من اليهود ولم يبق بها يهودي واحد وذلك لاول مرة منذ الف عام .

٦ ــ ظهر ان اليهود المتعصبين يقاومون كثيراً ويحسنون الدفاع . واني أشهد بان يهود القدس القديمة قد صبروا واحتملوا مرارة الحرب الى آخر حد .

٧ ــ كان لهذه المعركة نتائج خطيرة بعيدة المدى . فقد حفظت القدس المقدسة عربية وجعلت منها من الوجهة الحربية دعامة للجناحين : الجناح الأيمن نابلس والجناح الأيسر منطقة الخليل . ولولا معركة القدس القديمة لما بقيت الضفة الغربية بأيدي العرب . إذ لو أن القلب وهو القدس سقط ــ لا سمح الله ــ فان اليهود كانوا ينزلون الى أريحا في وادي الأردن ويقطعون اتصال الأردن بالضفة الغربية فتنهار الجبهة كلها . (وهذا ما حصل مع الأسف في ٥ حزيران ٩٦٧) .

مقتل الوسيط الدولي الكونت برنادوت

كانت الهيئة العامة للأمم المتحدة قد قررت قبيل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٥ مايس ١٩٤٨ تعيين وسيط مفوض من هيئة الأمم يختاره ممثلو الدول الكبرى . ولم يتم الاتفاق على شخص هذا الوسيط الا بعد ان زحفت جيوش الدول العربية الى فلسطين بخمسة أيام . حيث تم الاتفاق على

تعيين الكونت برنادوت السويدي . ويقول جون كيمشي (الص ٢٥٨) ان الانكليز هم الذين تولوا ترشيحه ودعمه ، ليبرهن على انه كان مسيراً من قبلهم . ويذكر ان الكونت كتب في مذكراته ان أول من زاره عند وصوله الى پاريس مقر اجتماع الأمم المتحدة في تلك السنة في يوم ٢٥ مايس كان المستر أشلي كلارك القائم بالأعمال البريطاني في پاريس . وقد أخبره « بان الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة في ذلك الوقت لتتخذ أية خطوات معادية للعرب » . ثم يقول كيمشي : وقد قيل له في الحقيقة ان الحكومة البريطانية كانت لا تزال تقدم الأسلحة للعرب ، وان الضباط البريطانيين الذين كانوا قد عيّنوا مدربين يقومون بدور فعال في الحرب كذلك. حتى واو لم تكن الدوائر البريطانية ميّالة الى قبول الاقتراح الأمريكي باعتبار ما قامت به الدول العربية خرقاً لوثيقة الأمم المتحدة وقرارها في التقسيم .

الكونت برنادوت الوسيط الدولي الذي قتله الصهيونيون في القدس بتاريخ ١٧/٩/٩٤٨



ولم يكن ممثلو الحكومة البريطانية بطيئين في الوقت نفسه في أن يبينوا للكونت بخاذير الخطوط التي يمكن ان يسير عليها في وساطته حتى تكون مثمرة وحتى يستطيع التمتع بالتأييد البريطاني في العواصم العربية على الأقل . فان الحكومة البريطانية كانت تريد إجراء تعديل في خطة التقسيم التي قررتها الأمم المتحدة بان يُعطى القسم الجنوبي من النقب الى عبد الله وليس الى اليهود ، وان يأخذ اليهود الجليل الغربي عوضاً عن ذلك . وان يأخذ عبد الله مدينة القدس بأكملها أيضاً .

وقد وصل الكونت برنادوت قبيل هدنة الحادي عشر من حزيران

الى مقره في رودس . فكان مساعده الدكتور بنتش قد أحضر له قرار التقسيم . وحينما زار فلسطين والبلاد العربية هو ومرافقوه قوبلوا بالشك والازدراء من العرب والاسرائيليين معاً . فقد كان العرب لا يثقون بأي شيء يصدر من الأمم المتحدة التي يرون أنها هي السبب في جميع ما وقع في فلسطين من بلايا واضطرابات . لكن هذا لم يمنع الرؤساء العرب من معاملة بعثة برنادوت بأكثر ما يكون من الود والضيافة التقليدية المعروفة عنهم . اما اليهود في تل أبيب وسائر أنحاء اسرائيل فقد استثارهم وجود برنادوت والمراقبين الذين جاءوا في معيته .. وظلوا خلال الأيام التي أخذت تنتهي فيها هدنة الأسابيع الأربعة ينتظرون بقلق مقترحات الكونت الجديدة . وقد عرفت هذه في نهاية الأسبوع الثالث من أسابيع الهدنة . أي في بداية تموز ١٩٤٨ .

واذا كان الاسرائيليون يشكون في تعاطف الكونت مع العرب فقد أزالت هذه الشكوك المقترحات الجديدة التي لم تكن تختلف عما اقترحه عليه البريطانيون بصورة غير رسمية . فقد اقترح ان توضع القدس كلها — القسم العربي واليهودي — تحت حكم الملك عبد الله . على ان تحتفظ اسرائيل في مقابل ذلك بالجليل الغربي . ولم يكن قد اقترح ذلك أحد من قبل . فقد كانت هناك مقترحات حول تدويل المدينة المقدسة . ولكن الآن اي بعد سبعة وعشرين يوماً من الهجمات غير المجدية على المدينة اليهودية . وبعد جميع ما عاناه يهود القدس من حصار يأتي الكونت بكل برود فيقترح ان يقدم لعبد الله ما فشل في الحصول عليه في قوة السلاح (كذا) . ولم يكن ذلك غلطة خطيرة أثرت على وضع الكونت في اسرائيل فقط . وانما كان ايضاً خطأ سياسياً بالنسبة لعلاقاته بالعرب . فقد أثار بهذا شهية الملك عبد الله . الذي اعتبر الاقتراح تأييداً من هيئة الأمم المتحدة لادعائه (بملوكية) القدس جميعها . فأزعج ذلك المصريين والسوريين الذين لم يكونوا يريدون ان يستحوذ عبد الله على القدس . والحقيقة ان هذا المقترح الاستثنائي قد جعل استئناف القتال شيئاً مؤكداً في نهاية الهدنة لأن القدس قد تبدل وضعها خلال مدة « وقف اطلاق النار » من كونها جبهة

منسية الى اعتبارها أهم جبهة في فلسطين .

هذا ويلاحظ ان جون كيمشي الصهيوني لم يذكر في كتابته هذه شيئاً عن مقتل الكونت برنادوت الا باشارة عابرة . لان العمل الشنيع هذا يعتبر وصمة عار على كل دولة تقع فيها هذه الجريمة النكراء المدبرة . واستهتاراً بجميع القيم الانسانية والأعراف الديبلوماسية ، لا سيما وان القتيل لم يكن يناوىء اسرائيل في الحقيقة كما يفهم من مغالطات كيمشي . وانما كانت أول فقرة من مقترحاته تدعو العرب الى الاعتراف بأن اسرائيل اصبحت حقيقة واقعة .

على أننا لاحظنا في كتاب[١] (جندي بين العرب) لمؤلفه غلوب باشا في فلسطين ، انه يصف هذا الحادث الأليم بشيء غير يسير من الدقة . فهو يقول (الص ١٨١) : « كان برنادوت قد طار في صباح الجمعة الموافق ١٧ أيلول ١٩٤٨ من مطار دمشق ونزل في قلندية . شمالي القدس . واستقل سيارته الى الرملة للمداولة مع لاش (قائد فرقة الجيش الاردني) . وفي خلال الحديث أشير الى حصول ازدياد في نشاط القنّاصة في القدس. وقد طلب اليه لاش بان يقبل باستصحاب سيارة مصفحة من سيارات الجيش العربي الاردني لحمايته . كما اقترح عليه أحد مراقبي الأمم المتحدة بأن يؤجل زيارته الى القدس في ذلك اليوم . فرفض ذلك وهو يقول « لا يمكن ان نسمح لأنفسنا بان يعيقها الخوف عن عملها » . فصحبت الكونت سيارة مصفحة من الرملة الى القدس . حيث عبر الى المنطقة اليهودية .. وتغدّى في دار « الواي أيم سي أيٰ » في القدس مع جماعته وعدد من مراقبي هيئة الأمم المتحدة . وبعد الغداء استقل السيارة فسارت به مع سيارتين أخريين الى دار الحكومة . أي المسكن السابق للمندوب السامي البريطاني . وبعد تفقد الدار والحديقة المحيطة بها . ومشاهدة المدينة من أعلاها ، عادت الجماعة الى القدس . وبينما كانت السيارات تسير

---

(١) Glubb, Sir John Bagot — A Soldier with the Arabs (London 1957)

في محلة القطمون اعترضت طريقها فجأةً سيارة جيب كانت تقف في منتصف الطريق . وحينما وصلت اليها سيارات الكونت وجماعته تظاهر سائق الجيب بمعالجة جهاز التبديل فيها ، وصار يسوق سيارته الى الخلف والأمام ، حتى وقف أخيراً في منتصف الطريق أيضاً . وكان في سيارة الجيب أربعة رجال يرتدون ألبسة الجيش الاسرائيلي المعروفة . كما كانت قافلة الكونت تتألف من ثلاث سيارات تقل موظفين في الأمم المتحدة وضابط ارتباط إسرائيلي . ولم تكن ترافق هذه السيارات أية حماية اسرائيلية ، كما لم يكن أحد من جماعة الكونت يحمل السلاح .

وقد قفز ثلاثة من ركاب سيارة الجيب اليهودية الى الخارج وساروا نحو قافلة هيئة الأمم المتحدة التي وجـــدت نفسها مجبرة على التوقف لأن السيارة اليهودية سدت الطريق في وجهها . وكان الكونت برنادوت في السيارة الثالثة أو الأخيرة ، فمشى اليه أحد الاسرائيليين من جهة بينما سار الاثنان الآخران من الجهة الأخرى وذهبوا الى السيارة الثالثة رأساً ، بينما بقي السائق في سيارة الجيب نفسها . وقصد الاسرائيلي المنفرد شباك السيارة القريب من الكونت ، فظن ركابها انه جندي يهودي جاء يسأل عن الرخص التي تسمح لهم بالمرور وأخذوا يخرجونها من جيوبهم . وفجأةً أدخل الجندي الاسرائيلي فوهة مسدس أوتوماتيكي من الشباك فأطلق صليةً منه على الكونت وأخرى على الكولونيل سيرو الفرنسي ، الذي كان يجلس في جانب الكونت . وسحب الاسرائيليان الآخران مسدسيهما الأوتوماتيكيين فأطلقا منهما النار على عجلات السيارات وأجهزة التبريد (الرادياتور) ، ليمنعاها عن التعقيب على ما يظهر . وبعد ذلك قفز الثلاثة الى سيارتهم الجيب التي اختفت عن الأنظار بكل سرعتها . وقد شوهدت سيارة نقل ملأى بالجند الاسرائيلي ، واقفةً على بعد أربعين ياردة من مكان الحادث . وعرف فيما بعد ان القتلة كانوا ينتظرون في سيارتهم قبل وصول برنادوت بساعة على الأقل . وقد أُصيب الكونت بست طلقات مرت إحداها في القلب فقضت على حياته في الحال . أما الكولونيل سيرو فقد

أصيب بسبع عشرة إطلاقة . وأرسل القتلة الذين كانوا ينتمون الى عصابة شتيرن اليهودية الارهابية الكتاب التالي الى الصحف :

« بالرغم من أن جميع مراقبي هيئة الأمم المتحدة هم في نظرنا أفراد قوات احتلال أجنبية . لا يحق لها ان تكون موجودة في بلادنا ؛ فان مقتل الكولونيل سيرو الفرنسي كان سببه غلطة مميتة : فقد ظن رجالنا ان الضابط الذي كان يجلس الى جنب الكونت برنادوت كان الجاسوس البريطاني المعادي للسامية الجنرال لوندستروم » . وكان الجنرال لوندستروم من ضباط الجيش السويدي ورئيساً لمرافقي الكونت برنادوت نفسه .

ويقول كلوب وقد نقل جثمان الكونت الى حيفا في يوم ١٨ أيلول ، فمر موكبه بمواقعنا باللطرون فحياه حرس شرف من الجيش العربي الأردني لآخر مرة .. وقد انتظرنا بقلق بالغ ما يمكن ان يحصل بعد هذا الحادث الأليم . فقد كان الكونت ممثلاً لهيئة الأمم المتحدة . وقريباً من أقارب ملك السويد ، ورجلاً كرّس حياته للأعمال الخيرية والانسانية . وكنا نعتقد جازمين بأن هيئة الأمم سوف تنزل عقوبة قاسية بالذين قتلوا ممثلها مثل هذه القتلة الشنيعة. وحينما مرت الأيام ولم يحصل شيء . بدأنا ندرك ببطء مقدار العجز الذي تتصف به هيئة الأمم المتحدة . ولم تفرض أية عقوبة على ما نعلم ، والحقيقة أنه نادراً ما صدر اي انتقاد من الجهات التي يعنيها الأمر » .

اما الكولونيل عبد الله التل . قائد معركة القدس ، فيقول (الص ٣٤٨) : وفيما يتعلق بالكونت برنادوت أخذ اليهود يهاجمونه علناً ويتهمونه بالوقوف في طريق تكوين اسرائيل ، وذلك قبل تنفيذ أمر اغتياله ببضعة اسابيع . وكانت التهم التي توجه له عجيبة متناقضة ، لانه كان — واليهود يعرفون — من أكثر العاملين على خلق دولة اسرائيل وحمايتها .. ولما كانت العصابات اليهودية جزءاً لا يتجزأ من كيان اليهود لأنها أسهمت الى حد كبير في بناء ذلك الكيان فقد تغاضت السلطات اليهودية عن أعمال العصابات الاجرامية ولا تزال تشرف اشرافاً كلياً على أعمال الاجرام السياسي . وقد نجحت في ذلك لأن هذا الاجرام

خدم أغراضها وأخاف أمريكا وبريطانية ومعظم الدول الغربية ..

وكان برنادوت يقوم باحدى جولاته العادية ، وحينما وصل الى القدس بعد ظهر الجمعة ١٧–٩–٤٨ قدم الجيش الأردني الحراسة اللازمة له ابتداءً من مطار قلندية حتى الحدود العربية الاسرائيلية (ماندلبوم) . ومن الحدود اليهودية سار برنادوت وأركان حربه الى دار الحكومة ، وبعد أن أنهى بعض الأعمال هناك عاد الى الأحياء اليهودية في الرابعة والنصف بعد الظهر . وفي أحد شوارع اليهود اعترض طريق سيارته بعض المسلحين من اليهود . فأوقفت سيارة برنادوت وتقدم اليها اليهود . وبكل سهولة وطمأنينة أطلقوا النار على صدر الكونت ، وعلى رأس سيرو الذي كان راكباً بجانب الكونت في المقعد الخلفي ، ولم يعتدوا على رئيس المراقبين الأمريكي الكولونيل بيچلي الذي كان بجانب السائق .. وقد أسف العرب لمقتله لأنهم عرفوا فيه طيبة القلب، وسمو الأخلاق، بالرغم من مشاريعه لحل قضية فلسطين، تلك المشاريع التي لم يخل واحد منها من ايجاد الدولة اليهودية . اما الكولونيل الفرنسي سيرو فقد أحزن موته جميع سكان القدس العرب لأنهم عرفوه في الهدنتين الأولى والثانية ، يوم كان يتجول على المراكز الأمامية البعيدة مخاطراً بنفسه في سبيل القيام بواجبه على أحسن وجه . وقد اغتاله اليهود لأنهم اعتقدوا أنه كان صديقاً للعرب .

اما السلطات اليهودية فقد تظاهرت بالأسف العميق وأوعزت للصحف بأن تدعي الحزن وتستنكر الجريمة البشعة ، ووعدت بالقاء القبض على الجناة . ومن أجل تضليل الرأي العام العالمي . جمعت السلطات اليهودية أكثر من مائة شخص وحققت معهم صورياً ثم تركتهم بعد ان لم تجد ما يدينهم كما هو المعتاد . مع ان الجناة معروفون لليهود وللعرب على السواء ، وهم أفراد عصابة شتيرن ولم تحاسبهم الحكومة لأنها كانت الموعزة بتنفيذ ما وقع .

ويؤيد ما جاء في أقوال الكولونيل عبد الله التل ، عن برنادوت وسعيه في

كل مشاريعه لايجاد الدولة اليهودية في فلسطين ، قول الكاتب الامريكي الصهيوني جوزيف دونر[1] في كتابه (جمهورية اسرائيل) . فهو يقول عن تقريره ومقتله (الص ١٠٨) وقد أصبح هذا التقرير شهادته التي أدين بها . لأن إرهابي «جبهة أرض الآباء» التابعة لعصابة شتيرن على ما يتضح قد قتلوه في ١٧ أيلول . وقد أحزنت وفاته العالم كله ، وشجبت العمل الحكومة الاسرائيلية (كذا) فاعتبرته جريمة نكراء وعملاً من أعمال الخيانة للجيش الاسرائيلي ، وتحدياً لسلطة الأمم المتحدة . (وهذه مغالطة من المؤلف لا يؤيدها الواقع الذي وصفه المستر غلوب في الفقرات التي اقتبسناها من كتابه) . فان أبرز ما يميز تقرير برنادوت عن توصياته السابقة اعترافه الذي لا يقبل التأويل بالدولة اليهودية . ويدل على ان كاتبه قد تأثر تأثراً عميقاً بالمجهود الحربي الذي بذله اليهود . ولم يكن هناك ما يدل على ان العرب سيعترفون بالدولة الاسرائيلية ، لكن تفاؤل برنادوت كان مبنياً كما يتضح على قناعته بان العناصر المتعلقة في العالم العربي كانت قد بدأت تدرك بأن اسرائيل قد وجدت لتبقى .

وكان برنادوت نفسه رجلاً واقعياً . فحينما أصبح يلمس بان الواقع قد تبدل ، لم يتردد في تغيير رأيه هو نفسه . ومنذ ان كسب اليهود الحرب كان هو قد بدّل الموقف الذي كان قد اتخذه في مقترحات ٢٧ حزيران وكدّس مؤازرته من دون تحفظ للدولة الاسرائيلية . على ان معالجة الأمر بهذا الأسلوب تنطوي على نقاط ضعف فيها . فهي تقلل من تأثير النظرة الأخلاقية ومن أهمية الأحكام الدولية غير المتحيزة . حيث انها تعود بالبشرية الى القاعدة القديمة المخطرة التي تقول : الحق للقوة . لكن الخطأ لا ينطوي كله في برنادوت نفسه ، لأن سياسته كانت تنعكس فيها الأحوال العالمية الجارية يومذاك ،

---

(١) Dunner, Joseph — The Republic of Israel — Its History & Its Promise (New York 1950)

والعجز الأساسي الذي كانت تتصف به هيئة الأمم المتحدة في فرض أحكامها . فما قاله برنادوت في تقريره الى عالمنا هذا كان يفهم .. « ان واقع الحال هو ان الاستيلاء والاندحار في الحرب لا يزالان هما القوى المكونة للواقع السياسي وكل شيء آخر ما هو الا ستار من الدخان » .

مقتل الملك عبد الله في المسجد الأقصى

لقد أدت الحوادث الأليمة التي وقعت في فلسطين على أثر قرار هيئة الأمم المتحدة القاضي بتقسيم فلسطين الى حصول هزات وتطورات كثيرة في العالم العربي ، الذي يبدو انه استفاق على واقعه المؤلم وضعفه البارز تجاه الأطماع الأمبريالية والمناورات الدولية العنيفة فوجد نفسه متخلفاً عن الركب الحضاري ، وأموره مسلمةً في أيدي اناس تتلاعب بهم المصالح الاستعمارية ، وتسيّرهم الأطماع الشخصية لدرجةٍ غير يسيرة . ومن أهم هذه التطورات وأبرزها ما أدى الى اغتيال الكثير من الشخصيات العربية البارزة ، وحصول انقلابات وتبدلات حكومية كثيرة . ولقد سجل المستر غلوب في كتابه (جندي بين العرب [1]) ، في معرض ما كتبه عن اغتيال الملك عبد الله ، عدداً من هذه الحوادث . فهو يقول : وبعد مقتل الملك نشرت إحدى الجرائد القاهرية قائمة بالشخصيات العربية التي لقيت مصرعها خلال السنوات الخمس المنحصرة بين سنتي ١٩٤٦ و ١٩٥١ . وهي تحتوي على ملكين : هما عبد الله ملك الأردن والامام يحيي ملك اليمن ، وعلى رئيس جمهورية واحد هو حسني الزعيم رئيس الجمهورية السورية ، وأربع رؤساء وزارة هم : أحمد ماهر باشا ، والنقراشي باشا ، من رؤساء الوزارة في مصر ومحسن البرازي السوري ، ورياض الصلح اللبناني ، وعلى قائد عام عسكري واحد هو سامي الحناوي السوري ، مع رئيس الأخوان المسلمين في مصر الشيخ حسن البنّا ، ووزير واحد هو أمين عثمان المصري ، وعدد من مديري الشرطة والقضاة . وحصلت

(١) الص ٢٨١ .

محاولات غير ناجحة أخرى للقتل استهدفت عدداً آخر من رؤساء الوزارة ، والوزراء وغيرهم من الشخصيات المرموقة .

ولا شك ان اغتيال الملك عبد الله في القدس كان أبرز هذه الحوادث وأهمها . ويصف المستر غلوب في كتابه جندي بين العرب[1] الحادث فيقول :

« .. وكان من المقرر في يوم الخميس ١٩ تموز ١٩٥١ ان يحضر الملك استعراضاً للقوة الجوية الأردنية ، فقد كان تواقاً جداً الى خلق قوة جوية للأردن . إذ كان من المعتقد أن اسرائيل كانت تملك مائتي طيارة .. وفي ذلك الصباح تسلم الملك كتاباً غفلاً من التوقيع جاء فيه انه سيقتل هو وأنا — اي غلوب — وكنت قد أعلمت بان أذهب الى القصر واصطحب الملك الى المطار ، وحينما وصلت الى هناك سلمني ذلك الكتاب .. ومع ان الاستعراض كان بمقياس صغير جداً ، فانه كان على أحسن ما يكون ، وكان الملك بادي الانشراح . وقد تغدينا في المطار ، ثم طرنا الى القدس حيث كان يريد ان يبيت فيها . وكان جلالته شغوفاً بالقدس ويرغب على الدوام في ان يصلي في مسجدها أيام الجمع . وفي صباح الجمعة استقل السيارة الى نابلس ليقضي الوقت فيها حتى يحين موعد الصلاة في المسجد الأقصى عند الظهر . وهناك شرب القهوة مع سليمان بك طوقان رئيس البلدية وجلس يتحدث لمدة ساعة .

الشيخ شحادة حسن فائق الانصاري
شيخ الحرم القدسي



(٢) الص ٢٧٥ — ٢٨١ .

وعند ذاك نظر سليمان بك الى الساعة وخاطب الملك يقول ان الوقت لا يتسع لعودة جلالته الى القدس والصلاة فيها ، ثم اقترح عليه ان يؤدي صلاة الجمعة هذه المرة في جامع نابلس . لكن الملك لم يوافق ، وأجاب يقول : ان العرب تقول ان المكتوب على الجبين لا بد من ان تراه العين .

وقد كنت منذ ان اغتيل رياض الصلح قبل ثلاثة أيام أشعر بتوتر وقلق . فكلفت الكولونيل حابس المجالي بمرافقة الملك ، وأخبرته بان يكون حذراً ولا سيما عند الصلاة في الجامع الأقصى . وخطر في بالي بأن أخابر مدير شرطة القدس فأحثه أيضاً ، على ان يكون حذراً بصورة خاصة في أثناء الصلاة في المسجد ، لكنني عدلت عن ذلك وقلت لنفسي إنهم كلهم يعرفون واجبهم » .

ويتابع المستر غلوب سرد القصة فيقول : « وقد دخل الملك الى الساحة الكبرى التابعة للمسجد الأقصى في القدس قبيل الثانية عشرة بقليل . فكانت محتشدة بآلاف لا تعد ولا تحصى من الناس كما هو المعتاد في صلاة الجمعة . ففتح الناس مسيراً ضيقاً سار فيه الملك ، والجمع المكتظ يضايقه من كل جانب . وكان هويهوى التحدث مع رعاياه ، فوقف عدة مرات ليكلم الذين عرفهم من الناس ، ولذلك أحاط به الكولونيل حابس وجماعة من المرافقين ليحاولوا صد الناس عنه ، لكن الملك التفت اليه بتأثر وخاطبه بقوله : لا تحبسني يا حابس .

وحينما اقترب الملك من باب المسجد الأقصى حاول حابس وجماعته ان يحيطوا بالملك من جديد ، فكرر قوله له : لا تحبسني يا حابس . وتجاوز الملك العتبة بعد ذلك ومن خلفه الحاشية بأجمعها ، فدنا منه شيخ المسجد الوقور بلحيته البيضاء الطويلة وحاول تقبيل يده . وفي تلك اللحظة بالذات خرج رجل من وراء الباب الكبرى فوجد نفسه قريباً من الملك ، وعلى بعد ياردة واحدة منه . فأخرج مسدسه وأطلق منه إطلاقة صوبها نحو رأسه . فدخلت من خلف أذنه ثم خرجت من عينه . وعند ذاك سقط ميتاً الى الأمام على ساحة المسجد . وراحت عمامته البيضاء تتدحرج فوق الأرض المبلطة بالرخام .

وقد أخذ القاتل يطلق النار من مسدسه يمنةً ويسرة من دون هدى . حتى خف اليه رجال الحاشية فقتلوه بدوره » .

وبعد ان يصف غلوب كيفية سماعه للخبر ودعوته الى مكتب رئيس الوزراء ، سمير الرفاعي ، حيث وجده مع الوزراء يبكون بدموع غزيرة . وبعد ان يذكر استدعاء الجيش لمحافظة عمان والقدس التي نهبت فيها بعض المخازن قبل حضور الجيش ، يقول انه علم فيما بعد ان رئيس الوزراء كان قد نبّه الملك قبل يوم اغتياله ورجا منه ان يكون حذراً فاجابه الملك عبد الله بقوله : « اني اؤمن بالله فبيده حياتي » .

ويعلق المستر غلوب على الحادث بقوله « لقد ثبت ان اغتيال الملك قد وقع بتحريض من أقارب مفتي القدس السابق الحاج أمين الحسيني . وقد حوكم المتهمون في محكمة خاصة فحكم على أربعة منهم بالاعدام ، وكان القاتل الفعلي قد قتله مرافقوا الملك عند وقوع الحادث . واتهم المدعي العام كذلك عبد الله التل بكونه كان من المحرضين الثانويين على الاغتيال . ولا يخفى انه كان يعمل مع المفتي في مصر . وقد دُعيت لأدلي بشهادتي عن عبد الله التل وخدماته فحكم عليه بالاعدام غيابياً . وحينما نشر خبر هذا الحكم عقد عبد الله التل مؤتمراً صحفياً في القاهرة اتهمني فيه بأني قد لفقت التهمة ضده . حيث قال « لو كان القتيل غلوب باشا لكنت أنا قاتله ، اما الملك عبد الله فلا » .

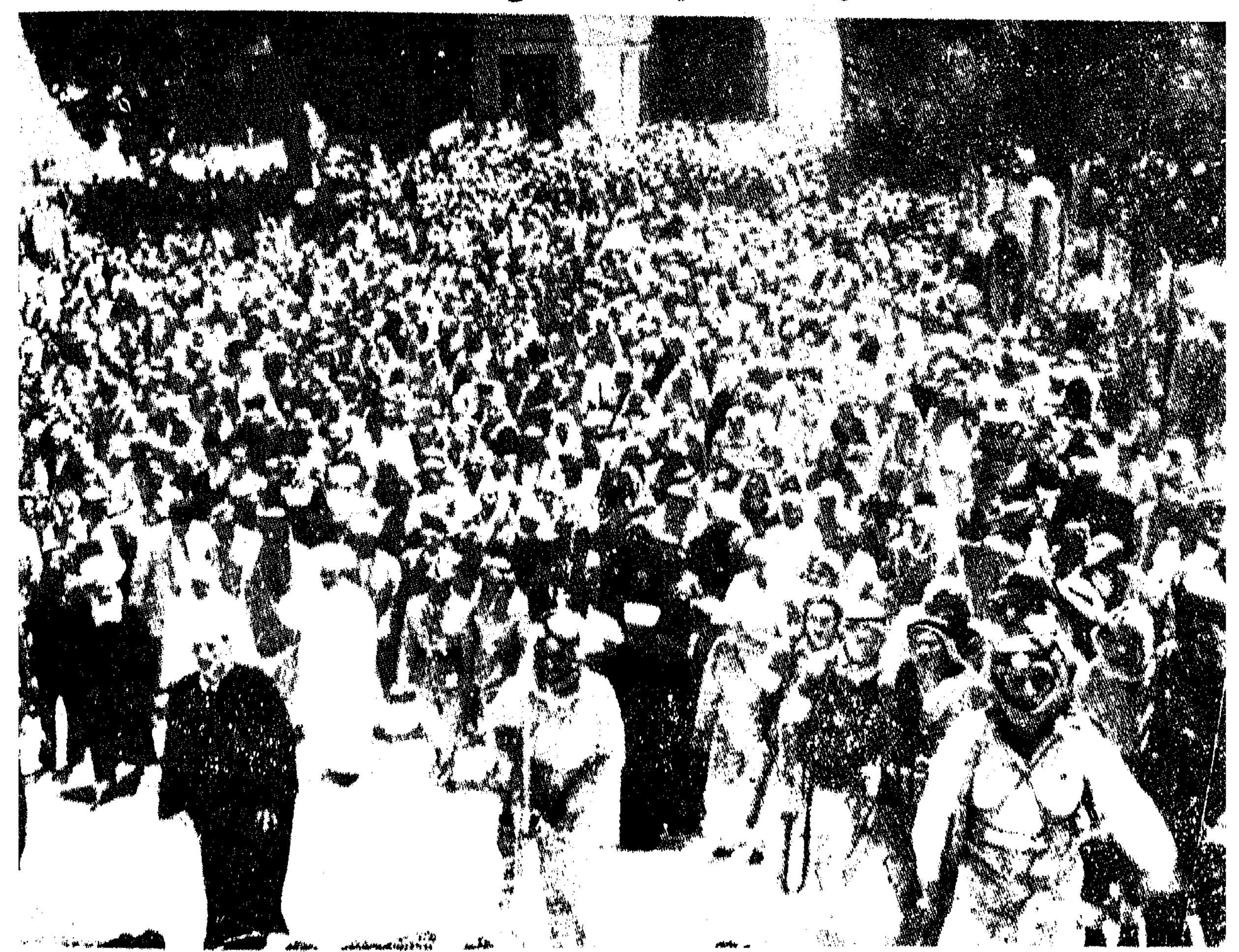
ومن الكتاب الغربيين الذين يشيرون الى مقتل الملك عبد الله في القدس كذلك الكاتب الايطالي فرانسيسكو غابرييلي ، استاذ العربية في جامعة روما والخبير في الشؤون العربية والاسلامية ، في كتابه (البعث العربي[1]) ، الذي ترجمه الى الانكليزية المستر لوفيت أدوردز . فهو يقول (الص ١٢٩) :

---

(١) Gabrieli, Francesco — The Arab Revival, Translated from the Italian into English by Lovett F. Edwards (London 1961)

« .. ان سياسة الدولة الهاشمية الأخرى ، المملكة الأردنية ، كان يسيطر عليها الى حين موته المفجع في القدس الملك عبد الله ، آخر من بقي في الميدان من أيام ثورة الحسين ولورانس العربية . وكان العربي الوحيد الذي حصل على شيء ما من الحرب مع اسرائيل المولودة حديثاً وليس من الكثير ان نحسب ان النّزاع العربي ـ الاسرائيلي لو كان منحصراً بالأردن لكان وجد وسيلة للتوافق بين الطرفين بمرور الزمن .. وقد استمر عبد الله ، في المملكة الأردنية المتوسعة ، يعلق آماله على وحدة الهلال الخصيب الذي خرج أبوه من موطنه في البادية من أجله . وهذا ما يمس الاقليمية السورية واللبنانية بعض المساس ويمسّ المتطرفين المناوئين لليهود بامكان اتفاق مع اسرائيل . فانتهى أمر ذلك

الملك عبد الله يغادر المسجد الاقصى بعد صلاة الجمعة ، وقد اخذت هذه الصورة قبيل اغتياله في مناسبة مماثلة بتاريخ ٢٠ /٧/١٩٥١



كله باغتياله في القدس يوم ٢٠ حزيران ١٩٥١ ، الذي تم على يد رجل من أتباع مفتي القدس أمين الحسيني .. »

تدويل القدس

كان آخر عمل قام به الوسيط الدولي الكونت برنادوت قبل ان يغتاله اليهود هو أنه أعد تقريراً وضع فيه مقترحات جديدة ، ورفعه الى سكرتير هيئة الأمم المتحدة التي كانت منعقدة في باريس يومذاك . وبعد ذلك بست ساعات وقع حادث الاغتيال في القدس ، والظاهر ان العصابات اليهودية كانت قد اطلعت على ما جاء في المقترحات الجديدة فلم يرقها ما جاء فيها . ولا سيما ما يختص منها باخراج النقب من أيديهم وبتدويل منطقة القدس . وكانت جميع قرارات هيئة الأمم المتحدة حول فلسطين تقضي بتدويل القدس ، لكن الفكرة من أساسها لم تنفذ لان اليهود لم يقبلوا بها من جهة ، ولأن المملكة الأردنية لم تتنازل عن حقها في المدينة المقدسة وما حولها من جهة أخرى . وعلى هذا الأساس بقيت القدس الى يوم النكسة العربية المريعة (٥ حزيران ١٩٦٧) مقسمة الى قسمين : القدس الجديدة ويحتلها اليهود فيعتبرونها عاصمتهم ، مع ان معظم أحيائها قبل الكارثة كانت عربية ومعظم القرى حولها والملحقة بها عربية ، و ٩٨٪ من أملاكها وأراضيها تعود للعرب ، والقدس القديمة التي صارت جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية ، و هي على صغر مساحتها وضآلة أملاكها تمتاز بوجود المقدسات الاسلامية والمسيحية فيها ، ولا سيما المسجد الأقصى وكنيسة القيامة[1] .

والظاهر ان الأسباب التي دعت المملكة الأردنية الى التمسك بالقدس تختص بسلامة المملكة نفسها ، وأهمية الأماكن المقدسة في نظرها . وتورد فيما يأتي ما كتبه المستر غلوب في الموضوع ، وهو يبين وجهة النظر الأردنية

---

(١) القضية الفلسطينية ، الص ٢٦٦ .

يومذاك بطبيعة الحال . فقد كتب يقول في كتابه (جندي مع العرب) الص (٢٩١) :

« .. كانت من المشاكل الحساسة خلال السنين الممتدة من ١٩٤٨ الى ١٩٥١ مشكلة تدويل القدس . فقد صرفت لجنة الوصاية العائدة لهيئة الأمم المتحدة أشهراً طويلة في وضع دستور دقيق للمدينة المدولة . لكن المشروع ، مثل غيره من مشاريع هيئة الأمم المتحدة ، ولد ميتاً بسبب عدم وجود قوات دولية تعمل على تنفيذه بالقوة . وقد وافقت اسرائيل على تدويل الأماكن المقدسة فقط ، لأنها كانت في أيدي المملكة الأردنية بطبيعة الحال . اما من الناحية العملية فان المدينة القديمة المسورة كانت هي الحصن المنيع الذي ساعد العرب على التمسك بالقدس . ولذلك فان تجريد هذا القسم من السلاح ، دون القسم اليهودي ، سيكون بطبيعة الحال في صالح اسرائيل لدرجة كبيرة ، من الناحية العسكرية .

لقد كانت القدس مدولة حقاً في مشروع التقسيم الذي وضعته هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، لكنها كانت يومذاك جزيرة في وسط منطقة عربية من كل جانب من غير ان يكون لها اتصال طبيعي باسرائيل . فبشكلها ذاك كانت الأردن ترحب بتدويلها أيضاً . لكن اسرائيل منذ ذلك الوقت قد ربطت القدس بالسهل الساحلي عن طريق ممر واسع عملت على فتحه . ولذلك أصبحت اية خطة توضع لتدويل القدس بحالتها التي توصلها الى اسرائيل شيئاً مخطراً يهدد سلامة الأردن .

فلو نظرنا الى القدس من ناحية مقطعها العرضي ، نجد انها تقع في قمة الهضبة التي تكونها الجبال الفلسطينية . اذ تنخفض البلاد المحيطة بها من الشرق انخفاضاً يبلغ (٤٠٠٠) قدم الى قعر وادي الأردن . على أنها من الجهة الغربية ليست كذلك . وهناك جبال أخرى تبلغ في علوها علو القدس نفسها في حدودها الغربية . ولذلك فاذا ما سحبت كلٌ من الأردن واسرائيل جيوشها من المدينة نفسها تصبح اسرائيل في غرب المدينة وفي نفس مستواها المرتفع .

فتستطيع والحالة هذا ان تنقضّ عليها في أي يومٍ كان خلال دقائق معدودة فتحتلها . بينما تكون الأردن من ناحية أخرى بعيدة عنها وفي مستوى ينخفض عن مستواها بمقدار ألفي قدم في انحدار شديد الهبوط في الوقت نفسه . اما بالنسبة لمشروع ١٩٤٧ فيكون الجيش الإسرائيلي بعيداً عنها جد البعد في السهل الساحلي .

غير ان هذه الاعتبارات العسكرية البحتة لم تكن كل شيء في الموضوع . فقد أُريد للقدس بموجب الدستور الذي وضعته هيئة الأمم المتحدة بان يحكمها مجلس منتخب يعين من فوقه حاكم يتبع لهيئة الأمم المتحدة . وقد سبق لليهود ان تكونت لهم في المنطقة أكثرية عددية من السكان ، وبهذا تستطيع السيطرة على شؤون المدينة ثم يقول غلوب : وبالنظر للعداء المستحكم بين العنصرين يكون من السهل علينا ان ندرك بان الأقلية العربية لا بد من ان تصبح في وضع صعب بالنسبة لمجلس المدينة . فالى جانب طغيان الأكثرية اليهودية على العرب تستطيع من نواحٍ أخرى ان تضغط عليهم بأساليب وطرق تضطرهم الى بيع ما يملكون والرحيل الى خارج المنطقة ، حيث يستطيعون السكن بحرية في عمان أو غيرهما .

وهكذا يبدو لنا ان القدس سرعان ما تكون تحت رحمة اليهود الكلية بالتدريج . اما من الناحية العسكرية فان مثل هذا الوضع كان سيؤدي الى الكارثة . فاذا ما استطاع الجيش الاسرائيلي من تثبيت أقدامه في القدس يمكنه عندئذٍ بسهولة ان يزحف الى أريحا والأردن فيمنع المناطق العربية في الضفة الغربية عن الاتصال بالبلاد الكائنة عبر الأردن . وليس هذا فقط وانما ينقطع اتصال منطقة الخليل أيضاً بمنطقة نابلس .

وكثيراً ما كان يبدو رفض اسرائيل لخطة التدويل شيئاً غريباً في نظرنا على هذا الأساس . لكن هذا الرفض لا بد من ان يكون قد حدث آنياً وأملتـــه

الاعتبارات العاطفية . فقد تكونت اسرائيل وجعلت عاصمتها « مدينة داود » . لكن اليهود لو كانوا يريدون ان ينقلوا عاصمتهم موقتاً الى تل أبيب ، ويتنازلوا عن القدس الى هيئة الأمم ، لكان بوسعهم أن يجبروا الجيش العربي الأردني على التخلي عن المدينة المقدسة . وعندما يتم ذلك كان بوسع الاسرائيليين ان يعودوا بكل سهولة الى حيث يريدون . ومن حسن الحظ انهم لم يفعلوا ذلك . (ومع هذا فقد تحقق لهم ما يريدون بكل أسف في نكسة حزيران ١٩٦٧) .

ثم يتابع غلوب فيقول : وكان من المؤلم في هذه المشكلة ان جميع البلاد العربية الأخرى كانت تطالب بالتأميم ، على خطأ أو صواب . وقد وقفت الأردن في هذه القضية مع اسرائيل في رفض التدويل ضد سائر أجزاء العالم العربي . وكان من الصعب في الأمر ان يتناسى المرء ان البلاد العربية الأخرى كانت تتواقة الى قبول أي حل كان لمشكلة القدس لتحول دون استيلاء الملك عبد الله عليها .. »

وتعليقاً على ما يذكره المستر غلوب عن موقف الدول العربية تجاه التدويل ومطالبتهم به ضد الملك عبد الله، نقول ان الاستاذ اكرم زعيتر في (القضية الفلسطينية الص ٢٦٨) يتطرق الى رأي الدول العربية في هذا الشأن ويقول انها ترى انه ما دام معظم مدينة القدس لم يكن بيد العرب ، بل هو محتل من قبل اليهود ، فان التدويل يمنع اليهود من اتخاذها عاصمة لهم ، ويمكن عشرات الألوف من العرب الذين اضطروا الى النزوح عنها وعن القرى العربية المحتلة من العودة اليها ، ويمكنهم من استرداد أملاكهم وبيوتهم ، وهي معظم مدينة القدس وقراها .

القدس في ١٩٦٠

وآخر ما عثرنا عليه من المراجع الغربية التي يأتي فيها ذكر القدس وما فيها هو كتاب بعنوان (الأردن الحديثة) لكاتبه القاضي الانكليزي المستر جيرالد

سپارو(۱) . فقد زار هذا المؤلف ، الذي كتب عدة كتب أخرى ، المملكة الأردنية عدة مرات فكتب عنها كتاباً تطغى فيه اللهجة السياحية . وهو يدون في الكتاب اشياء ومعلومات كثيرة عن هذه المملكة الفتية ، ومن جملتها ما يختص بالأماكن الدينية والأثرية التي يمكن ان يزورها السائح في يومنا هذا .

وقد كتب عن القدس يقول : لقد لفت نظري من جديد خلال زيارتي الأخيرة للأردن أهمية الأماكن التي يمكن ان تزار في أنحاء الأردن جميعها .. فليس هناك بلاد أخرى في العالم يمكنها ان تقدم للزائر مثل هذه المناظر والأماكن المبهجة الخلابة ! ففي القدس وحدها يستطيع المرء أن يرى لأول مرة الهيكل ، والساحة التي طرد منها المسيح المرابين من اليهود ، والدرجات التي نزل منها هؤلاء هاربين الى الشارع في أسفلها ، والشارع نفسه ، وهو إذ يرى هذه يكون قد رأى التاريخ بعينه ينشر أمامه من جديد ، ويدرك صدق ما جاء في العهد الجديد بطريقة حديثة بالمرة ، ومقنعة خلابة .

ولا شك ان القدس وما يجاورها تكوّن المركز الرئيسي للسياحة في الأردن . وقد تأسست على ما نعلم منذ أزمنة ما قبل التاريخ ، وهي تذكر في الانجيل لاول مرة باسم « سالم » . وقد استولى عليها النبي داود ، في سنة ١٠٠٠ ق.م ، فاتخذها عاصمةً له ، ثم جاء سليمان من بعده فشيد الهيكل فوق جبل مارا (الصحيح موريا) . وكان ابراهيم قد أعد نفسه فوق هذا الجبل ليضحي بابنه اسحق قرباناً للرب ، وهنا بالذات شاد داود المذبح ، الذي شيد سليمان الهيكل في مكانه بعد ذلك . ولم يكن هذا هو الهيكل الذي عرفه السيد المسيح ، وانما عرف الهيكل الذي بناه هيرود ، وقد تنبأ بخرابه فتحققت النبوءة على أيدي الرومان في سنة ٧٠ م . وعمد الامبراطور هدريان الذي أعاد بناء القدس كمدينة وثنية في سنة ١٣٥ م الى تشييد معبد جديد كرّسه لكبير آلهة الرومان جوبيتر ، في موقع هيكل سليمان نفسه .

---

(۱) Sparrow, Gerald — Morden Jordan (London 1961)

وحينما جاءت الى القدس الملكة هلينا والدة قسطنطين أول امبراطور مسيحي في روما في أوائل القرن الرابع . هدمت جميع أماكن العبادة الوثنية بما فيها معبد هدريان الكائن فوق جبل مارا . وقد تركت خرائب مارا بعدئذ فأصبحت في النهاية مزبلةً للمدينة المقدسة . وبقيت على حالها تلك حتى قدم العرب الى القدس في أوائل القرن السابع . وتعتبر الصخرة الموجودة في قمة مارا مقدسة عند المسلمين لسببين : اولهما انها كانت الموقع الـــذي ضحى فيه ابراهيم الذي يقدسه المسلمون ويعتبرونه خليل الله وأول مسلم على وجه الأرض وثانيهما انها ذكرت في القرآن بكونها ذات صلة باسراء النبي محمد الى القدس ومعراجه منها الى السماء . ويمكن زيارة قبة الصخرة يومياً من الساعة ٨ الى الساعة ١١ صباحاً . ومن الساعة ١ الى الساعة ٣٠ — ٢ بعد الظهر بشرط الحصول على رخصة خاصة يسهل استحصالها . ثم يقول المستر سپارو : وفي نفس الوقت الذي يزور فيه الزائر قبة الصخرة يتحتم عليه ان يسير على طول « طريق الأحزان »[١] . وهو الطريق الذي سلكه السيد المسيح وهو يحمل الصليب الذي صلب عليه (صليب الصلبوت) . وقد قُسم هذا الطريق الى أربع عشرة محطة يمثل الزائر في كل منها دوراً من الأدوار . ففي الساعة الثالثة من كل يوم جمعة بعد الظهر يخرج موكب فرانسيسكاني ، يحتوي على الحجاج والسواح ، فيقتفي خطوات السيد المسيح ويقف للصلاة في كل واحدة من هذه المحطات . ويعتبر طريق الآلام أكثر من مذكّر للمشاعر من ساعات المسيح الأخيرة . لأنه يمثل المسيحية وهي حية متجسدة امام الناظر الذي تبدو له الأحجار نفسها وكأنها تتكلم فتقص عليه تاريخها الحافل بالذكريات .

والمكان الآخر الذي يمكن ان يزوره الزائر في القدس هو كنيسة الضريح المقدس ، أو كنيسة القيامة . وكان موقع هذه الكنيسة يقع في خارج أسوار المدينة على عهد السيد المسيح . ويضم المكان الذي صلب فيه وحديقة يوسف

---

(١) Via Dolorosa

أريماثيا التي قُبر فيها . وكان المسيحيون الأولون يتعبدون سراً في هذه الأماكن ويحيط بالضريح المقدس ، كما يحيط بسائر الأماكن المقدسة في القدس ، جوٌ موثر يستحيل وصفه بالكلمات .

شيء عن قبة الصخرة

ويخصص المستر سپارو في كتابه صفحات عدة لايراد موجز مفيد[١] عن قبة الصخرة والأدوار التي مرت بها . وفي هذا الموجز اشياء لم يرد ذكرها فيما اقتبسناه قبل هذا . فهو يقول :

لقبة الصخرة في القدس أهمية فائقة عند المسلمين والنصارى على سواء . فهي مهمة عند النصارى لأن الصليبيين جعلوا من مبناها كنيسةً مسيحية بديعة سموها « المعبد الرباني[٢] » . وتزداد أهميتها عند المسلمين حتى أكثر من هذا لأن تاريخ القبة نفسها هو في قسمٍ كبير منه تاريخ نشوء الاسلام وانتشاره عبر العصور .

وتعد قبة الصخرة ، التي تأتي في الدرجة الأولى من الأهمية ، أقدم مثل يوجد اليوم لفن العمارة العربية . وهي تقع على نشوءٍ من الأرض يبلغ ارتفاعه اثني عشر قدماً ، في بقعة واسعة من منطقة الحرم . ويعلو هذا الارتفاع فوق أسس صخرية لا بد من ان تكون قد بنيت عبر القرون الطويلة من تاريخها . ويصل اليها الزائر من كل جهة عن طريق مراقٍ عريضة ودرجات تعلوها عقود رشيقة يسميها الناس « الموازين » .

ثم يأخذ المستر سپارو بوصف مبنى القبة كلها من حيث العمارة والزينة والتصميم وما أشبه ، مما يكاد يشبه ما مر اقتباسه قبل هذا من الوصف . ومما

---

(١) الص ١٣٠ – ١٤٤ .
(٢) Templum Domini

يذكره في هذه المناسبة ان أولبا چلبي الرحالة التركي الذي زار القدس سنة ١٦٧١ يقول ان سقف المبنى بجميل كان من صنع الصناع الهنود ، ويدون اسماء خمسة منهم : بهزاد من كلكتا ، وماني ، وشاه قولي ، وولي خان ، وأغارضا .. ويذكر سپارو بعد ذلك ان أحد المؤرخين القدماء من العرب ذكر ان العمل في بناء القبة عهد الى اثنين من الموظفين موثوق بهما ، وهما : رجاء ابن حياة بن جود الكندي من علماء بيسان الكبار ، ويزيد بن سلام المقدسي . كما ذكر ان القبة حينما تم بناؤها بقي من المبلغ المخصص لها مقدار مائة الف دينار فقدمه عبد الملك هدية الى الشخصين المكلفين بالاشراف على البناء ، لكنهما رفضا قبوله وهما يقولان : اننا نفضل ان نقدم مالنا وحلي أزواجنا بدل أن نأخذ هذا المبلغ . ومن الأحسن صرف المبلغ على تحسين زينته والابداع فيها . وعند ذاك صدر الأمر باذابة الذهب وإكساء القبة به . وكذلك أمر الخليفة بتغطيتها أيضاً بطبقة من الشعر ، والصوف ، والجلد ، لحماية ذهب القبة من جور الأحوال الجوية .

ويستشهد أيضاً بأقوال بعض مؤلفي الغرب عن جمال القبة ومبناها ، ومنهم البروفسور هايتر لويس الذي يقول في كتابه (أماكن القدس المقدسة[١]) : ولا شك ان هذا المسجد من أجمل المباني في العالم ، ويمكن ان يقال اضافة الى ذلك أنه من أجمل الأبنية التي عرفت في التاريخ . ويذكر جيمس فيرغوسن أيضاً في كتابه (رسالة عن طوبوغرافية القدس القديمة [٢]) : ان مسجد قبة الصخرة جميل فوق العادة فقد زرت كثيراً من القصور والأبنية الجميلة في الهند وأوربة وسائر بلاد العالم فلم أجد بناء فيها يضارع قبة الصخرة في روعته وسنائه . حيث ان تناسق الألوان فيه وامتزاجها الرائع في جنباته لم أر مثله قط في أية بناية أخرى .

---

(١) Lewis, Hayter — Holly Places of Jerusalem.

(٢) Fergusen, James — An Essay on the Ancient Topography of Jerusalem

وبعد ان يشير سپارو الى كتابة اسم عبد الملك بالخط الكوفي على المبنى يذكر ان البناء حينما تم ابتهج به المسلمون اي ابتهاج ، وأخذوا يجلونه للغاية فخصص يوم الاثنين والخميس من كل اسبوع لتنظيفه والعناية به ، وكان يقوم بهذا العمل خدام خاصون كانوا قبل أن يبدأوا بعملهم هذا يستحمون ويلبسون ملابسهم الجميلة . وكانوا يعطرون الماء الذي يستعملونه في التنظيف بعطر الورد والمستكي والزعفران . ولم تقل العناية بالقبة عبر القرون .. ويورد سپارو هنا ما يذكره مؤلف آخر ، هو هاري أمرسون فوسديك ، عن القبة وأهميتها الدينية في كتابه (حجة الى فلسطين[1]) . فهو يقول : ويعتبر هذا المكان أنسب الأمكنة وأليقها للعبادة على الاطلاق على ما يظهر . فهو محتشم وجميل ، هذبت من نسبه وأبعاده السنون والأيام ، وأصبح زجاجه الملون على درجة غير يسيرة من الروعة والبهاء ، وصار تنسيقه يملأ العين بالرضا والطمأنينة ، وجوّه ملطفاً بالسكينة والوقار ، وذكرياته لا تجارى .. ولذلك فهو مكان طبيعي للعبادة والصلاة .

وقد كان لمسجد القبة تاريخ متغير عبر القرون . ومن حسن الحظ ان كل أسرة حاكمة كان فيها من يهتم ويحافظ عليه . وبعد ان يذكر سپارو التعميرات التي أدخلت في مختلف العهود ، يقول ان جامع قبة الصخرة أصبح كنيسة مسيحية في أيام الصليبيين (١٠٩٩ — ١١٨٧) بعد اجراء بعض التبديلات ، وان المؤرخ العربي الهراوي حينما زار القدس في ١١٧٣ يذكر بالاضافة الى ذلك انه كانت هناك صورة لسليمان بن داود على الجدار المقابل لباب المغارة فيما وراء الصخرة ، وكان في شمال المبنى عدد من الدور خصص للقسان مبنياً على أعمدة جميلة . وفي أيام الصليبيين الأولى في القدس كانت الصخرة تحظى بالكثير من التقديس وصار من المعتاد عندهم ان يأخذوا كسراً منها الى القسطنطينية وصقلية على سبيل التذكار والتبرك . وكانت هذه القطع تباع هناك

---

(١) Fosdick, Harry Emerson — A Piligrimage to Palestine

بما يعادلها من الذهب ، وبهذا صارت تدر على القسس والمطارنة بالأموال الطائلة ، لكن العادة أُبطلت خوفاً من ان ينتهي أمر الصخرة كلها بهذه العملية . ولانقاذها من العبث عمد ملوك الصليبيين الى تغطيتها بالرخام وتشييد مشبك جميل من الحديد حولها الذي لا يزال باقياً حتى اليوم .

وبعد ان يتبسط سپارو في ذكر التعميرات والعناية التي تمت على يد الفاطميين وصلاح الدين ومن جاء بعده من الأيوبيين ، الذين كانوا كلهم يقومون بتنظيف الجامع وكنسه على سبيل التبرك ، يأتي على ذكر ما فعله سلاطين المماليك أيضاً . ثم يتطرق إلى أوقاف القبة واعتمادها عليها ، فيقول (الص ١٣٨) ان أمر المحافظة الدائمة على قبة الصخرة ومبناها قد أُثير في أيام الملك الأشرف برزباي سنة ١٤٣٢ فعهد الى ممثله في القدس الأمير أركاس الجلباني بشراء عدد من القرى وكثير من الأملاك فخصص ريعها لادامة القبة وصيانتها . وقد نقش عمله هذا على الجدار الشمالي للمبنى .

ثم يقول ان القدس وقعت في أيدي الأتراك سنة ١٥١٧ . ويأخذ بالاشارة الى ما قام به سلاطين بني عثمان من أعمال الصيانة والتحسين في مبنى القبة الى حد القرن التاسع عشر الذي شهد ، على ما يقول ، اهتماماً خاصاً بالقبة أبداه اربعة من السلاطين : السلطان محمود ١٨١٧ ، والسلطان عبد المجيد ١٨٥٣ ، والسلطان عبد العزيز ١٨٧٤ ، والسلطان عبد الحميد ١٨٧٦ . ويذكر بعد ذلك قوله : ولا يعرف مقدار الترميم الذي جرى في أيام عبد الحميد الثاني ، لكنه هو الذي جاء بالسجاد الايراني الفاخر الذي يراه الزائر اليوم في المسجد ، وصرف عليه مبالغ طائلة . وكذلك صرف على الشمعدان الكبير الذي كان معلقاً فوق الصخرة ، ثم نقل الى المسجد الاقصى في سنة ١٩٥١ . ثم انه أمر بنقش سورة ياسين من القرآن الكريم حول القسم الأعلى من الجدار الخارجي سنة ١٨٧٥ [1] وقد خط الكتابة الخطاط التركي الشهير محمد شفيق ، بعد ان تم انتقاؤه للعمل من بين عدد من المتنافسين . اما قطع البلاط القاشاني الذي كتبت

(١) اكبر الظن ان السلطان عبد العزيز وليس السلطان عبد الحميد الذي امر بنقش سورة ياسين لأن عبد الحميد لم يأت الى الحكم الا في سنة ١٨٧٥ . الخليلي

عليه هذه السورة المباركة من القرآن فقد جيء بها من ولاية قاشان في ايران .

وكان آخر ما تم في عهد الأتراك الاستعدادات التي أُجريت في سنة ١٨٩٨ تمهيداً لزيارة الامبراطور الألماني القيصر ولهلم وزوجته القيصرة أوغوستا فيكتورية . فقد أمر السلطان عبد الحميد بفتح فتحة خاصة في الجدار الموجود بين برج السور وباب يافا في القدس ، وكان البرج المذكور يعرف بقلعة أوبرج داود ، حتى يمكن للضيفين الملكيين ان يدخلا بمراسيم فخمة الى القدس

وبعد ان يتطرق المستر سپارو الى تاريخ تزيين قبة الصخرة وميناها بالبلاط القاشاني بالتفصيل ، خلال مدة اربعمائة سنة من الحكم العثماني ، يختم مبحثه بما طرأ على قبة الصخرة في السنوات الأخيرة . فهو يقول ان أحرج الأوقات التي مرت على قبة الصخرة هي الأيام التي أعقبت قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود سنة ١٩٤٨ . فقد حصل قتال عنيف في القدس ، وقع خلاله ضرر كبير في الأبنية ، ولم يسلم المسجد المشهور (مسجد القبة) منه . إذ وقعت قنابل اليهود عدة مرات في منطقة المسجد ، كما وقع عدد غير قليل منها على المبنى نفسه فسبب اضراراً غير يسيرة . فأضافت هذه الأضرار شيئاً جديداً إلى حالة التضعضع التي كانت قد آلت اليها القبة من قبل ، وسببت كثيراً من القلق في نفوس المعنيين بها . وتشير السجلات الحكومية الى ان القنابل قد أصابت منطقة القبة في ما لا يقل عن ثلاث عشرة مناسبة ، وقد وقع أكبر عدد منها في يوم ١٦ تموز وهو اليوم الذي سبق يوم الهدنة الثانية . فقد أصابت المنطقة في ذلك اليوم ستون قنبلة ، ولم تصب المبنى منها الا واحدة فقط . لكنها أحدثت ضرراً بليغاً في السقف الخشبي . وحينما قصفت المنطقة قصفاً عنيفاً في يوم ٢٣ أيلول ١٩٤٨ تكسر عدد كبير من زجاج الشبابيك في الجهة الشمالية الغربية ، وحصلت أضرار بالغة في ثلاثة عشر شباكاً ، وأضرار طفيفة في تسعة أخرى ، كما قتل رجل واحد كان يصلي في المسجد . ثم سقط من جديد عدد من القنابل في يوم ١٠ تشرين الأول فهدم جزءاً من الجدار الشمالي الغربي ، وأحدث أضراراً بالسلّم المؤدي الى المرتفع الذي يقوم عليه المسجد نفسه .

القدس في عام ١٩٦٩

وكان من النتائج الخطيرة التي أعقبت خلق الدولة الاسرائيلية في قسم غير يسير من فلسطين العربية ، وتمادي الغرب وامريكا على الأخص في تقويتها ودعمها بدافع من عصبيته الصليبية ومصالحه الاستعمارية ، ان اعتدت هذه الدولة على الضفة الغربية من الأردن في يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ واحتلتها كلها . وكان من جملة ما احتلته القدس القديمة وما فيها من الأماكن الاسلامية والمسيحية المقدسة . وبهذا اصبحت فلسطين كلها ترزح تحت نير من الاحتلال الاسرائيلي ، برغم قرارات مجلس الأمن الدولي التي أوجبت على اسرائيل الانسحاب الى ما وراء الحدود القديمة .

وخير ما يدل على الحالة في القدس الى ما قبل أشهر قليلة فقط التقرير الذي كتبه صحفي أمريكي يدعى توم فيلدينغ(١) عما شاهده بنفسه في المدينة المقدسة (٢) فهو يقول :

« .. انها لحماقة ان تدعي ان العرب في القطاع الشرقي من مدينة القدس . وفي أي مكان آخر من الضفة الغربية المحتلة ، لا يعانون ظروفاً صعبة . والهدف من تقريري هذا هو تشخيص طبيعة المأساة ، وما تعنيه بالنسبة للسكان الذين يتأثرون بالتغيرات التي طرأت منذ عام ١٩٦٧ .. فأنت أينما تذهب تجد ما يدل على الاضطراب والغليان ، وهو يختفي وراء الظواهر التي تشاهدها لأول وهلة . ولا يظهر هذا الغليان الا عندما تقع حادثة مهمة أو يحصل حادث ذو بال ،

ثم يقول : ولقد اضطرب العالم الاسلامي بشكل لم يسبق له مثيل من قبل

---

(١) **Tom Fielding**

(٢) نقلا عن جريدة **Baghdad Obsrver** ، عدد ١ — ٣ آذار ١٩٧٠ ، وقد ترجمه الى العربية العميد الركن حسين عبد الجبار ونشره في عدد حزيران ١٩٧٠ من مجلة الجندي العراقية .

بعد حادث الحرق للمسجد الأقصى .. وكان هناك المسجد الاسلامي الأعلى في القدس الذي يشرف على الشؤون الاسلامية في أيام الانتداب البريطاني . فألغت اسرائيل هذا المجلس وعوضت عنه بلجنة تضم تسعة أعضاء مخولين بادارة شؤون المسلمين معظمها .. بموجب القانون الذي أصدرته في ١٩٦٩ (على ان يكون ثلاثة من أعضاء اللجنة من غير المسلمين) .. ويحق لهذه اللجنة تعيين قضاة للمحاكم الشرعية الاسلامية . وحيث ان الاسلام لا يعترف بتعيينات تصدر عن جهة غير مسلمة فان سلطة القضاة الذين تعينهم اللجنة الاسرائيلية هي موضع شك المحاكم الشرعية . فنتج عن ذلك كثير من الخلط والارتباك بين أعضاء اللجنة حول الاجراءات والقرارات التي تتخذها .

ثمّ يقول المستر فيلدنغ ان أعمال تدمير المنازل في القدس القديمة مستمرة ، فهناك على ما يصرح به كوليك محافظ المدينة اليهودي مشاريع لبناء وحدات سكنية لايواء ألف مستوطن يهودي داخل المدينة المسورة .. ويوجد كذلك في المدينة القديمة(باص)مصمم بصورة خاصة على شكل بيضوي لتسهيل مروره في الشوارع الضيقة وتحت المباني التي تعلو طريق السيارات الممتد بين بوابة يافا وحائط المبكى ، ويمر الباص كل عشرين دقيقة من بطريركية الأرمن ، لكن هذه الخدمة قابلها العرب باشمئزاز ولم يؤيدوها ، ولذلك فان الباصات في أغلب الأحيان ينقصها العدد الكافي من الركاب .. وهذه بلا شك ظاهرة تجلب انتباه السياح اليها بقدر ما يجلبه الندب والبكاء عند حائط المبكى نفسه . ومع هذا فان تسيير خط الباص يعتبر خطوة غير مباشرة لتقوية قبضة الاسرائيليين على القدس بقسميها القديم والحديث .

وقد تمكن الاضراب العربي الذي أُعلن في ١٥ مايس ١٩٦٩ ، في القسم الشرقي من القدس ، من اغلاق المحلات التجارية كافة ابتداءً من الساعة الثامنة والنصف صباحاً.. الا أن العربات الملأى بالشرطة أرغمت أصحاب المحلات التي تقع في خارج السور على فتح محلاتهم ، وسجلت أسماء المتباطئين منهم .. لكن الذين كانت تقع محلاتهم في داخل المدينة القديمة أغلق ٩٥ ٪

منهم محلاتهم طوال اليوم . وكان الذي حدا بالذين عادوا الى فتح محلاتهم هو أنهم تذكروا إضراباً سابقاً فقد خلاله خمســة عشر محلاً تجارياً جميع ما كان فيها على سبيل العقوبة .. ولهذا يبدو ان قمع الاضرابات على هذه الشاكلة أصبح ظاهرةً اعتيادية متكررة في عهد الاحتلال الاسرائيلي .. وقد استمر تطبيق قانون ضريبة الدخل ، والضرائب المفروضة على الأعمال ، على كل شخص يسكن في القدس الشرقية . كما تعرض ثلاثة فنادق هي : فندق سنت جورج ، وفندق القصر الوطني ، وفندق الحجاج ، الى اجراءات صارمة في ١٥ نيسان ١٩٦٩ . وقيل ان وكالات السياحة في القدس الشرقية قد توقفت عن العمل وأُعطي لها بدلاً عن ذلك عنوان يقع في القدس الغربية ، وعن طريق هذا العنوان فقط يتم تنظيم الرحلات السياحية وترتيبات السكن .

ويقول عن السيارات : ان أصحاب السيارات ، عدا الذين يسكنون منهم في القدس الشرقية ، يرغمون على تعليق لوحة تسجيل إضافية في سيارتهم تحمل حرفاً عبرياً يدل على المدينة المسجلين والمقيمين فيها . ويعد هذا جزءاً من تدابير الأمن المتخذة للسيطرة على شؤون السفر والتنقل بين مختلف المناطق العسكرية . وفي حالة زيارة العرب لأقاربهم أو ذهابهم لتولي بعض الأعمال الاعتيادية ، فان ذلك يتطلب الحصول على تصريحات خاصة . ويشمئز العرب من هذه الحالة باعتبارها تشريعاً ممقوتاً يشابه القانون النازي الألماني الذي كان يفرض على اليهود ان يحملوا نجمة صفراء اللون خاصة بهم .

وبعد ان يورد توم فيلدينغ أرقاماً وإحصاءات عن المنازل والقرى العربية المهدمة ، ولا سيما حول القدس ، يتطرق الى ذكر المحاكم الشرعية في القدس فيقول : وتضغط الحكومة الاسرائيلية على محكمة القدس الشرعية والأوقاف وعلى القاضي نفسه لابقائهم خاضعين لسيطرة وزارة الشؤون الدينية .. وقد وسّعت الحكومة صلاحية قاضي يافا بحيث شملت القدس لأن هذا الأخير يميل الى الاعتراف بالسيطرة الاسرائيلية ، وان اسرائيل ترفض قبول الأحكام الصادرة عن قاضي القدس نفسه وكذلك فان محكمة الروم الأورثوذكس لا

يعترف بها ، فتفضل أحكام المحكمة العليا الاسرائيلية عليها .

وقد صرح لي اناس كثيرون عن اعتقادهم بوجود خطة إسرائيلية متقنة للقضاء على وجوه المجتمع العربي وزعمائه في القدس وغيرها بالتدريج . وقد طُبقت هذه الخطة على المثقفين والطلبة والأساتذة والأطباء والممرضات والأعيان المحليين ، وجميع من له خبرة في الادارة والخدمة المدنية الخ ...

وآخر ما يورده فيلدينغ عن ما يعانيه سكان القدس من مضايقات قصة شخص يدعى نعيم عشّاب . ألقي القبض عليه أول مرة في ٧ كانون الثاني ١٩٦٨ في أحد شوارع القدس فضُرب وأُهين علناً من قبل رجال الأمن الاسرائيليين ... ونزف الدم منه بنتيجة ذلك .. ثم وُضع في زنزانة صغيرة مظلمة في سجن دامون . ولم توجه له أية تهمة ، كما لم يسبق له ان اتُهم بشيء ثم أفرج عنه في أيار ١٩٦٨ ووضع تحت الاقامة الجبرية في بيته ، بشرط ان يثبت وجوده فيه مرتين في اليوم الواحد ، وان لا يترك الدار من غروب الشمس الى شروقها ، ولا يغادر القدس مطلقاً . واستمر على هذه الحالة ستة أشهر كان خلالها هو وزوجته يتعرضان الى تعديات كثيرة ثم مُنع من زيارة اخته وزوجته لمدة سنة ، كما منع من زيارة والده زوجته المسن المريض الساكن في الضفة الشرقية . وألقي القبض على السيد عشاب للمرة الثانية في ٣٠ تشرين الأول ١٩٦٨ وهو ما زال في التوقيف حتى كتابة هذه السطور .. »

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة













